مذكرات

جوان ديديون

عام التفكير السحري

ترجمة: شادي خرماشو

عام التفكير
السحري

مذكرات

Author: **Joan Didion**	اسم المؤلف: جوان ديديون
Title: **The Year of Magical Thinking**	عنوان الكتاب: عام التفكير السحري
Translated by: **Shadi Khurmasho**	ترجمة: شادي خرماشو
Cover Designed by: **Majed Al-Majedy**	تصميم الغلاف: ماجد الماجدي
P.C.: **Al-Mada**	الناشر: دار المدى
First Edition: **2020**	الطبعة الأولى: 2020

جميع الحقوق محفوظة: دار المدى

Copyright@ 2005 by Joan Didion
All rights reserved including the rights of reproduction inwhole or in pan in any form

للإعلام والثقافة والفنون

Al-mada for media, culture and arts

+ 964 (0) 770 2799 999 + 964 (0) 770 8080 800 + 964 (0) 790 1919 290	بغداد: حي أبو نؤاس - محلة 102 - شارع 13 - بناية 141 Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102 - 13 Street - Building 141 www.almada-group.com email: info@almada-group.com
+ 961 706 15017 + 961 175 2616 + 961 175 2617	بيروت: الحمرا- شارع ليون- بناية منصور- الطابق الأول dar@almada-group.com
+ 963 11 232 2276 + 963 11 232 2275 + 963 11 232 2289	دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 أيار al-madahouse@net.sy ص.ب: 8272

All rights reserved. No part of this publication may be reproduced or stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means; electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without the prior permission in writing of the publisher.
This book is the writer's responsibility, and the opinions contained therein do not necessarily reflect the opinion of the publisher.

لايجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو تخزين أي مادة بطريقة الاسترجاع، أو نقله، على أي نحو، أو بأي طريقة سواء كانت إلكترونية أو ميكانيكية، أو بالتصوير، أو بالتسجيل أو خلاف ذلك، إلا بموافقة كتابية من الناشر مقدّماً.
هذا الكتاب مسؤولية الكاتب، والآراء الواردة فيه لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر.

جوان ديديون

عام التفكير السحري

ترجمة: شادي خرماشو

مقدمة المترجم

بسرعة تتغير الحياة...

هكذا تقبض عليك ديديون منذ البداية لتصبح أسير سردها من أولى كلماته، فتبدأ الإمساك بك بعبارات تردَّدت في نفسك بلا كلمات، ومشاعر عشتَها بلا مسميات، وأوهام راودتك بلا تجسّد، فتمضي معها في رحلة حزنها وحدادها مصحوباً بعبارات وتفاصيل تستوقفك لتستعيد لحظات عبرتُها وعبرَتك.

تروي الكاتبة في روايتها، التي كانت الأكثر مبيعاً في أمريكا في العام 2007، قصة فقدانها لزوجها جون غريغوري، الذي تزامن مع سقوط ابنتهما ضحية مرض سيودي بحياتها أيضاً، في سرد دقيق لمشاعر وآلام وأوهام عاشها، أو سيعيشها، كل شخص منا.

تشرع ديديون بتأريخ أول عام من حياتها بصحبة غياب زوجها منذ لحظة موته المتوقعة- المفاجئة، في سرد بارد تشريحي يصف عمق الفجيعة وهولها، لتعيش معها الحزن والرعب واللامعقول، وتبحر في عالم الطب وعلم النفس والأسطورة والغيبيات...

يشق عليها تقبّل الواقع والاستمرار في الحياة بعد موت شريكها فيها، فتبدأ باستحضاره وانتظاره وترقّب عودته، واعتبار لحظة موته خارج الزمن، والنظر إليها كحدث مؤقت سيمر وينقضي، وكأنها تقول لنا ما مفاده إنه مهما بلغ بك العلم والثقافة تبقى في المحن عبداً للخرافة.

لكنها في النهاية تصل إلى تلك الحقيقة البسيطة التي ينتهي إليها

الجميع، مرغمين، والتي تتجسّد في القسوة والحتمية والقناعة التي تحملها عبارة «واجب على الحياة أن تستمر»... وتعزّي نفسها بحركة التاريخ والجغرافية، وتبدّل طبقات الأرض، والورود التي تذوي:

"لا بد أن إكليل الأزهار الذي تركته في كاتدرائية القديس جون قد ذوى الآن."

أكاليل الزهر يذوي لونها، الصفائح التكتونية تغيُّر مكانها، التيارات العميقة تتحرك، الجزر تتلاشى، وغرف لطالما دخلناها تدخل في طي النسيان."

هكذا تسلّم بالأمر الواقع وتترك للموت أن يأخذ زوجها من يومياتها وأفكارها، وتعتقه من تعلّقها به، وتسمح لموته، بعد الاعتراف به، بأن يعيدها إلى الحياة:

«أعرف لماذا نحاول أن نُبقي أمواتنا أحياءً: نحاول أن نُبقيهم على قيد الحياة ليستمر وجودهم في حياتنا... لنبقى نحن أحياء. أعرف أيضاً أننا إذا ما أردنا نحن أنفسنا أن نحيا يأتي وقت يتوجب فيه علينا أن نتخلى عن موتانا، أن نعتقهم من تعلّقنا بهم، أن ندعهم وشأنهم، أن نسمح لهم بالموت».

رواية يمتزج فيها النفسي بالعلمي بالشخصي بالغيبي في عام سحري عاشته كاتبتها، فخطته لنا بسحر...

-1-

بسرعة تتغير الحياة.

في لحظة تتبدل الحياة.

تراك جالساً تتناول العشاء وإذ بالجياة التي تعرفها تنتهي.

أي شفقة على الذات تلك!

تلك كانت أولى الكلمات التي دوّنتها بعد أن حدث ما حدث. تاريخ التحديث الأخير كما يبيّن الملف الذي يحمل عنوان «أفكار عن التغيير» هو «20 مايو، 2004، الساعة 11:11 ليلاً» لكن لا بد وأن هذا التاريخ يعود إلى آخر مرة فتحت فيها الملف وضغطت أمر الحفظ بلا تفكير قبل إغلاقه. لم أكن قد أجريت أي تغيير على النص في شهر مايو. في الحقيقة، لم أجرِ أي تغيير على الملف منذ أن كتبت هذه الكلمات في يناير 2004، أي بعد يوم أو يومين، أو ربما ثلاثة، من الواقعة.

مر وقت طويل بعد ذلك لم أكتب خلاله أي كلمة.

تتبدل الحياة في لحظة.

تلك اللحظة الاعتيادية.

في مرحلة معينة، وأثناء تذكر الجانب الذي بدا أنه الأكثر إثارة للدهشة ومدعاة للصدمة في ما حدث، خطر لي أن أضيف عبارة «اللحظة الاعتيادية». عرفت في الحال أنه لا حاجة إلى إضافة كلمة «اعتيادية» لأنني ما كنت لأنساها البتة... لم تكن الكلمة لتغادر ذهني أبداً. في

الواقع كانت الاعتيادية المطلقة لكل ما سبق الواقعة هي ما حال بيني وبين تصديق أنها قد وقعت، وهي ما أعجزني عن استيعابها، واحتوائها، وتجاوزها. أدرك الآن أنه لم يكن ثمة شيء استثنائي في ما حدث: عندما تأخذنا مصيبة على حين غرة نركز جميعاً على الظروف الاعتيادية التي وقع ضمنها ما لم يكن في الحسبان... السماء الصافية التي هوت منها الطائرة، تلك المهمة العادية التي طلبها المدير فجأة وانتهت بسيارة مشتعلة على جانب الطريق، الأراجيح التي اعتاد الأطفال أن يلعبوا عليها عندما ظهرت تلك الأفعى المجلجلة من بين أعشاب اللبلاب ولدغت لدغتها. «*كان في طريقه إلى المنزل، سعيداً، ناجحاً، ينضح صحة وأملاً... وفجأة انتهى كل شيء*». هذا ما قرأته في تقرير ممرضة في عيادة الطب النفسي كان زوجها قد فارق الحياة إثر حادث مروري على الطريق السريع. صادف في العام 1966 أن أجريت العديد من المقابلات مع أشخاص كانوا يعيشون في هونولولو صبيحة يوم السابع من ديسمبر من العام 1941. جميعهم بلا استثناء بدأوا روايتهم عن أحداث بيرل هاربر بإخباري أنه «كان صباح يوم أحد عادياً لا يميزه عن سواه شيء». «كان يوماً جميلاً من أيام شهر سبتمبر» ما زال الناس يرددون حينما يُطلب منهم أن يصفوا صباح ذلك اليوم الذي اخترقت فيه طائرة الخطوط الجوية الأمريكية في رحلتها رقم 11 وطائرة الخطوط الجوية المتحدة في رحلتها رقم 175 برجي التجارة العالميين في نيويورك. حتى التقرير الذي صدر عن بعثة التحقيق في أحداث الحادي عشر من سبتمبر يبدأ بهذه النبرة السردية الاعتيادية الممجوجة، والصادمة في الوقت نفسه: «الثلاثاء، 11 سبتمبر، 2001، صباح معتدل وسماء صافية لا تشوبها غيمة في الولايات المتحدة الشرقية».

«وفجأة... انتهى كل شيء». *في غمرة الحياة يتربص بنا الموت*، هذا ما يكتبه أعضاء الكنيسة الأسقفية على قبورهم. أدركت لاحقاً أنني كنت قد أعدت رواية تفاصيل ما حدث على مسامع كل من أتى إلى المنزل

في الأسابيع الأولى التي أعقبت الحادثة، كل هؤلاء الأقارب والأصدقاء الذين أحضروا الطعام وأعدوا المشروبات ووضعوا الأطباق على المائدة لتقديم الطعام لكل من كان حاضراً في وقت الغداء أو العشاء، كل من رفع الأطباق عن المائدة ووضع بقايا الطعام في الثلاجة وشغّل غسّالة الصحون وملأ منزلنا (ما كان بإمكاني أن أفكر فيه على أنه منزلي وحدي حينها.) ذلك المنزل الذي بات فارغاً من دونهم، حتى بعد ذهابي إلى السرير في غرفة النوم (غرفة نومنا، حيث لا يزال الرداء حائل اللون قياس XL الذي اشتريناه في سبعينيات القرن الماضي من متجر ريتشارد كارول في بيفرلي هيلز ملقى على الأريكة) وإغلاق الباب خلفي. أكثر ما أذكره بوضوح من الأيام والأسابيع الأولى التي أعقبت الحادثة هي تلك اللحظات التي كان يصيبني فيها الإرهاق فجأةً. لا أذكر أبداً أنني قمت برواية تفاصيل الواقعة لأحد، لكن لا بد أنني قد قمت بذلك، إذ إن الجميع كان ملماً بكل تفاصيلها. أتى وقت رجّحت فيه احتمال أن تكون تفاصيل الحكاية قد تم تناقلها من شخص إلى آخر، لكنني صرفت النظر عن هذا الاحتمال في الحال، فالقصة التي ردّدها كل منهم كانت دقيقة في كل أحداثها، ومتطابقة بحذافيرها بما ينفي تماماً احتمال أن تكون قد وصلتهم بالتناقل ومن خلال القيل والقال. كنت أنا من حكاها لهم.

السبب الآخر الذي جعلني أتأكد من أنني مصدر الحكاية هو أن أي نسخة سمعتها لم تكن تتضمن تلك التفاصيل التي لم أكن قادرة على مواجهتها بعد، مثل الدماء على أرضية غرفة الجلوس التي بقيت حيث كانت إلى أن جاء جوزيه صباح اليوم التالي ونظفها بنفسه.

جوزيه، الذي كان جزءاً من منزلنا ودقائق يومنا، والذي كان من المفترض أن يطير إلى لاس فيغاس في وقت لاحق من اليوم نفسه، يوم 31 ديسمبر، وهو أمر لم يحدث بعد ذلك... جوزيه كان يبكي صباح ذلك اليوم وهو ينظف الدماء. عندما أخبرته بما حدث لم يفهم ما كنت أقوله في البداية. من الواضح أنني لم أكن الراوي المثالي لتلك القصة،

شيء ما في نسختي كان مرتجلاً ومنقوصاً، شيء ما في صوتي عجز عن التعبير عن حقيقة الوضع وعن الحدث الأساسي في القصة (هذا العجز عن التعبير سأواجهه لاحقاً عند محاولتي إخبار كوينتانا بالقصة)، لكنه عندما رأى الدماء على الأرض فهم كل شيء.

كنت قد أزلت الحقن المستعملة وأسلاك جهاز تخطيط القلب قبل وصوله صباح ذلك اليوم لكنني لم أستطع ان أحتمل منظر الدماء.

هذا ما حدث باختصار.

الوقت الآن، وأنا أبدأ بكتابة هذه الكلمات، هو مساء الرابع من أكتوبر 2004.

منذ تسعة أشهر وخمسة أيام، حوالي الساعة التاسعة من مساء الثلاثين من ديسمبر 2003، تعرّض زوجي، جون غريغوري ديون، وهو جالس إلى مائدة العشاء التي كنا قد حضّرناها للتو في غرفة الجلوس في منزلنا في نيويورك إلى أزمة قلبية حادة أدت إلى موته. كانت ابنتنا الوحيدة، كوينتانا، غائبة عن الوعي على مدى الأيام الخمسة الماضية في وحدة العناية المركزة في مركز بيت إسرائيل الطبي - شعبة سنجر- وهو مستشفى كان قائماً في ذلك الوقت في جادة إيست إيند أفينيو (وقد أغلق أبوابه في أغسطس العام 2004) وكان اسمه الأكثر تداولاً هو «بيت إسرائيل نورث» أو «مستشفى الأطباء سابقاً»، حيث تبيّن أن ما ظنناه إحدى نزلات البرد شائعة الحدوث في شهر ديسمبر هو في الحقيقة أزمة صحية حرجة تفاقمت بما يكفي لتودي بها إلى قسم الطوارئ صبيحة عيد الميلاد، وقد تطوّرت إلى التهاب رئوي وصدمة إنتانية بعد ذلك. هذه محاولتي لفهم الفترة التي أعقبت الكارثة، الأسابيع ومن ثم الأشهر التي كشفت لي سخف وبطلان أي فكرة كانت لدي عن الموت، عن المرض، عن الاحتمالات والترجيحات والحظ، عن حسن الطالع وسوء الطالع، عن الزواج والأطفال والذاكرة، عن الحزن، عن طرق تعامل البشر، أو عجزهم عن التعامل، مع حقيقة أن لكل حياة نهاية ولكل وجود موت،

عن هشاشة الاتزان، عن الحياة بحد ذاتها. أعمل ككاتبة طوال حياتي. ككاتبة، وكطفلة حتى، وقبل وقت طويل من نشر الكلمات التي أكتبها، تكونت لدي فكرة تقول إن المعنى نفسه يكمن في إيقاعات الكلمات والعبارات والفقرات، وهو أسلوب اعتمدته لحجب أيّ شيء أفكر فيه أو أؤمن به، وإخفائه خلف طبقة من البريق لا تفتأ تتكاثف وتصبح عصية على الاختراق. الأسلوب الذي أكتب به يعبّر عني، أو يعبّر بالأحرى عما أصبحته، لكنني في هذه الحالة أتمنى لو كان في حوزتي بدلاً من الكلمات والأوزان غرفة مونتاج مزوّدة بتقنية Avid للتصحيح الإلكتروني للصورة لأتمكن بكبسة زر من أن أحطم التسلسل الزمني وأريكم كل إطارات الذاكرة التي ترد إلى ذهني دفعة واحدة، وأترك لكم أن تنتقوا اللقطات التي تعجبكم، والتعابير التي لا تختلف بعضها عن بعض إلا بصورة هامشية، والقراءات المختلفة للأسطر نفسها. هذا وضع أحتاج فيه إلى أكثر من الكلمات لأعثر على المعنى. هذا وضع أحتاج فيه إلى أي شيء أفكر فيه أو أؤمن بأنه قابل للاختراق والفهم... أقله بالنسبة إلي.

-2-

30 ديسمبر، 2003، يوم الثلاثاء

قمنا بزيارة كوينتانا في وحدة العناية المركزة في الدور السادس من مشفى بيت إسرائيل نورث.

عدنا إلى المنزل.

تداولنا في ما بيننا إذا كنا سنتناول العشاء خارجاً أم في المنزل. قلت له إنني سأوقد النار وأُعِد العشاء في المنزل. أوقدت النار، بدأت بإعداد العشاء، سألت جون إذا كان يرغب في تناول كأس من الشراب.

صببت له كأساً من الويسكي وقدمتها إليه في غرفة الجلوس حيث كان جالساً يقرأ قرب الموقد، وهو المكان الذي اعتاد أن يجلس فيه دائماً.

كان يقرأ نسخة سابقة للنشر من كتاب ديفيد فرومكين[1] Europe's Last Summer: Who Started the Great War in 1914? «أوروبا الصيف الماضي: من بدأ الحرب الكبرى في 1914؟» انتهيت من إعداد العشاء. جهّزت المائدة في غرفة الجلوس حيث كان بإمكاننا أن نتناول الطعام ونحن نطل على الموقد عندما نكون وحيدين في المنزل. أجد نفسي أركز كثيراً على النار لأنها بالغة الأهمية بالنسبة إلينا. كنت قد نشأت في كاليفورنيا، أنا وجون عشنا هناك على مدى أربعة وعشرين

1- محامٍ ومؤرخ وكاتب أمريكي معروف بتقاريره التاريخية عن الشرق الأوسط.

عاماً، وهناك كنا ندفئ المنزل عبر إشعال النار في الموقد. كنا نشعل النار حتى في ليالي الصيف لأن الضباب كان يتسلل خلالها إلى داخل المنزل. النيران المشتعلة كانت تعني أننا في بيتنا، كانت دائرة الحماية التي نرسمها حولنا... كانت مصدر أماننا في ليالي كاليفورنيا. أشعلت الشموع. طلب مني جون كأس شراب ثانية قبل أن أجلس. أحضرت الكأس إليه. جلسنا إلى المائدة. كان تركيزي منصباً على مزج السلطة.

كان جون يتحدث، بعد ذلك توقف عن الحديث.

مرت لحظة خلال الثواني أو الدقيقة التي سبقت توقفه عن الكلام كان قد سألني فيها إذا كنت قد سكبت له ويسكي «سينغل مالت» في كأسه الثانية. وكنت قد أجبته بالنفي، فقد سكبت له من الويسكي نفسه الذي كان يشربه في كأسه الأولى. «عظيم!» قال «لا أعرف لماذا ولكنني لا أعتقد أنكِ يجب أن تمزجي نوعين من الويسكي معاً». في لحظة أخرى من تلك البرهة التي استغرقت بضع ثوانٍ أو دقيقة على أعلى تقدير كان يقول إن الحرب العالمية الأولى كانت الحدث المفصلي الذي تدفق منه كل ما تلاه في القرن العشرين.

لا أذكر أبداً عمّ كنا نتحدث، الحرب العالمية الأولى أم الويسكي، في تلك اللحظة التي توقف فيها عن الكلام.

جل ما أذكره أنني رفعت نظري إليه. كانت يده اليسرى مرفوعة وهو جامد بلا حراك. في البداية ظننت أنه يمازحني في محاولةٍ منه ليهوّن علي المصاعب التي مررنا بها خلال ذلك اليوم.

أذكر أنني طلبت منه أن يكف عن ذلك.

عندما لم يستجب إلي ظننت في البداية أنه قد بدأ بالأكل واختنق بما ابتلعه. أذكر كيف حاولت أن أرفع جسده بعيداً بما يكفي عن كرسيه لأؤدي له مناورة هيمليك بضغط البطن. أذكر الإحساس بثقل جسده وهو يسقط إلى الأمام باتجاه المائدة أولاً، ويهوي على الأرض بعد ذلك. كنت قد دوّنت على بطاقة قرب هاتف المطبخ أرقام قسم الطوارئ

في مستشفى نيويورك برسبيتيريان. لم أكن قد دوّنت تلك الأرقام لأنني حسبت حساب لحظة كهذه، بل دوّنتها لاستخدامها في حال احتاج أحد سكان المبنى إلى الإسعاف.

في حال احتاج إلى ذلك شخص آخر، شخص لا يخصني.

طلبت واحداً من تلك الأرقام. سألني موظف الاتصال إذا كان لا يزال يتنفس. طلبت منه أن يرسل أحداً على وجه السرعة من دون أن أجيب على سؤاله. عندما وصل المسعفون حاولت أن أقص عليهم ما جرى، ولكن قبل أن أتمكن من إنهاء حديثي كانوا قد حولوا تلك البقعة من غرفة الجلوس حيث سقط جون إلى قسم طوارئ. أحدهم (وقد كانوا ثلاثة، وربما أربعة، حتى بعد ساعة من ذلك لم أستطع ان أحدد عددهم) كان يتحدث إلى المشفى حول مخطط القلب الكهربائي الذي بدا وكأنهم قد بدأوا ببثه. كان مسعف آخر يفتح الحقنة الأولى أو الثانية من ضمن العديد من الحقن التي كانت ستُفتح وتُستخدم لاحقاً. (أدرينالين؟ ليدوكايين؟ بروكايينامايد؟ بدأت أسماء الأدوية تتوارد إلى ذهني لا أدري من أين). أذكر قولي لهم إنه ربما يكون قد اختنق. تم إبعاد هذا الاحتمال بحركة إصبع واحدة: كان مجرى الهواء خالياً. بدا الآن وكأنهم يستخدمون جهاز الصعق الكهربائي في محاولة لاستعادة النبض. استطاعوا أن يحصلوا على ما يمكن أن يُعتبر نبضة قلب طبيعية (أو ربما كان هذا ما اعتقدته، كنا جميعاً صامتين، حدثت طفرة حادة في النبض) توقفت بعد ذلك، ومن ثم استأنفوا استخدام جهاز الصعق من جديد.

«ما زال يرتجف» أذكر ما قاله المسعف الذي كان يتحدث مع المستشفى.

«رجفان بطيني»، هذا ما قاله طبيب قلب جون من جزيرة نانتاكت عندما اتصل صباح اليوم التالي. «أعتقد أنهم أخبروكِ بأنه رجفان بطيني أدى إلى توقف القلب».

ربما قالوا «رجفان بطيني» وربما لم يقولوا ذلك. الرجفان الأذيني لم

يؤدِّ في الحال، أو بالضرورة، إلى توقف القلب. الرجفان البطيني فعل ذلك. ربما يكون الجميع قد سلّم بأن الرجفان البطيني هو القاتل.

أتذكر الآن محاولتي أن أجمع شتات نفسي لأرتب في ذهني ما كان سيحدث بعد ذلك. بما أنه كان هناك طاقم من المسعفين في غرفة الجلوس، فالمنطق يقول إن الخطوة التالية ستكون الذهاب إلى المستشفى. خشيت أن يقرر الطاقم الذهاب إلى المستشفى فجأة وأنا لست مستعدة بعد. لم يكن في حوزتي ما كنت بحاجة إلى أخذه معي... سأضيع الوقت، وسيذهبون من دوني. عثرت على حقيبة يدي وحمّالة مفاتيحي وتقرير مختصر كان قد أعده طبيب جون عن تاريخه الطبي. عندما عدت إلى غرفة الجلوس كان المسعفون يراقبون شاشة كمبيوتر ثبتوه على الأرض. لم أستطع رؤية الشاشة لذا راقبت وجوههم. أتذكر كيف كان أحدهم ينظر إلى الآخرين. عندما تم اتخاذ قرار الذهاب، حدث كل شيء بسرعة. تبعتهم إلى المصعد وسألتهم إذا كان بإمكاني أن أذهب معهم. قالوا إنهم سيُنزلون الحداجة أولاً، وإنه بإمكاني أن أذهب في سيارة الإسعاف الثانية. انتظر أحدهم المصعد بصحبتي ريثما يقلّ من سبقونا ويعاود الصعود إلينا. عندما ركبنا سيارة الإسعاف الثانية، كانت تلك التي تحمل الحداجة قد انطلقت بعيداً عن المبنى. ستة مجمعات سكنية كانت تفصل بين المبنى الذي نقطن فيه وذلك الجزء من مستشفى نيويورك برسبيتيريان الذي كان يُسمى في ما مضى مستشفى نيويورك. لا أذكر أبداً سماعي صافرات الإنذار. لا أذكر أي ازدحام مروري. عندما وصلنا إلى بوابة قسم الإسعاف كانت الحداجة قد اختفت داخل المبنى. كان ثمة رجل ينتظر في الممر. كل من في مرمى البصر كان يرتدي ثوباً أبيض ما عدا ذاك الرجل. «أهذه زوجته؟» سأل السائق، ومن ثم التفت إلي. «أنا الاختصاصي الاجتماعي»، قال... في تلك اللحظة كان يجب أن أدرك ما حدث.

«فتحت الباب ورأيت الرجل الذي يرتدي اللباس العسكري الكاكي وعلمت. علمت في الحال». هذا ما قالته والدة فتى في التاسعة عشرة من

عمره قُتل جراء تفجير في كركوك كما اقتبس بوب هربرت في صحيفة نيويورك تايمز صباح 12 نوفمبر 2004 من برنامج وثائقي عُرض على قناة HBO. «لكنني اعتقدت أنه طالما أنني لا أسمح له بالدخول فلن يتمكن من إخباري بما حدث. ومن ثم... لا شيء مما حدث يكون قد حدث». وهكذا ظل يقول لي: «سيدتي، يجب أن أدخل». وأنا ظللت أقول له «عذراً، لا يمكنك الدخول».

عندما قرأت ذلك وأنا أتناول الفطور بعد تسعة أشهر من ليلة سيارات الإسعاف والاختصاصي الاجتماعي فهمت تماماً طريقة تفكيرها وتماهيت معها وكأنني كنت مكانها. داخل قسم الإسعاف كان بإمكاني أن أرى الحداجة وهي تُدفع داخل الحجيرة والمزيد من أصحاب الأثواب البيض ينضمون إلى من يدفعها إلى الداخل. طلب مني أحدهم أن أنتظر في قسم الاستقبال. وهذا ما فعلته. كان هناك طابور أمام كوّة المعاملات الورقية الخاصة بالقبول في المستشفى. بدا الانتظار في ذلك الطابور وكأنه فعل إيجابي له دلالاته... كان الانتظار في ذلك الطابور يعني أنه ما زال لدي الوقت للتعامل مع هذا الحدث. كنت أحتفظ في حقيبتي بنُسخ من بطاقات التأمين الصحي، ذلك كان واحداً من المستشفيات التي لم يسبق لي أن تعاملت معها... مستشفى نيويورك كان القسم الخاص بجامعة كورنيل من مستشفى نيويورك برسبيتيريان، القسم الذي أعرفه هو ذلك الخاص بجامعة كولومبيا، مستشفى كولومبيا برسبيتيريان، عند تقاطع الجادة 168 وبرودواي، والذي يبعد عشرين دقيقة من منزلنا في أفضل الأحوال، وهذا ما يجعله بعيداً جداً في حالة طارئة كتلك التي واجهتنا- لكنني استطعت أن أجعل هذا المستشفى الغريب عني مفيداً، كان بإمكاني أن أكون ذات نفع، كان بإمكاني أن أهيّئ الظروف لانتقاله إلى مستشفى كولومبيا برسبيتيريان بمجرد أن يستقر وضعه الصحي. كان ذهني مشغولاً بتفاصيل هذا الانتقال الوشيك إلى مستشفى كولومبيا (سيكون بحاجة إلى سرير مزود بتقنية قياس المعلومات عن

بعد، ويمكنني في نهاية المطاف أن أؤمن انتقال كويتانا إلى مستشفى كولومبيا... في الليلة التي أدخِلَت فيها إلى مشفى بيت إسرائيل نورث كنت قد دوّنت على إحدى البطاقات أرقام أجهزة النداء الخاصة بالعديد من الأطباء العاملين في مستشفى كولومبيا، يمكن لأي طبيب منهم أن يساعدنا في تسهيل عملية الانتقال) عندما عاد الاختصاصي الاجتماعي للظهور واقتادني من طابور الانتظار إلى غرفة فارغة تقع خارج قسم الاستقبال، وقال لي «يمكنك الانتظار هنا». انتظرت. كانت الغرفة باردة. أو ربما كنت أنا من يشعر بالبرد. تساءلت كم من الوقت مضى بين لحظة اتصالي بالإسعاف ووصول المسعفين. بدا وكأن الزمن الفاصل بين اتصالي ووصولهم غير موجود، وكأنهم وصلوا بمجرد أن علّقت السماعة. («هباء في عين الله» كانت العبارة التي ترددت في ذهني داخل تلك الغرفة الفارغة الواقعة أمام قسم الاستقبال) لكن لا بد من أن ذلك قد استغرق بضع دقائق.

اعتدت أن أحتفظ بلوحة إعلانات في مكتبي لاستخدامها في تسجيل ملاحظات حول سير الأحداث في الأفلام، وعليها كنت قد ألصقت بطاقة وردية دوّنت عليها عبارة مأخوذة من دليل ميرك الإشاردي[1] حول المدة التي يمكن أن يبقى فيها الدماغ حياً بلا أكسجين. كانت صورة البطاقة الوردية وما كتب عليها تعود إلى ذاكرتي وأنا في تلك الغرفة الواقعة أمام قسم الاستقبال: «قد يؤدي نقص أكسجة الأنسجة لمدة تزيد على 4 إلى 6 دقائق إلى ضرر في الدماغ قد يتعذر علاجه، وقد يؤدي بالتالي إلى الموت». كنت أقول لنفسي إن ذاكرتي تخونني في استرجاع ما كان مدوناً على البطاقة عندما عاود الاختصاصي الاجتماعي الظهور. جاء بصحبة رجل قدّمه لي على أنه «طبيب زوجك». ران الصمت بعد ذلك. «لقد مات، أليس كذلك؟» سمعت نفسي أقول للطبيب. نظر الطبيب إلى

1- كتيبات أو دليل ميرك الإرشادي، عبارة عن مراجع طبية أنشئت من قبل شركة الأدوية ميرك اند كو.

الاختصاصي الاجتماعي. «لا بأس» قال الاختصاصي الاجتماعي «إنها من العملاء (الكول)». اصطحباني إلى الحجيرة المفصولة عما حولها بستائر حيث يستلقي جون. كان وحده الآن. سألاني إذا كنت بحاجة إلى كاهن. قلت نعم. جاء الكاهن وردد الكلمات. شكرته. أعطياني المشبك الفضي حيث يحتفظ جون برخصة القيادة وبطاقات الائتمان الخاصة به. أعطياني النقود التي كانت في جيبه. أعطياني ساعة يده. أعطياني هاتفه الجوال. أعطياني كيساً بلاستيكياً قالا لي إنني سأجد ملابسه فيه. شكرتهما. سألني الاختصاصي الاجتماعي إذا كنت بحاجة إلى أي شيء آخر. طلبت منه أن يؤمن لي سيارة أجرة. فعل ذلك. شكرته. «هل لديك نقود لتدفعي الأجرة». سألني. قلت له نعم ... كنت بالفعل من العملاء (الكول). عندما دخلت المنزل ورأيت معطف جون ووشاحه ما زالا على الكرسي حيث وضعهما بعد عودتنا من زيارة كوينتانا في مستشفى بيت إسرائيل نورث (وشاح الكشمير الأحمر، ومعطف بتاجونيا السميك الذي كان يرتديه طاقم تصوير فيلم Up Close & Personal) تساءلت ما الذي يسمحون به للعميل الذي ليس (كول). أن ينهار مثلاً؟ أن يطلب دواءً مهدئاً؟ أن يصرخ؟

أذكر كيف قلت لنفسي إنني يجب أن أناقش هذا مع جون.

لم أكن أفعل شيئاً أو أفكر في شيء إلا وأناقشه مع جون، ذلك أن كلينا كان كاتباً، وكلينا كان يعمل في المنزل، وكانت أيام كل منا مليئة بوقع صوت الآخر. لم أكن أسلّم بأنه دائماً على حق، هو أيضاً لم يكن يظن أنني على حق دوماً، لكن كان كل منا محل ثقة الآخر. كانت مصالحنا واهتماماتنا مشتركة في كل المواقف. وبما أننا كنا نمارس المهنة نفسها، وكان أحدنا يحصل على مراجعة أفضل من الآخر من وقت إلى وقت، أو يحظى بآراء إيجابية حول عمله أكثر من الآخر، افترض كثيرون أنه لا بد من أن تكون «المنافسة شديدة بيننا» بطريقة ما، وأن حياتنا الخاصة لا بد من أن تكون حقل ألغام تملأه مشاعر الغيرة والحسد والنقمة. كان هذا

الافتراض بعيداً كل البعد عن الحقيقة، ويأتي كدليل على وجود ثغرات كثيرة في الفهم السائد للحياة الزوجية.

كان ذلك أيضاً من المواضيع التي ناقشناها أنا وجون. ما أذكره من المنزل ليلة عودتي وحيدة إليه هو الصمت الذي ضجّ به كل ركن فيه.

في الكيس البلاستيكي الذي أُعطوني إياه في المستشفى وجدت سروالاً من المخمل، وقميصاً من الصوف، وحزاماً، ولا شيء غير ذلك كما أظن. كانت فردتا السروال مشقوقتين، افترضت أن المسعفين هم من قاموا بذلك. كان القميص ملطخاً بالدماء. الحزام كان من النوع المجدول. أذكر أنني وضعت هاتفه على مكتبه ووصلته بالشاحن. أذكر أنني وضعت مشبكه الفضي في ذلك الصندوق الموجود في غرفة نومنا والذي نحتفظ فيه بجوازات سفرنا، وشهادات ميلادنا، ووثيقة تثبت أهليتنا للمشاركة في هيئة محلفين. أنظر الآن إلى المشبك وأدرك أن البطاقات التي كان يحملها معه هي: رخصة قيادة صادرة من ولاية نيويورك صالحة لغاية 25 مايو 2004، وبطاقة صراف آلي من بنك تشيس، وبطاقة ائتمانية من أميركان إكسبريس، وبطاقة ماستر كارد من بنك ويلس فارغو، وبطاقة خاصة بمتحف متروبوليتان، وبطاقة الانتساب إلى اتحاد الكتّاب في غرب أمريكا. (كنا في الموسم الذي يسبق فترة التصويت لجوائز الأوسكار، حيث يمكن استخدام هذه البطاقة لمشاهدة الأفلام المشاركة مجاناً، لا بد أنه كان قد ذهب لمشاهدة أحدها، لم أكن أتذكر شيئاً في هذا الخصوص.) وبطاقة ميديكير، وبطاقة ركوب المترو، وبطاقة صادرة عن شركة ميدترونيك كُتب عليها «أحمل في جسدي جهازاً لتنظيم دقات القلب نوع Kappa 900» ورقم الجهاز التسلسلي، ورقم الاتصال بالطبيب الذي قام بزرع الجهاز، وتاريخ زرع الجهاز وهو 3 يونيو 2003. أذكر أنني جمعت النقود التي كانت في جيبه بتلك التي كانت في حقيبتي، ومسّدت الأوراق النقدية، وحرصت على أن أضع العشرينات مع العشرينات، والعشرات مع العشرات، والخمسات مع

الخمسات، والأوراق من فئة الدولار مع نظيراتها. لو كان يراني أفعل ذلك لقال إنني قادرة على التعامل مع الموقف كما يجب... أذكر كيف تخيلت هذا المشهد حينها.

عندما رأيته في الحجيرة ذات الستائر في قسم الطوارئ في مستشفى نيويورك كانت إحدى أسنانه الأمامية مكسورة، وافترضت أن ذلك كان نتيجة سقوطه عن الكرسي، خاصة أن بعض الكدمات كانت ظاهرة على وجهه. في اليوم التالي عندما تعرّفت على جثته في دار جنائز «فرانك إي كامبل» كانت الكدمات قد اختفت. عرفت وقتها أن إخفاء الكدمات هو ما عناه الحانوتي عندما قلت له إنني لا أريد تحنيط الجثة فرد علي قائلاً «في هذه الحالة سنغسلها فقط». يبقى ذلك الجزء الخاص بالحانوتي ضبابياً بالنسبة إلي. كنت قد وصلت إلى دار الجنائز مصممةً على عدم إبداء أي ردود فعل غير لائقة (دموع، أو غضب، أو نوبة ضحك لا إرادية...) وهكذا كنت قد أوصدت الباب أمام أي رد فعل. عندما فارقت أمي الحياة كان الحانوتي الذي استلم جثتها قد وضع وردة اصطناعية حيث كانت تستلقي على سريرها. كان أخي من روى لي هذه الحادثة، وأخبرني أن تلك الحركة كانت مهينة له حتى الصميم. كنت عدائية ومحصنة ضد الورود الاصطناعية. أذكر أني اتخذت قراراً سريعاً بخصوص النعش. أذكر الساعة الأثرية التي كانت في المكتب حيث وقّعت على الوثائق الخاصة بالدفن... ساعة معطلة بعقارب ميتة. طوني ديون، ابن أخي جون الذي كان بصحبتي في المكتب، نبّه الحانوتي إلى أن الساعة معطلة. الحانوتي، الذي بدا مسروراً لتفسير وجود هذه القطعة الأثرية في مكتبه، أخبرنا أن الساعة لم تعمل منذ سنوات، ولكنهم احتفظوا بها «كذكرى» من موقع الشركة القديم. بدا وهو يحكي لنا قصة الساعة كأنه يعطينا درساً في الحياة. ركزت في تفكيري على كوينتانا. استطعت أن أوصد الباب في وجه ما كان الحانوتي يقوله لأمنعه من النفاذ إلى تفكيري، لكنني لم أتمكن من الحؤول دون سماع هذه الأبيات تتردد في رأسي أثناء التفكير في كوينتانا:

على عمق 30 قدماً والدك مسجى الآن.

هاتان اللؤلؤتان كانتا عينيه.

بعد ذلك بثمانية أشهر سألت مدير المبنى الذي يضم شقّتنا إذا كان البوابون لا يزالون يحتفظون بسجل ليلة الـ30 من ديسمبر. كنت أعلم أن ثمة سجلاً يدوّنون فيه ما يقع من أحداث كل يوم، فقد تبوأت منصب رئيس مجلس إدارة المبنى لثلاث سنوات، ولطالما كان السجل أساسياً في الإجراءات والتدابير الخاصة بالمبنى. في اليوم التالي أرسل المدير إليّ الصفحة الخاصة بيوم 30 ديسمبر من السجل. بحسب السجل كان مايكل فلين وفاسيلي أيونيسكو البوابين المناوبين في تلك الليلة. لم أكن أذكر شيئاً من هذا. كان لفاسيلي أيونيسكو وجون روتين يومي يتبعانه ليرفّها عن نفسيهما في المصعد، عبارة عن لعبة بسيطة... لعبة تدور بين شخص منفي من رومانيا على يد تشاوشيسكو[1] وأيرلندي كاثوليكي من وست هارتفورد، كونيكتيكت، وتقوم على اهتمام مشترك بالسياسة. «إذاً أين يختبئ بن لادن»، يقول فاسيلي عندما يصبح جون داخل المصعد، ويجب هنا أن يخرج جون باقتراحات عبثية بعيدة عن المنطق من قبيل: «هل يمكن أن يكون بن لادن مختبئاً في السقيفة؟» «في الشقق الصغيرة؟» «في الصالة الرياضية؟» عندما رأيت اسم فاسيلي في السجل لم أتمكن من تذكّر ما إذا كان فاسيلي هو من بادر أولاً باللعب عندما عدنا من مستشفى بيت إسرائيل نورث في وقت مبكر من مساء الثلاثين من ديسمبر. لم يكن قد أُدخِلَ في السجل سوى ملاحظتين تلك الليلة، وهذا أقل من المعتاد، حتى بالنسبة إلى هذا الوقت من السنة حيث يغادر أغلب السكان المبنى قاصدين أماكن يحظون فيها بمتعة أكبر ومناخ أفضل.

1- سياسي روماني راحل، وكان الأمين العام للحزب الشيوعي الروماني في الفترة من 1965 إلى 1989، والزعيم الشيوعي الثاني والأخير في البلاد. وكان أيضا رئيس جمهورية رومانيا الاشتراكية من عام 1967 حتى محاكمته وإعدامه في 25 ديسمبر 1989.

ملاحظة: وصل المسعفون عند الساعة 9:20 مساءً لإسعاف السيد ديون. نُقل السيد ديون إلى المستشفى عند الساعة 10:05 مساءً.

ملاحظة: مصباح النور في مصعد A-B معطل.

المصعد A-B كان المصعد الخاص بنا، المصعد الذي استقله المسعفون عند الساعة 9:20 مساءً، المصعد الذي حملوا به جون (وأنا) وهبطوا بنا إلى سيارة الإسعاف عند الساعة 10:05 مساءً، المصعد الذي صعد بي إلى المنزل وحيدة في وقت غير مذكور. لم أكن قد انتبهت إلى أن مصباح النور معطل في المصعد. كما لم أدرك أن المسعفين قد لبثوا في منزلنا مدة خمس وأربعين دقيقة. كنت دائماً أشير إلى هذا الوقت على أنه «خمس عشرة أو عشرين دقيقة». إذا كانوا قد لبثوا كل هذا الوقت، ألا يعني هذا أنه كان لا يزال حياً خلاله؟ طرحت هذا السؤال على طبيب أعرفه. «أحياناً يلزمهم كل هذا الوقت لإتمام عملهم»، أجابني. استغرقني الأمر فترة لا بأس بها لأدرك أن ذلك لم يكن بأي شكل من الأشكال جواباً على سؤالي.

عندما صدرت شهادة الوفاة ذُكر فيها أنها قد حدثت عند الساعة 10:18 من مساءِ الثلاثين من ديسمبر 2003.

كانوا قد سألوني قبل أن أغادر المستشفى إذا كنت سأمنحهم إذناً بإجراء تشريح للجثة. أجبت بنعم. قرأت لاحقاً أن الخطوة الأكثر حساسية وتعقيداً، والإجراء الأصعب من بين الإجراءات الروتينية التي تعقب موت شخص في المستشفى هو الطلب من ذويه السماح لهم بإجراء تشريح للجثة. الأطباء أنفسهم، وبحسب العديد من الدراسات والأبحاث (مثل الدراسة التي أعدها د. كاتز، ود. غراندر، والتي تحمل عنوان «مأزق The Intern's Dilemma: The Request for Autopsy Consent الطبيب: طلب موافقة أهل المتوفى على إجراء تشريح للجثة»، الواردة في العدد 197:3-203 من صحيفة علم النفس في ممارسة الطب Psychiatry in Medicine)، يختبرون حالة من القلق والضيق عندما يضطرون إلى

التقدم بهكذا طلب. مع أنهم يعلمون أن التشريح هو أمر محوري في مسيرة تعلّم الطب وتعليمه، إلا أنهم يدركون أيضاً أن هذا الإجراء يمس جانباً حساساً ويثير رهبة بدائية عند أهل المتوفى. لو علمت أن ذاك الذي طلب مني الموافقة على إجراء تشريح للجثة يعاني من أي ضرب من ضروب القلق جراء ذلك، لكنت وفرت عليه عناء الطلب ورحمته من قلقه، فأنا من كان سيطلب إجراء تشريح للجثة حتى لو لم يطلب مني أحد ذلك. إجراء تشريح للجثة كان مطلباً لي، هذا على الرغم من أنني كنت قد شهدت بعض عمليات التشريح في سياق بحث كنت أجريه. أعلم تماماً ما يحدث في تشريح الجثة، يُفتح القفص الصدري على مصراعيه لتبدو الجثة شبيهة بدجاجة في محل القصّاب، يُسلخ جلد الوجه وكأنه برتقالة، وتوضع الأعضاء على الميزان وكأننا في متجر بقالة. سبق لي أن رأيت العديد من محققي جرائم القتل يشيحون بأنظارهم بعيداً لدى حضورهم عملية تشريح للجثة. ورغم ذلك أردت للتشريح أن يحدث. كنت بحاجة إلى أن أعرف كيف ولماذا ومتى حدثت الوفاة. في الواقع أردت أن أكون داخل الغرفة التي تتم فيها عملية التشريح (كنت قد حضرت عمليات التشريح السابقة تلك بصحبة جون، وأنا مدينة له بمشاهدة تشريح جثته، كنت أدرك تماماً في تلك اللحظة أنه سيكون حاضراً في الغرفة نفسها لو كنت أنا مكانه على الطاولة) لكنني لم أكن واثقة من أنني سأوضح وجهة نظري ودافعي بصورة مقنعة، وهذا ما منعني من طلب ذلك.

إذا كانت سيارة الإسعاف قد غادرت المبنى عند الساعة 10:05 مساءً، وتم إعلان الوفاة عند الساعة 10:18 مساءً، فإن الثلاث عشرة دقيقة التي فصلت بينهما كانت مجرد مساحة زمنية للتقيد بالروتين والبيروقراطية، وفرصة لضمان التقيد بإجراءات المستشفى والتأكد من أن المعاملات الورقية قد أنجزت، وأن الشخص المطلوب كان حاضراً لوضع إمضائه وتسجيل خروج إنسان من الحياة، وإعلام العميلة المفجوعة و«الكول» بالكارثة.

وضعُ الإمضاء، علمت لاحقاً، يُدعى «الإقرار»، كما يرد في شهادة الوفاة «إقرار الوفاة: 10:18 مساءً».

كان علي أن أسلّم بأنه كان ميتاً طوال الوقت.

لو أنني لم أسلّم بأنه كان كذلك لاعتقدت أنه كان بإمكاني إنقاذه. استمررت في التفكير بهذه الطريقة إلى أن رأيت التقرير الخاص بالتشريح. هذا مثال عن التفكير الوهمي التضليلي... ذلك المخلوق الذي يهزم كل عقل ومنطق.

قبل أن يفارق الحياة بأسبوع أو اثنين، عندما كنا نتناول العشاء في أحد المطاعم، طلب مني أن أدون شيئاً من أجله في مفكرتي. كان دائماً ما يحمل معه بطاقات ليسجل عليها ملاحظاته، بطاقات صغيرة بعرض 3 بوصات وطول 6 بوصات طُبع عليها اسمه ويمكنه وضعها في جيب سترته الداخلية بكل سهولة. خطرت له فكرة أثناء العشاء وأراد أن يدوّنها كي يعود إليها لاحقاً، لكنه حين مد يده إلى جيبه لم يعثر على أي بطاقة. *أريد منك أن تدوّني شيئاً من أجلي*، قال لي. كان ذلك من أجل كتابه الجديد، وليس كتابي، نقطة شدد عليها لأنني كنت في تلك الفترة أجري أبحاثاً من أجل كتاب أعمل عليه له علاقة بالألعاب الرياضية والمباريات. الملاحظة التي أملاها علي كانت كالتالي: «في الماضي كان المدربون يخرجون بعد المباراة ليقولوا للاعبيهم «لقد أديتم مباراة رائعة». أما الآن فيخرجون مخفورين بشرطة الولاية، وكأننا في حرب وهم القوات المتحاربة. إنها عسكرة الرياضة». عندما أعطيته البطاقة في اليوم التالي قال لي «يمكنكِ استخدامها إن شئتِ».

ما كان قصده من ذلك؟

هل كان يعلم أنه لن ينهي الكتاب؟

هل كشفت له بصيرته الخفي القادم، أم لمح طيف موته يحوم حوله؟ لماذا نسي بطاقات ملاحظاته عندما ذهبنا إلى عشاء تلك الليلة؟ ألم يكن قد حذرني عندما نسيت مفكرتي ذات مرة أن القدرة على تدوين الفكرة

عندما تخطر للكاتب هي ما يميز بين من هو قادر على الكتابة، ومن هو عاجز عنها؟ أكان شيء ما قد أنبأه في تلك الليلة بأن وقته ككاتب في الحياة بدأ ينفد؟

ذات صيف، وعندما كنا نقيم في بريتوود بارك، وجدنا أنفسنا أسيرَي نمط حياة اعتدنا معه على التوقف عن العمل عند الرابعة ظهراً والخروج إلى بركة السباحة. اعتاد أن يقرأ وهو واقف في الماء (أعاد قراءة «خيار صوفي» عدة مرات تلك الصائفة محاولاً أن يعرف المزيد عن بناء الكتاب والتقنية المستخدمة في كتابته) أما أنا فكنت أعمل أثناء ذلك في الحديقة. كانت حديقة صغيرة، أو بالأحرى نسخة مصغرة عن حديقة، ترى فيها ممرات مفروشة بالحصى وقنطرة مغطاة بالورود وأحواضاً من الزهر مؤطرة بالزعتر والسانتولينا والأقحوان. كنت قد أقنعت جون قبل ذلك بسنوات بأننا يجب أن نقتطع جزءاً من المرجة لنقيم عليها هذه الحديقة المنمنمة. وكم تفاجأت منه، هو الذي لم يظهر أي اهتمام سابق بالحدائق، عندما اعتبر الحديقة في صورتها النهائية هبة تكاد تكون مقدسة. في تلك الأمسيات الصيفية كنا نسبح قليلاً قبل الخامسة مساءً ومن ثم نمضي إلى المكتبة ملتفّين بمناشفنا لمشاهدة مسلسل Tenko «تينكو» على قناة بي بي سي، ويدور باختصار حول رهط من نساء إنجليزيات يمكن التنبؤ بتصرفاتهن بسهولة (إحداهن كانت أنانية وطائشة، والأخرى بدت كأن كاتبها قد بنى شخصيتها وهو يفكر بالسيدة مينيفر[1]) تم القبض عليهن وسجنهن من قبل اليابانيين في مالايا[2] خلال الحرب العالمية الثانية. بعد الانتهاء من مشاهدة مسلسل تينكو كنا نصعد إلى المنزل كل مساء ونعمل لساعة أو ساعتين، جون في مكتبه الواقع أعلى السلم، وأنا في الشرفة الزجاجية الواقعة عند طرف الصالة التي

1- السيدة مينيفر (بالإنجليزية: Mrs. Miniver) هو فيلم دراما تم إنتاجه في الولايات المتحدة وإنجلترا وصدر في سنة 1942. الفيلم من إخراج وليام وايلر.

2- مستعمرة ماليزيا البريطانية.

أصبحت بمنزلة مكتب لي. في السابعة، أو السابعة والنصف، كنا نخرج لتناول العشاء، وكانت وجهتنا في معظم الأمسيات مطعم مورتون الذي بدا أنه الخيار الأنسب لنا ذلك الصيف. كان طبق كيساديا الجمبري وطبق الدجاج مع الفاصولياء السوداء متوفرَين على القائمة دائماً. ودائماً ما كنا نصادف صديقاً أو شخصاً من معارفنا. كانت الصالة هادئة ومريحة ونظيفة، وبالرغم من أنها كانت معتمة نوعاً ما من الداخل، فقد كان بإمكانك أن ترى مشهد الشفق في الخارج وأنت جالس فيها.

لم يكن جون يحبذ القيادة ليلاً في تلك الحقبة. وهذا كان من الأسباب، وقد علمت ذلك لاحقاً، التي جعلته يرغب في قضاء وقت أطول في نيويورك، وهي رغبة كانت لا تزال غامضة بالنسبة إلي في ذلك الوقت. في إحدى ليالي ذلك الصيف طلب مني أن أتولى القيادة إلى المنزل بعد أن فرغنا من تناول العشاء في منزل أنثيا سيلبرت في شارع كامينو بالميرو في هوليوود. أذكر كيف بدا لي هذا الطلب لافتاً. كانت أنثيا تعيش على بعد حي واحد من المنزل الواقع في جادة فرانكلين الذي كنا قد أقمنا فيه بين 1967 و1971، لذا لم يكن ذلك الطلب يتعلق برغبته في استكشاف حي جديد في المدينة. تذكرت وأنا أشغّل المحرك أن المرات التي طلب فيها منّي جون أن أقود وهو معي في السيارة لا تتجاوز أصابع اليد الواحدة. المرة الأخرى، والوحيدة، التي طلب مني فيها طلباً مشابهاً كانت في تلك الليلة عندما استلمت عنه عجلة القيادة على طريق العودة من لاس فيغاس إلى لوس أنجلوس. كان يغفو في مقعد الراكب الأمامي في سيارة الكورفيت التي كنا نمتلكها في ذلك الحين. فتح عينيه، وبعد لحظة قال باهتمام شديد، «لو كنت مكانك لخففت السرعة قليلاً». لم أكن أشعر بأنني أقود بسرعة عالية، فنظرت إلى العداد لأدرك أنني كنت أسير بسرعة 120 ميلاً في الساعة.

إلا أن القيادة عبر صحراء موهافي كانت حدثاً استثنائياً له ظروفه. لم يكن قد سبق له أن طلب مني أن أقود به إلى المنزل بعد تناول العشاء:

تلك الأمسية على كامينو بالميرو كانت سابقة من نوعها. أما السابقة الأخرى فقد حدثت بعد وصولنا إلى بيرنتوود بارك بعد خمس وأربعين دقيقة من القيادة، وذلك عندما قال لي: «أحسنتِ القيادة».

خلال العام الأخير الذي سبق وفاته كثيراً ما كان يأتي على ذكر أوقات الظهيرة تلك التي قضيناها في حوض السباحة والحديقة ومشاهدة مسلسل تينكو.

يشير فيليب أرييس في The Hour of Our Death «ساعة موتنا» إلى أن السمة الأساسية للموت كما يتضح لنا في Chanson de Roland «أنشودة رولاند» هي أنه حتى عندما يأتي بصورة مفاجئة أو إثر حادث «يعطينا تحذيراً مسبقاً قبل وصوله» يُسأل جافين: «هكذا إذاً يا مولاي، أنت تظن أن موتك بات وشيكاً؟» يجيب جافين: «اسمع ما أقوله لك... لن أعيش لأكثر من يومين». ينوّه أرييس إلى أنه «لا طبيبه ولا أصدقاؤه ولا حتى كهنته (كان هؤلاء غائبين عن المشهد ومنسيين) كانوا على معرفة بساعة موته مثله. وحده المحتضر يستطيع أن يتنبأ بالوقت المتبقي له في ذمة الحياة».

«تجلس لتناول العشاء...

«يمكنكِ استخدامها إن شئتِ». هذا ما قاله عندما أعطيته البطاقة التي تحمل العبارة التي أملاها علي منذ أسبوع أو اثنين.

...ومن ثم تنتهي الحياة كما تعرفها».

ألم الفقدان، عندما يحيق بنا، يصعقنا بما لم نتوقعه من قبل. ما شعرت به عندما فقدت أبي وأمي لم يكن يشبه أبداً ما أقاسيه الآن، توفي أبي قبل بضعة أيام من إتمامه عامه الخامس والثمانين، وأمي قبل شهر من أن تكمل عامها الواحد والتسعين، وكلاهما فارق الحياة بعد أن تمكن منه الضعف والوهن لسنوات عديدة. ما شعرت به في كلتا الحالتين كان الحزن والوحدة (الوحدة التي يشعر بها الابن عندما يفقد أبويه مهما كان قد بلغ به العمر عند موتهما)، والندم على الوقت الذي ما عاد بالإمكان تعويضه، والأشياء التي لم أقلها في حينها، وعجزي عن مشاركتهما الألم

والعجز والإذلال الجسدي الذي احتمله كل منهما في آواخر أيامه، أو حتى الإحساس بجزء مما قاسياه والاعتراف به. استطعت أن أتفهم حتمية موت كل منهما. كنت أتوقع (أخشى من، أخاف، أترقب) تلك الميتات طوال حياتي. وعندما وقعت، بقيَت بعيدة عن تفاصيل حياتي اليومية لم تؤثر بها. بعد موت أمي تلقيت رسالة من صديق لي في شيكاغو، وهو كاهن ماريكنول[1] سابق، قاده حدسه ليدرك بصورة دقيقة ما كنت أشعر به. موت أحد الأبوين، كتب «على الرغم من أننا نعد أنفسنا له بالفطرة، وبغض النظر عن أعمارنا، يهزّ أشياءَ كثيرة في أعماقنا، ويُطلق في دواخلنا ردود فعل تفاجئنا، وله أن يستحضر في نفوسنا ذكريات ومشاعر كنا نظن أنها قد وئدت منذ زمن بعيد. في تلك الفترة غير واضحة المعالم، التي يسمونها الحداد، قد نغوص عميقاً في دواخلنا لنصل إلى القاع ونغرق في محيط من الصمت المطبق شاعرين بأمواج العمق تقترب تارة وتبتعد أخرى، لتلطمنا بذكريات تنقضّ علينا بلا هوادة».

فارقت أمي الحياة، ورحل أبي عن الوجود، وكان لا يزال أمامي فترة من الوقت توجّب علي فيها أن أتفادى الألغام التي تزرعها الذاكرة في طريقي. لكنني كنت لا أزال قادرة على الاستيقاظ صباحاً لأرسل الملابس إلى المغسلة، وعلى تحضير قائمة أطباق غداء يوم الفصح، وتذكُّر أنني يجب أن أجدد جواز سفري. ألم الفقدان أمر مختلف. ليس لألم الفقدان مدى. يأتينا ألم الفقدان على أمواج، يضربنا على هيئة نوبات تتواتر، يهجم علينا في لبوس مخاوف تُنهك أجسادنا وتُعمي أبصارنا وتطمس معالم حياتنا اليومية. السواد الأعظم ممن اختبروا ألم الفقدان في حياتهم يشيرون إلى ظاهرة «الأمواج» تلك. إيريك ليندمان، الذي كان رئيس قسم الطب النفسي في مستشفى ماساتشوستس العام وقام بإجراء

1- مُرسَلو ماريكنول Maryknoll، المعروفون بأعمالهم لمصلحة حقوق الإنسان، حاضرون حضورًا قويّاً في أمريكا الوسطى. ففي العام 1980، كانت هناك أختان ماريكنول بين الراهبات الأربع اللواتي جرى اغتيالهنّ في السلفادور. وقد لفتت هذه الحادثة آنذاك انتباهَ العالم إلى انتهاكات حقوق الإنسان والفساد السياسي في البلاد.

عدة مقابلات مع أقارب الضحايا الذين قُتلوا في حريق ملهى كوكونت جروف في العام 1942، فنّد أعراض هذه الظاهرة بدقة مطلقة في دراسة ذاع صيتها صدرت في العام 1944: «تتنابهم آلام جسدية تأتيهم على هيئة أمواج، كل موجة منها تستمر من عشرين دقيقة إلى ساعة، يشعرون خلالها بتضيّق في الحلق، وانقطاع في الأنفاس، واختناق، وحاجة إلى التنهد. ينتابهم إحساس بالخواء في أجوافهم، ويصيبهم وهن عضلي حاد، ويهجم عليهم غمّ ذاتي شديد يوصف على أنه توتر أو ألم ذهني».

تضيّق في الحلق.

اختناق.

حاجة إلى التنهد.

أمواج كهذه بدأت تنتابني في صباح الـ31 من ديسمبر في العام 2003، بعد سبع أو ثماني ساعات من الواقعة عندما استيقظت وحيدة في المنزل. لا أذكر أنني بكيت في الليلة السابقة، دخلت حينها في حالة من الصدمة لم أسمح لنفسي خلالها بالتركيز إلا على فكرة واحدة: أمامي واجبات ينبغي تأديتها. كان ثمة خطوات معينة ينبغي القيام بها أثناء وجود طاقم الإسعاف في غرفة الجلوس. كان عليّ أن أحصل على نسخة من تقرير مختصر عن تاريخ جون الطبي لكي آخذها معي إلى المستشفى. كان علي أن أخمد النيران التي أشعلتها لأنني سأغادر المنزل. كان هناك بعض الأشياء التي توجب علي القيام بها في المستشفى. كان عليّ أن أقف في الطابور مثلاً. كان عليّ أن أركز على السرير المزوّد بتقنية قياس المعلومات عن بعد الذي سيحتاج إليه عند الانتقال إلى مستشفى كولومبيا برسبيتيريان.

وبمجرد عودتي من المستشفى كان هناك أشياء معينة توجب عليّ القيام بها. لم يكن بإمكاني تحديد هذه الأشياء كلها، لكنني عرفت شيئاً واحداً منها: كان عليّ، وقبل كل شيء، أن أنقل الخبر إلى نِك شقيق جون. بدا الوقت متأخراً جداً للاتصال بأخيهما الأكبر دِك في كيب كود (كنت

أعلم أنه يذهب إلى السرير في وقت مبكر، فلم يكن في حالة صحية جيدة مؤخراً، ولم أرد أن أوقظه على أخبار سيئة). لكن كان عليّ أن أخبر نِك. لم أخطط لكيفية القيام بذلك. ما كان مني إلا أن جلست على السرير وأمسكت سماعة الهاتف وطلبت رقم بيته في كونيكتيكت. رفع السماعة. أخبرته بما حدث. بعد أن أنهيت المكالمة، وبما يمكنني وصفه بأنه نمط عصبي جديد لطلب الأرقام وقول الكلمات، أمسكت بالهاتف من جديد. لم أستطع الاتصال بكوينتانا (كانت لا تزال حيث تركناها منذ بضع ساعات فاقدةً الوعي في وحدة العناية المركزة في مستشفى بيت إسرائيل نورث) لكنني تمكنت من الاتصال بجيري، زوجها منذ خمسة أشهر، واستطعت الاتصال بأخي جيم الذي كان في منزله في بيبل بيتش. قال جيري إنه سيأتي ليبقى بصحبتي. أخبرته ألا يتعب نفسه ويأتي، وأنني على ما يرام. قال جيم إنه سيحجز في إحدى الرحلات الجوية. أخبرته أن ينسى أمر الرحلة وأننا سنكمل حديثنا في الصباح. أخبرته أنه ما من داعٍ لذلك، وأننا سنتحدث على الهاتف من جديد غداً صباحاً. كنت أحاول أن أفكر في الخطوة التالية التي عليّ القيام بها عندما رن جرس الهاتف، كان المتصل وكيلة أعمالنا أنا وجون، لين نيسبيت، وهي صديقة لنا منذ أواخر الستينيات كما أظن. لم يكن واضحاً بالنسبة إليّ كيف وصلها الخبر ولكنها كانت على علم بما حدث (تبيّن لاحقاً أنها سمعت بذلك من صديق مشترك يبدو أن نِك كان قد تحدّث إليه قبل لين بلحظات وجيزة). كانت تتصل بي من سيارة أجرة وهي في طريقها إلى منزلنا. من ناحية، شعرت بارتياح (كانت لين تعرف كيف تدير الأمور، ولها أن تعلم ما الذي عليّ فعله) ومن ناحية أخرى شعرت بارتباك: كيف يمكنني أن أتعامل الآن مع وجود أحد بصحبتي في المنزل؟ ما الذي سنفعله؟ هل سنجلس في غرفة المعيشة وأمامنا كل هذه الحقن وأسلاك جهاز تخطيط القلب وبقعة الدم التي لا تزال على الأرض؟ هل يجب أن أعيد إشعال النار في الموقد؟ هل سنتناول مشروباً؟ هل تناولت طعامها قبل أن تأتي؟ هل تناولت أنا طعامي؟

اللحظة التي سألت فيها نفسي إن كنت قد تناولت طعامي أم لا كانت تنطوي على الإلماعة الأولى لما كان ينتظرني: لو أنني فكرت حينها مجرد تفكير في الطعام، علمت في تلك الليلة، كنت سأتقيأ كل ما في جوفي.

وصلت لين.

جلسنا في ركن من غرفة الجلوس لا نرى منه الحقن والأسلاك وبقعة الدم. أذكر ما كنت أفكر فيه أثناء الحديث إلى لين (كان هذا الجانب الذي لم أستطع التحدث عنه)... كنت أفكر في أن الدماء قد أتت نتيجة السقطة: لقد سقط على وجهه، كان لديه سن مكسورة كما لاحظت في قسم الطوارئ، ولا بد من أن هذا قد ترك جرحاً داخل فمه.

أمسكت لين بالهاتف وقالت إنها ستتصل بكريستوفر.

سبّب لي هذا مزيداً من الارتباك: كريستوفر الذي أعرفه جيداً هو كريستوفر ديكي، لكنه كان إما في باريس أو في دبي، ولو كان هو نفسه كريستوفر الذي خطر ببالي لكانت لين قد قالت كريس، وليس كريستوفر. انتشلني دماغي مما يدور حولي وأخذني إلى موضوع تشريح الجثة. ربما يجري التشريح الآن أثناء وجودي هنا. بعد ذلك أدركت أن كريستوفر الذي كانت لين تتحدث إليه هو كريستوفر ليمان هوبت، رئيس قسم كتابة صفحة الوفيات في صحيفة نيويورك تايمز. أذكر كيف أحسست بالصدمة حينها. أردت أن أقول «لمّا يحنْ الوقت بعد» لكني شعرت بجفاف في فمي عجزت معه عن النطق. كان بإمكاني التعامل مع «تشريح الجثة» أما فكرة «النعي» فلم تكن قد خطرت ببالي بعد. «النعي»، بخلاف «التشريح» الذي كان أمراً محصوراً بيني وبين جون والمستشفى، يعني أن الوفاة قد وقعت وانقضى الأمر. وجدت نفسي أتساءل، ومن دون أي إحساس بعبثية الفكرة، ما إذا كانت الوفاة تعتبر واقعة الآن في لوس أنجلوس أيضاً. كنت أحاول أن أحسب ماذا كان الوقت في لوس أنجلوس عندما حدثت الوفاة، وهل حل الوقت نفسه هناك الآن؟ (هل ثمة وقت للعودة إلى الوراء؟ هل من الممكن أن تكون

النهاية مختلفة بتوقيت الساحل الغربي؟) أذكر كيف تملكتني حاجة ملحة إلى ألا أسمح لأحد في لوس أنجلوس تايمز بأن يعرف الخبر عبر القراءة عنه في صحيفة نيويورك تايمز. اتصلت بصديقنا المقرب في صحيفة لوس أنجلوس تايمز، تيم راتين. لا أتذكر ماذا فعلنا أنا ولين بعد ذلك. أذكر أنها قالت لي إنها ستقضي الليلة هنا معي، لكنني رفضت ذلك، وقلت لها إنني سأكون بخير وحدي.

وهذا ما كان. هكذا إلى أن جاء الصباح، عندما حاولت، وأنا بين الصحو والنوم، أن أجد سبباً لوجودي وحيدة في السرير. انتابني إحساس ثقيل كالرصاص... الإحساس نفسه الذي كان ينتابني لدى استيقاظي في تلك الصباحات التي تعقب ليلة شهدت شجاراً بيني وبين جون. هل تشاجرنا البارحة؟ كيف بدأ الشجار؟ كيف لي أن أسوي الخلاف بيننا وأنا لا أعلم كيف ولماذا بدأ؟ بعد ذلك تذكرت.

كنت أستيقظ كل يوم على هذا الحال لعدة أسابيع.

أصبح على صبح لا نهار فيه، بل ظلام.

واحد من أبيات عدة اقتطفها جون من قصائد مختلفة للشاعر مينلي هوبكينز[1] وقام بتجميعها خلال الأشهر التي أعقبت انتحار شقيقه الأصغر، وبات يرددها كترتيلة صلاة.

لهفي على العقل، فيه جبال، وفيه للسقوط منحدرات
مخيفة، مطبقة. لا يدرك كنهها إنسان. ولا يدرك علوها
ذاك الذي لم يتدلّ منها.
أصبح على صبح لا نهار فيه، بل ظلام.

---

1 – جيرارد مانلي هوبكنز ولد عام 1844، توفي عام 1889، يصنف شاعرًا كبيرًا في العصر الفكتوري، رغم أن أعماله بقيت تقريبًا غير معروفة حتى عام 1918، عندما نشرت لأول مرة. كان يملأ قصيدته بالجناس الاستهلالي وبالتراكيب غير العادية، وله قصائد ذات تأثير نفسي بصفة خاصة عند قراءتها بصوت عالٍ.

ومع هذا طلبت أن أبقى
حيث لا تبلغني العواصف.

أدرك الآن أن إصراري على أن أكون وحيدة في الليلة الأولى كان أكثر تعقيداً مما يبدو، كانت تلك الرغبة تجسيداً لشكل من أشكال الغريزة البدائية. كنت أعرف بالطبع أن جون قد بات الآن في عداد الأموات. وبالطبع كنت قد نقلت الأخبار القاطعة إلى شقيقه وشقيقي وزوج كوينتانا. صحيفة نيويورك تايمز علمت بالخبر. صحيفة لوس أنجلوس تايمز علمت بالخبر. وعلى الرغم من ذلك لم أكن أنا نفسي مهيأة بأي شكل من الأشكال لقبول ذلك كحكم نهائي: في مكان ما من نفسي كان ثمة إيمان بأن ما حدث يمكن نقضه وتغيير نهايته. لهذا كنت بحاجة إلى أن أبقى وحدي.

بعد الليلة الأولى تلك لم أجد نفسي وحيدة لعدة أسابيع (أتى جيم وزوجته من كاليفورنيا في اليوم التالي، نِك أيضاً قدم ليقيم معنا، توني وزوجته روزماري جاءا من كونيكتيكت، لم يسافر جوزيه إلى لوس أنجلوس، عادت مساعدتنا شارون من رحلة التزلج، لم يخلُ منزلنا من الزوار قط)، لكنني كنت بحاجة إلى أن أكون وحيدة في تلك الليلة. احتجت إلى أن أبقى وحيدة لكي يتمكن من العودة.

كانت تلك بداية *عام التفكير السحري*.

-3-

ألم الفقدان، بقسوته التي من شأنها أن تخلخل العقل وتهز الروح، هو حقيقة استوقفت الإنسان بكل أهوالها. فعل الحزن، يقول فرويد في دراسته الصادرة في 1917 «الحداد والكآبة» Mourning and Melancholia «ينطوي على انحرافات خطيرة تنأى بنا عن نمط حياتنا الطبيعي». لكنه أشار أيضاً إلى أن ألم الفقدان تبقى له خصوصيته التي تميزه عن كل الاختلالات الأخرى: «لا نفكر أبداً في النظر إليه كحالة مرضية واللجوء إلى تدخل طبي لعلاجه» بل نعوّل على فكرة أنه «سيتم التغلب عليه بمرور الوقت». ننظر إلى «أي تدخل طبي على أنه بلا طائل، بل يصل بنا الأمر إلى أن نعتبره مسيئاً». في بحثها الصادر في العام 1940 «الحداد وصِلته بحالات الهوس الاكتئابي» Mourning and Its Relation to Manic-Depressive States قدمت ميلاني كلاين تقييماً مشابهاً: «المحزون على فقد عزيز هو في الواقع شخص مريض، لكن كوننا ننظر إلى هذه الحالة على أنها ظاهرة شائعة وطبيعية، لا نعتبر الحداد حالة مرضية... لكي أتمكن من صياغة النتيجة التي خلصت إليها بصورة أكثر دقة يجب أن أقول إنه «في الحداد يعيش المحزون حالة عابرة ومحوّرة من الهوس الاكتئابي ويتغلب عليها».

لاحظ التشديد على عبارة «يتغلب عليها».

كان الصيف قد بلغ أشدّه بعد بضعة أشهر من الليلة التي احتجت فيها إلى أن أكون وحيدة ليتمكن من العودة عندما أدركت أنه خلال الشتاء

والربيع مررت بفترات عجزت خلالها عن التفكير بعقلانية. كنت أفكر كالأطفال، كنت أعتقد أن لأفكاري وأمنياتي القدرة على قلب الأحداث وتغيير الواقع. في حالتي كان هذا التفكير المضطرب سرياً لم يلحظه أحد، خفياً حتى عليّ أنا نفسي، لكنني عندما أتأمل فيه الآن أدرك أنه كان حاجة ملحة وثابتة. باستعادة الأحداث أدرك أنه قد ظهرت لي إشارات تحذيرية كان عليّ أن أتنبه إليها. كان هناك على سبيل المثال خبر الوفاة في الصحف. لم أجرؤ على قراءة الخبر في أي صحيفة. استمر هذا منذ أن ظهر خبر الوفاة لأول مرة، في 31 ديسمبر، هكذا لغاية 29 فبراير، الذي كان يصادف ليلة توزيع جوائز الأوسكار للعام 2004، حيث رأيت صورة لجون ضمن فقرة «تخليداً لذكرى من رحلوا». عندما رأيت صورته تلك أدركت للمرة الأولى لماذا أزعجني ظهور خبر الوفاة في الصحف إلى تلك الدرجة.

لقد سمحت للآخرين بأن يعتبروه ميتاً.

لقد تركته يُدفن حياً.

ثمة إنذار آخر من تلك الإنذارات، وإليكم قصته: أتت مرحلة (وكان ذلك في أواخر فبراير، وأوائل مارس، بعد أن كانت كوينتانا قد غادرت المستشفى، لكن قبل موعد الجنازة التي تم تأجيلها إلى أن تتعافى من مرضها) شعرت خلالها بأنني يجب أن أتبرع بملابس جون. كثيرون شددوا على ضرورة التبرع بملابسه، وكان ذلك الاقتراح حسن النية لكنه (كما تبين لي لاحقاً) كان شكلاً مضللاً من أشكال المساعدة. رفضت ذلك. لم يكن لدي فكرة عن السبب الذي دفعني إلى الرفض. أذكر كيف، بعد وفاة والدي، قمت أنا نفسي بمساعدة والدتي على الفصل بين ملابسه ووضعها في أكوام لوهبها لمراكز Goodwill، وأخرى لمتجر خاص بالعمل الخيري تطوعَت للعمل فيه زوجة أخي غلوريا. وبعد أن وافت المنية والدتي قمنا أنا وغلوريا وكوينتانا وابنتا غلوريا وجيم بالشيء نفسه مع ملابسها. كان هذا جزءاً مما يفعلة الناس بعد الموت،

طقساً من الطقوس التي تعقب الوفاة... شكلاً من أشكال الواجب تجاه الميت والإنسانية.

بدأت. قمت بإفراغ الرف الذي كان جون يضع فيه قمصان السويتر والتي شيرت وملابسه التي اعتاد أن يلبسها عندما كنا نخرج للمشي صباحاً في سنترال بارك. اعتدنا أن نتريض هناك كل صباح. لم نكن نسير دائماً معاً لأن كلاً منا كان يفضّل درباً مختلفاً، لكن كان كل منا يعرف الدرب الذي سلكه الآخر لنلتقي معاً قبل أن نغادر المنتزه. كانت الملابس على هذا الرف مألوفة لي مثل ملابسي. منعت هذه الفكرة من التغلغل أكثر في ذهني. وضعت جانباً قطع ملابس بعينها (سويتر كاحتة تذكرت بشكل خاص جون وهو يرتديها، وتي شيرت كانيون رانش كانت كوينتانا قد جلبته له من أريزونا)، لكنني وضعت أغلب موجودات ذلك الرف في أكياس وحملتها وعبرت بها الشارع في اتجاه كنيسة القديس جيمس الأسقفية. متسلحة بالمزيد من الجرأة، فتحت إحدى الخزائن وملأت المزيد من الأكياس: أحذية رياضية من ماركة نيو بالانس، أحذية لكل الفصول، سراويل قصيرة من ماركة بروكس برودرس، وأكياس وأكياس من الجوارب. ومن جديد حملت الأكياس ومضيت بها إلى كنيسة القديس جيمس. بعد ذلك بعدة أسابيع جمعت المزيد من الأكياس الفارغة وأخذتها إلى مكتب جون حيث كان يحتفظ ببعض من ملابسه. لم يكن لدي الجرأة الكافية بعد للتعامل مع البدلات والقمصان والسترات، لكنني اعتقدت أنه بإمكاني التعامل مع ما بقي من أحذية، كبداية.

توقفت عند باب غرفة المكتب.

لم يطاوعني قلبي على التبرع بما تبقى من أحذيته.

توقفت هناك للحظة...

وبعد ذلك أدركت السبب: سيحتاج إلى بعض الأحذية إذا عاد. مجرّد إدراك عبثية هذه الفكرة نسفها من أساسها.

لمّا أحاول بعد (من خلال التبرع بالأحذية مثلاً) أن أقرر إذا كانت الفكرة قد فقدت سطوتها.

عند التفكير في الموضوع أرى أن تشريح الجثة بحد ذاته كان المثال الأول على هذا النوع من التفكير. فبغض النظر عما كان يعتمل في ذهني عندما وافقت، وبإصرار، على التشريح، كنت أعاني من مستوى معين من التشوش جعلني أعتبر عملية التشريح وسيلةً لها أن تريني أن ما عانى منه جسده كان خللاً بسيطاً. قد لا يكون الأمر يتعدى انسداد شرايين مؤقتاً أو اضطراباً في خفقان القلب. ربما كانت القصة كلها تُحل بإجراء ثانوي وبسيط - تغيير الأدوية مثلاً، أو إعادة ضبط منظم دقات القلب. هذا المنطق قادني إلى التفكير في احتمال أن يكون ما حدث عبارة عن خلل بسيط ما زال بالإمكان إصلاحه.

أذكر كيف صُدمت بتلك المقابلة التي تحدثت فيها تيريزا هاينز كيري خلال حملة العام 2004 عن الموت المفاجئ لأول زوج لها. بعد حادث تحطم الطائرة الذي قُتل فيه جون هاينز، قالت في المقابلة إنها شعرت بـ «حاجة» جارفة إلى مغادرة واشنطن والعودة إلى بيتسبرج.

طبعاً كانت بـ «حاجة» إلى العودة إلى بيتسبرج. كانت بيتسبرج المكان الذي يمكن أن يعود إليه، وليس واشنطن.

في الواقع لم يكن التشريح قد أُجري في ليلة الإعلان عن وفاة جون.

لم يحدث التشريح حتى الحادية عشرة من صباح اليوم التالي. أدرك الآن أن التشريح لا يمكن أن يحدث إلا بعد قيام ذلك الرجل، الذي لم أكن أعرف من يكون ولا ما هي صفته، بالاتصال بي، وهذا ما حدث صباح اليوم الواحد والثلاثين من ديسمبر. الرجل الذي اتصل بي لم يكن الاختصاصي الاجتماعي الذي تحدث إلي في الليلة الفائتة، ولا «طبيب زوجي»، كما لم يكن، كما اعتدنا أنا وجون أن ندعو أمثاله، «صديقنا من أعلى الجسر». أما عبارة «صديقنا من أعلى الجسر» فقد كانت مصطلحاً متداولاً ضمن العائلة، وأصله يعود إلى عمة جون التي كانت

تطلقه على أي شخص غريب تصادفه أكثر من مرة. فمثلاً لدى رؤية سيارة الكاديلاك سيفيل التي يقودها شخص من خارج دائرة معارفها، والتي كانت قد قطعت طريقها على جسر بالكيلي، مرة أخرى خارج حي ويست هارتفورد، كانت تدعوه «صديقنا من أعلى الجسر». كنت أفكر في جون وهو يقول «صديقنا من أعلى الجسر» وأنا أستمع إلى الرجل وهو يتحدث إلي عبر الهاتف. أذكر قوله لبعض عبارات التعاطف. أذكر أنه عرض علي المساعدة. بدا كأنه يتفادى التطرق إلى نقطة بعينها.

قال لي بعد ذلك إنه يتصل بي ليسألني إذا كنت سأوافق على التبرع بأعضاء زوجي.

في تلك اللحظة، احتشدت أفكار كثيرة في رأسي. الكلمة الأولى التي عبرت ذهني كانت «لا». وفي الوقت نفسه تذكرت عندما أخبرتنا كوينتانا ذات ليلة على مائدة العشاء بأنها قد سجلت اسمها في برنامج «التبرع بالأعضاء» عندما جددت رخصة قيادتها. سألت جون إذا كان قد فعل الأمر نفسه. أجاب بلا، ودخلا في نقاش حول هذه المسألة.

تدخّلت وغيّرت الموضوع.

لم أقدر على تخيّل أن يكون أيٌّ منهما ميتاً.

كان الرجل على الطرف الآخر لا يزال يتحدث. فكرت: ماذا لو أنها فارقت الحياة في وحدة العناية المركزة في مستشفى بيت إسرائيل نورث، هل ستُثار هذه المسألة؟ ما الذي كنت سأفعله؟ ما الذي سأفعله الآن؟

سمعت نفسي أقول للرجل على الطرف الآخر من الهاتف إن ابنتي وابنة زوجي تستلقي الآن غائبة عن الوعي في المستشفى. سمعت نفسي أقول إنني لا أشعر بأنني قادرة على اتخاذ قرار كهذا قبل أن تعلم ابنتي أن والدها قد فارق الحياة. بدا لي هذا رداً منطقياً حينها.

لكنني بعد أن أنهيت المكالمة أدركت أن لا شيء مما دار في تلك المكالمة كان منطقياً. وبسرعة ذهبت تلك الفكرة وحلّت محلها أخرى (وبصورة مفيدة – لاحظوا رد الفعل السريع للخلايا المعرفية البيضاء):

كان هناك شيء غير مترابط في تلك المكالمة... شيء من التناقض بالأحرى. كان هذا الرجل يتحدث عن وهب الأعضاء، لكن من المستحيل القيام بهذه الخطوة بعد مرور كل هذا الوقت: لم يكن جون قد وُضع على أجهزة دعم الحياة. لم يكن موصولاً بأي منها عندما رأيته في الحجيرة ذات الستائر في قسم الطوارئ. لم يكون موصولاً بها عندما جاء الكاهن. لا بد أن كل أعضائه قد توقفت عن العمل الآن.

ثم تذكرت مكتب الفحص الطبي في ميامي ديد. في صباح أحد الأيام من عام 1985 أو 1986 ذهبنا أنا وجون إلى هناك. رأينا في المكتب موظفاً من بنك العيون يضع علامات على الجثث من أجل إزالة القرنية. تلك الجثث في مكتب الفحص الطبي لم تكن موصولة بأجهزة دعم الحياة. إذاً كان هذا الرجل الذي اتصل بي من مستشفى نيويورك يتحدث عن قرنيتيه فقط، كان يريد عينيه. لماذا لم يقل ذلك إذاً؟ لماذا يلف ويدور ويحرّف؟ لماذا يجري هذه المكالمة ولا يكتفي بقول «أريد عينيه»؟ أخرجت المشبك الفضي الذي أعطاني إياه الاختصاصي الاجتماعي في الليلة الفائتة من الصندوق الذي في غرفة النوم ونظرت إلى رخصة القيادة. قرأت فيها التالي: العينان: زرقاوان. الملاحظات: يرتدي عدسات لتصحيح النظر.

لماذا يتكبد عناء إجراء المكالمة من دون أن يقول لي ما الذي يريده بالضبط؟

عيناه. عيناه الزرقاوان. عيناه الزرقاوان الحاسرتان.

أريد فقط أن أعرف

كيف تحب أن تأخذ فتاك أزرق العينين

يا سيدنا الموت

لم أستطع أن أتذكر من كتب هذه الأبيات صباح اليوم التالي. هو إدوارد إستلن كامينغز[1] على حد علمي، لكنني لم أكن واثقة من تلك

1- إدوارد إستلن كامينغز شاعر ورسام وكاتب أمريكي. كتب حوالى 2900 قصيدة، وروايتين عن سيرته الذاتية، وأربع مسرحيات، والعديد من المقالات.

المعلومة. لم أكن أمتلك أياً من كتب كامينغز، لكنني وجدت مقتطفات من الشعر على الرف المخصص للأعمال الشعرية في غرفة النوم، وذلك في أحد الكتب التي كانت في مكتبة جون من منشورات 1949، عندما كان في بورتسموث بريوري، المدرسة البيندكتية الداخلية الواقعة قرب مدينة نيوبورت، التي كان قد أرسل إليها بعد موت والده.

(موت والده حدث فجأة... إثر أزمة قلبية عندما كان في أوائل العقد السادس من عمره. كان علي أن أنظر إلى تلك الجزئية كرسالة تحذيرية وأحسب حساب الوراثة).

إذا ما صادف أن كنا معاً في أي بقعة مجاورة لنيوبورت كان جون يأخذني إلى بورتسماوث للاستماع إلى أنشودة صلاة الغروب الغريغورية. كانت تلك الأنشودة تؤثر فيه وتوقظ لديه أحاسيس كثيرة. على الصفحة الفارغة في بداية كتاب المقتطفات الشعرية كُتب اسم ديون بخط يد دقيق ومنمق، وبعدها بالخط نفسه، وبقلم حبر جاف أزرق، الأسئلة البحثية التالية: 1- ما معنى القصيدة وعن أي تجربة تتحدث؟ 2- ما الفكرة أو الرؤية التي تقودنا إليها التجربة؟ 3- ما الحالة، أو الشعور، أو العاطفة التي حركتها أو ولدتها القصيدة ككل؟ أعدت الكتاب إلى الرف. ستمر بضعة أشهر قبل أن أعود لأتذكر تلك الأبيات وأتأكد من أنها كانت تعود بالفعل إلى كامينغز. وستمر أشهر أخرى قبل أن أدرك أن غضبي من ذاك المتصل المجهول من مستشفى نيويورك قد عكس صورة أخرى من صور الخوف الغريزي الذي لم تكن قد أيقظته في داخلي مسألة تشريح الجثة. ما كان معنى ذلك وما هي التجربة؟

إلى أي فكرة أو رؤية تقودنا هذه التجربة؟

كيف سيكون بإمكانه العودة إذا أخذوا أعضاءه؟ كيف يمكنه العودة إن لم يكن لديه حذاء؟

-4-

على السطح بدوت شخصاً عقلانياً. كنت أبدو لمن يراني مدركةً تماماً لحقيقة أن الموت غير قابل للنقض،... وافقت على إجراء تشريح للجثة، وأعددت العدة لطقوس إحراقها، وقمت بالترتيبات اللازمة لجمع رمادها والذهاب به إلى كاتدرائية القديس يوحنا عندما تصحو كوينتانا من غيبوبتها وتسترد عافيتها وتكون قادرة على الحضور ليتم إيداع الرماد في المعبد الواقع أمام المذبح الرئيسي، حيث كنا أنا وأخي قد أودعنا رماد أمي. قمت بالترتيبات اللازمة ليُزال اسم أمي عن الصفيحة الرخامية التي كان محفوراً عليها، ويُحفر بقربه اسم جون. وأخيراً، في 23 مارس، بعد 3 أشهر من موته تقريباً، رأيت الرماد يوضع على الجدار والصفيحة الرخامية تُستبدل، وشهدت مراسم الوفاة تحدث أمام عينَي.

طلبنا من جوقة الإنشاد تأدية أناشيد غريغورية تكريماً لذكرى جون.

طلبت كوينتانا أن تُنشد باللغة اللاتينية. كان جون سيطلب الأمر نفسه. بوق منفرد صاحَب الإنشاد.

رافقنا كاهن كاثوليكي وآخر أسقفي.

كالفين تريلين ألقى كلمة، كما ألقى كل من ديفيد هالبيرستام، وسوزان تايلور، أعز صديقات كوينتانا، كلمة أيضاً. قرأت سوزانا مور جزءاً من رباعيات East Coker «إيست كوكر»[1]، ذلك الجزء الذي يصف كيف (يتعلم المرء أن يقطف من الكلمات أفضلها/ من أجل تلك

1- قصيدة لتي إس إليوت.

الأوقات التي لا يوجد فيها ما يُقال، أو كيف يقولها عندما لا يعود المرء جاهزاً لقولها). نيك قرأ مقطعاً من القصيدة التي كتبها كاتولوس[1] في رثاء أخيه. كانت كوينتانا لا تزال خائرة القوى ومجهدة إلا أنها تحدثت بصوت ثابت، ووقفت شامخةً بفستانها الأسود في الكاتدرائية نفسها التي تزوجت فيها منذ ثمانية أشهر، وقرأت قصيدة كانت قد كتبتها لوالدها.

نعم، فعلتها... سلّمت بأنه رحل. سلّمت بموته على الملأ وفي العلن قدر ما أسعفتني قدرتي وسعة خيالي واستيعابي.

إلا أن تفكيري في تلك الناحية بقي مائعاً بصورة تثير الشك. حدث ذات مرة أن التقيت في أواخر الربيع أو أوائل الصيف بعالم لاهوت أكاديمي بارز أثناء دعوة على العشاء. أحد الحاضرين معنا أثار موضوعاً يتعلق بالإيمان. تحدث عالم اللاهوت عن ممارسة الطقوس على أنها شكل من أشكال الإيمان. كان رد فعلي صامتاً، لكن سلبياً، وعنيفاً، ومبالغاً فيه حتى بالنسبة إلي. لاحقاً أدركت أن الفكرة الأولى التي عبرت ذهني كانت عبارة عن شكوى صارخة: *لكنني أدّيت الطقس، أدّيته كاملاً، من كاتدرائية القديس يوحنا إلى الأنشودة باللغة اللاتينية. ودعوت كاهناً كاثوليكياً وآخر أسقفياً، ورددت مزمور «لأن ألف سنة في عينيك مثل يوم أمس بعدما عبر» وأنشدت «عسى الملائكة تقودك إلى النعيم».*

لكنه على الرغم من ذلك لم يعد إلى الحياة.

«إعادته إلى الحياة» خلال تلك الأشهر كانت الفكرة الخفية التي ركّزت عليها بكل جوارحي... كانت حيلتي السحرية. بحلول أواخر الصيف كنت قد بدأت أرى ذلك بوضوح. «رؤية الأمر بوضوح» لم تنجح في إقناعي بالتخلي عن ملابسه التي سيكون بحاجة إليها لدى عودته.

منذ طفولتي عوّدت نفسي في الأوقات العصيبة على القراءة، والتعلّم، واللجوء إلى الأدب، والتفكير في مخرج للمشكلة التي

1- من أشهر شعراء الرومان وزعيم شعراء التجديد والحداثة في الأدب الروماني.

تجابهني. كانت المعرفة تمنحني القدرة على التحكم. ونظراً إلى أن ألم الفقدان يبقى الأكثر شيوعاً بين كل المصائب التي تحل بنا فإن الأدبيات التي تتحدث عنه تبدو هزيلة إذا ما قارناها بوقائعه. من تلك الأدبيات اليوميات التي داوم كليف ستيبلز لويس على كتابتها بعد موت زوجته، *A Grief Observed* «تأملات في ألم الفقدان»، ومقطع من هنا وهناك في هذه الرواية أو تلك، مثل وصف توماس مان في *The Magic Mountain*«الجبل السحري» للأثر الذي تركه موت زوجة هيرمان كاستروب عليه: «كان الحزن يعصف بروحه، تقلص وجوده وانطوى على نفسه، الخدر في دماغه جعله يرتكب الكثير من الأخطاء في عمله، وهذا ما جعل شركة «كاستروب وابنه» تتكبد خسائر مادية جمّة، وفي الربيع التالي، بينما كان يفتش المخازن في رصيف الإنزال الذي تهب عليه رياح عاصفة، أصيب بالتهاب الرئة. كانت الحمى أشد من أن يحتملها قلبه الذي أنهكه الحزن، وبعد خمسة أيام، وعلى الرغم من كل العناية التي أولاه إياه الطبيب هايديكايند، فارق الحياة». وفي عروض الباليه تلك اللحظات التي يحاول فيها عاشق رحل معشوقه أن يبحث عنه ويبث الحياة فيه من جديد... الضوء المائل إلى الأزرق، تنانير الرقص البيضاء، الرقصة الثنائية بين العاشق والمعشوق التي ترمز إلى عودة الموتى: *la danse des ombres*، رقصة الظلال. مر علي يوم أو يومان ركنت خلالهما إلى قصيدة Forsaken Merman «الحورية المهجورة» لماثيو أرنولد:

أصوات الأطفال يجب أن تكون عزيزة
- نادوا مرة أخرى-
على أذني أمهم...
أصوات الأطفال، صارخة بألم...
بالتأكيد ستعود إليهم.

كذلك مرت عليّ أيام ركنت فيها إلى تلك الأبيات من Funeral Blues

«أحزان الجنازة» لأودن من مسرحية *The Ascent of F6 (الصعود إلى القمّة F6):*

أوقفوا عقارب الساعات، اقطعوا سلك الهاتف،
امنعوا الكلاب من النباح بعظمة مغرية
أسكِتوا صوت البيانو
وبصحبة قرع الطبول المكتومة
أخرِجوا النعش، وليتدفق الباكون.

القصائد ورقصات الظلال كانت الملجأ الأنسب بالنسبة إلي.

وفي مرتبة أدنى أو بعيداً عن هكذا تجسيدات مختصرة لضروب العذاب والانفعالات المتأتية من ألم الفقدان، كان ثمة مجموعة من الكتابات، التي لا يرقى معظمها إلى مرتبة الأدب، والإرشادات عن كيفية التعامل مع ظروف مشابهة، بعضها «عملي» وبعضها الآخر «روحاني» ومعظمها بلا فائدة (لا تُكثر من الشرب، لا تنفق أموال التأمين على تغيير ديكور غرفة الجلوس، انضم إلى إحدى مجموعات الدعم.) وهذا لم يبقِ لي سوى الأدبيات المتخصصة، والدراسات التي أعدها الأطباء النفسانيون وعلماء النفس والاختصاصيون الاجتماعيون الذين أتوا بعد فرويد وميلاني كلاين، ولم يمر وقت طويل قبل أن أجد نفسي ألجأ إلى هذا النوع من المؤلفات. اطلعت من خلالها على الكثير من الأشياء التي كنت على معرفة بها، والتي بدت في مرحلة معينة وكأنها تُنذر ببعض الراحة، ووفرت لي ذلك الرأي الخارجي الذي أكد لي أن ما يبدو كأنه يحدث معي واقع وليس من إبداع مخيلتي. من كتاب Bereavement: Reactions, Consequences, and Care «الفقدان: ردود الفعل، التداعيات، الرعاية» الذي تم تجميعه من قبل الأكاديمية الوطنية للعلوم، معهد الطب سابقاً، تعلّمت أن ردود الفعل المباشرة الأكثر شيوعاً للموت هي الصدمة، والخدر وانعدام الحس، والنكران: «يشعر

المفجوع بموت عزيز وكأنه محاط بشرنقة أو دثار، وقد يبدو للآخرين صامداً يتعامل مع المصيبة بصبر وحكمة. ونظراً إلى أن واقع الموت لم ينفذ بعد إلى وعيه، يمكن أن يبدو كأنه يتقبل هذا الفقدان برباطة جأش».

من هنا إذاً نفهم ظاهرة «العميل (الكول)».

تابعت القراءة. وكما أشارت الدراسة التي أعدها جي ويليام وردين لمصلحة جامعة هارفرد في مستشفى ماساتشوستس العام Child Bereavement «شعور الطفل بالفقدان»، فقد لوحظ أن الدلافين تمتنع عن الأكل بعد موت شريك حياتها. ولوحظ أن رد فعل الإوز على موت الشريك يتجلى في الطيران والنداء والبحث حتى تصبح هي نفسها مرتبكة، وتفقد اتجاهها وتضل طريقها. أما عن البشر فقد قرأت، ولكن من دون أن أتعلم شيئاً لم أكن أعرفه، أنهم يُظهرون أنماط استجابة مشابهة عند موت الشريك. يبحثون، يمتنعون عن تناول الطعام. ينسون أن يستحموا. يصابون بحالات من الإغماء نتيجة نقص الأكسجين، تسبب لهم الدموع المحتشدة المكبوتة انسداداً في المجاري الأنفية، وينتهي بهم المطاف في عيادات أطباء الأذن والأنف والحنجرة طلباً للعلاج من التهاب أذن مجهول المنشأ. يفقدون تركيزهم. «لم أتمكن من قراءة عناوين الصحف إلا بعد مرور عام» هذا ما أخبرتني به صديقة فقدت زوجها منذ ثلاثة أعوام. يفقدون قدرتهم الإدراكية على مُختلف الأصعدة. ومثلهم مثل هيرمان كاستروب، يبدأون بارتكاب أخطاء في العمل ويتكبدون خسائر مالية جمّة. ينسون أرقام هواتفهم ويذهبون إلى المطار من دون أن يحملوا معهم بطاقات هوياتهم. يسقطون ضحايا المرض، ينهارون، وقد ينتهي بهم الحال، كما حدث مع هيرمان كاستروب، إلى الموت.

دراسات كثيرة توثق ظاهرة «الموت» تلك.

تحسباً، بدأت أحمل بطاقة هويتي معي عندما أمشي صباحاً في السنترال بارك.

لم أعد أجيب إذا رن جرس الهاتف وأنا أستحم، وذلك لأتجنب الانزلاق والموت على بلاط الحمام.

علمت أن بعض الدراسات الخاصة بهذا الموضوع كانت ذائعة الصيت، وتعتبر أيقونات في هذا النمط الأدبي، ومراجع يُشار إليها كمعايير ثابتة في كل ما قرأته. أذكر منها على سبيل المثال دراسة Young, Benjamin, and Wallis, *The Lancet* 2:454–456, 1963 «يونغ، وبنجامين، ووالس، «ذا لانسيت 2:454–456، 1963» التي أجريت على 4486 أرملاً وأرملة في المملكة المتحدة على مدى خمس سنوات، وأظهرت «أن معدلات الموت بين المترملين بعد ستة أشهر من فقدان الشريك أعلى بكثير من معدلات الموت بين نظرائهم من المتزوجين». كانت هناك أيضاً دراسة Rees and Lutkins, *British Medical Journal* 4:13–16, 1967 «ريس ولوتكينز، الصحيفة الطبية البريطانية 4:13–16، 1967». هذه الدراسة، التي شملت مقارنة 903 من الأشخاص الذين فُجعوا بموت عزيز، مع 878 شخصاً من أقرانهم الذين لم يعانوا من حالات فقدان مشابهة لفترة استمرت ست سنوات، أظهرت أن «معدلات الوفيات بين أوساط من فقدوا شركاءهم كانت أعلى بنسبة كبيرة في السنة الأولى». إلتفسير الوظيفي لهذا الارتفاع في معدل الوفيات نُشِر في المؤلَّف الذي أعده معهد الطب في العام 1984: «أظهرت الأبحاث التي أجريت لغاية هذا التاريخ أن ألم الفقدان، كما هو حال باقي مسببات التوتر، غالباً ما يؤدي إلى تغيرات في وظائف وعمل الغدد، وجهاز المناعة، والجهاز العصبي المستقل، والجهاز القلبي الوعائي: هذه الأنظمة الحيوية تتأثر بشكل أساسي بعمل الدماغ والناقلات العصبية».

كان ثمة نمطان من ألم الفقدان، هذا ما تعلمته أيضاً من هذه الأدبيات، النمط الحميد، أو الصحي بتعبير آخر، وهو ذلك المرتبط بـ «النمو» و«التطور»، ويُسمى «ألم الفقدان البسيط» أو «شعور الفقدان الطبيعي». نمط بسيط كهذا، بحسب دليل ميرك الإرشادي، الطبعة

السادسة عشرة، يمكن أن يتبدى بصورة نموذجية في «أعراض القلق مثل السهاد الخفيف، والتعب، وفرط نشاط الجهاز العصبي المستقل»، لكنه «لا يسبب كآبة مرضية بشكل عام، إلا لدى الأشخاص الذين لديهم ميل إلى الاضطرابات المزاجية». أما النمط الآخر فهو «ألم الفقدان المعقد» والمعروف أيضاً في هذه الأدبيات بـ «شعور الفقدان المرضي» الذي تبين الدراسات أنه يحدث في عدد من الحالات. إحدى هذه الحالات، كما قرأت في أكثر من دراسة ومؤلَّف، هي تلك التي يكون فيها الفاقد والمفقود يعتمد كل منهما على الآخر بصورة مطلقة واستثنائية. «هل كان الفاقد يعتمد على المفقود للمتعة أم طلباً للدعم أم لتقدير الذات؟» كان هذا أحد معايير التشخيص التي اقترحها ديفيد بيريتز، الطبيب المعالج في قسم الطب النفسي في جامعة كولومبيا. «هل شعر الفاقد بأنه عاجز وضعيف من دون المفقود عندما فُرض عليه الفراق؟»

فكرت في هذه الاسئلة.

حدث ذات مرة في العام 1968 عندما اضطررت إلى قضاء الليل في سان فرنسيسكو (كنت أعمل على إحدى مقالاتي، وكانت تمطر، وهذا ما اضطرنا إلى تأجيل مقابلة كان من المفترض أن تحدث في وقت متأخر من المساء إلى صباح اليوم التالي) أن سافر جون بالطائرة من لوس أنجلوس لنتناول العشاء معاً. تناولنا العشاء في مطعم إيرني. استقل جون رحلة منتصف الليل على متن طيران PSA، ضمن عرض ترويجي بـ13 دولاراً فقط في تلك الفترة في كاليفورنيا عندما كان بالإمكان السفر من لوس أنجلوس إلى سان فرانسيسكو أو ساكرامينتو أو سان خوسيه والعودة إلى مطار لوس أنجلوس بـ 26 دولاراً فقط.

فكرت في شركة PSA.

كانت كل طائرات PSA تحمل وجوهاً باسمة على مقدماتها. كان طاقم الطائرة يرتدي زياً من تصاميم رودي جيرنيريتش مع تنانير قصيرة باللونين الوردي والبرتقالي. جسدت PSA حقبة في حياتنا بدت فيها

معظم أفعالنا بلا تداعيات ومن دون تخطيط ولا حساب، حيث كنا في حالة مزاجية لم يكن أحد منا يفكر معها مرتين قبل أن يقرر الطيران مسافة سبع مئة ميل ليتناول وجبة عشاء. هذه الحالة المزاجية وصلت إلى نهايتها في العام 1978 عندما اصطدمت طائرة PSA طراز بوينغ بطائرة سيسنا 127 في سماء سان دييغو ما أدى إلى مقتل 144 شخصاً.

عندما حدث هذا أدركت أنني قد أغفلت الاحتمالات في ما يتعلق بشركة PSA.

أرى الآن أن هذا الخطأ لم يكن محصوراً بشركة PSA.

عندما سافرت كوينتانا وهي في عمر السنتين أو الثلاث على متن طيران PSA إلى ساكرامينتو لرؤية أمي وأبي أشارت إليها قائلة «أريد أن أسافر في الابتسامة». اعتاد جون أن يكتب الأشياء التي تقولها على قصاصات من الورق وأن يضعها في صندوق أسود كانت أمه قد أعطته إياه. هذا الصندوق، الذي ما يزال مع قصاصاته جاثماً على سطح المكتب في غرفة الجلوس، رُسم عليه نسر أمريكي وكُتبت كلمات E Pluribus Unum أو بما معناه «كم العدد». لاحقاً استخدم بعض العبارات التي تفوهت بها كوينتانا في إحدى رواياته، *Dutch Shea, Jr* «داتش شيا جونيور»، وجعلها ترد على لسان ابنة داتش شيا، كات، التي كانت قد قتلت في تفجير نفذّه الجيش الجمهوري الأيرلندي بينما كانت تتناول العشاء بصحبة أمها في أحد مطاعم شارع شارلوت في لندن. وفي ما يلي جزء مما كتبه:

. قالت: «*وين كنت؟* وقالت أيضاً: «*وين راح الضو؟*» كتبها كلها ووضعها في الدرج السري الصغير في المكتب المصنوع من خشب القيقب الذي قدمه باري ستوكين له ولزوجته كهدية زفاف... كات بزيّ المدرسة ذي المربّعات. كات تسمي حمّامها «حمحوم» وفراشات الاختبار في الروضة «*فروفوشات*». كات التي ألّفت أولى قصائدها في عمر السابعة: «سأتزوج/ صبياً اسمه هاري/ يركب الأحصنة/ ويعالج حالات الطلاق».

الرجل المحطّم كان في الدرج. الرجل المحطّم كان بالنسبة إلى كات رمزاً للموت والخوف والمجهول. رأيت حلماً بشعاً عن الرجل المحطّم، كانت *تقول*. لا تدع الرجل المحطّم يمسك بي. إذا جاء سأتمسك بالسياج ولن أسمح له بأن يأخذني... تساءل إذا كان لدى الرجل المحطّم الوقت لإخافتها قبل أن تموت.

أدرك الآن ما كنت قد عجزت عن فهمه في 1982، عام صدور «داتش شيا جونيور»: كانت تلك رواية عن ألم الفقدان. أدبيات علم النفس كانت ستقول إن داتش شيا كان يعاني من شعور الفقدان المرضي. الأعراض التشخيصية ستكون كالتالي: هو مهووس بلحظة موت ابنته كات. يعرض المشهد ويعيد عرضه مراراً وتكراراً، وكأن إعادة عرضه قد تكشف عن نهاية مختلفة: المطعم في شارع شارلوت، سلطة الهندباء، صندل كات بلون الخزامى، القنبلة، رأس كات على عربة الحلويات. يعذّب زوجته السابقة، والدة كات، بسؤال واحد لا يني يكرره: ماذا كانت تفعل في دورة مياه السيدات عندما انفجرت القنبلة؟ في نهاية المطاف أجابته:

«لم تعترف لي بأي فضل كأم لكات، لكنني أنا من ربيتها. أنا من اعتنى بها ورعاها عندما أتاها الطمث لأول مرة، وأذكر أنها كانت تسمي غرفة نومي غرفتها الحلوة الثانية، أنها كانت تقول عن السباغيتي «بازغيتي»، وتسمي الضيوف الذين يأتون لزيارتنا «المراحب». كانت تسأل *«وين كنت»* و*«وين راح الضو»* أما أنت، أنت يا ابن القحبة، قلت لثاير إنك أردت أن يكون هناك من يتذكرها. لقد أخبرتني أنها حامل، كانت غلطة، نزوة، وأرادت أن تعرف ما الذي عليها فعله فذهبت إلى حمّام السيدات لأنني علمت أنني سأبكي ولم أرد ان أبكي أمامها، أردت أن أخرج ما احتشد في عيني من دموع لأتمكن من التصرف بحكمة ومن ثم سمعت صوت الانفجار وعندما تمكنت من الخروج رأيت أشلاءً منها في العصير، وأشلاءً أخرى مقذوفة إلى الشارع وأنت، أنت يا ابن القحبة، أردت أن يكون هناك من يتذكرها».

أعتقد أن جون كان سيقول إن «داتش شيا جونيور» تحكي عن الإيمان.

عندما بدأ بكتابة الرواية كان يعلم مسبقاً ماذا ستكون الكلمات الأخيرة فيها، بل الكلمات الأخيرة التي سيفكر فيها داتش شيا قبل أن يفجر رأسه، ستكون: «أنا أؤمن بكات. أنا أؤمن بالرب». Credo in Deum. أولى الكلمات في التعاليم الكاثوليكية.

أكانت عن الإيمان أم عن ألم الفقدان؟

أكان الإيمان وألم الفقدان وجهين لعملة واحدة؟

أكان كل منا يعتمد على الآخر بصورة مفرطة في تلك الصائفة عندما سبحنا وشاهدنا تينكو وتناولنا العشاء في مطعم مورتون؟

أم كنا محظوظين بصورة خارقة للعادة؟

لو أنني كنت وحدي حينها أكان سيعود إلي على متن «الابتسامة»؟

أكان سيقول لي احجزي لنا طاولة في مطعم إيرني؟

ذهبت الابتسامة، وPSA اختفت من الوجود، تم بيعها إلى الخطوط الجوية الأمريكية التي أعادت طلاء كل الطائرات.

مطعم إيرني لم يعد له وجود، لكن ألفريد هيتشكوك أعاد إحياءه لفترة قصيرة لتصوير فيلم Vertigo. في مطعم إيرني يرى جيمس ستيورات كيم نوفاك لأول مرة. كيم نوفاك تسقط بعد ذلك من قمة برج الجرس (الذي أعيد إحياؤه أيضاً) في كنيسة إرسالية سان خوان باوتيستا.

كنا قد تزوجنا في سان خوان باوتيستا...

في أحد مساءات يناير حيث تتلون البساتين الواقعة أمام الجادة 101 بملايين البراعم المتلهفة للتفتح...

عندما كان لا يزال ثمة بساتين أمام الجادة 101.

لا. العودة إلى الوراء هي ما يتيح للحياة أن تطيح بك... أن تسحقك. البراعم التي كانت تزدان بها البساتين أمام الجادة 101 رسمت المسار الغلط.

بعد الواقعة بعدة أسابيع حاولت أن أبقي نفسي على المسار الصحيح (المسار الضيق، المسار ذي الاتجاه الواحد، المسار الذي لا يحتمل خط الرجعة) عبر ترديد البيتين الأخيرين من قصيدة Rose Aylmer «روز أيلمر» التي كتبها والتر سافاج لاندور في 1806 في رثاء ابنة اللورد أيلمر التي فارقت الحياة في عمر العشرين في كالكوتا. لم تكن «روز أيلمر» قد خطرت ببالي منذ أن كنت طالبة في جامعة بيركلي، ولكنني الآن لا أتذكر القصيدة فحسب بل أتذكر أيضاً معظم ما قيل في تحليلها في الحصة التي لم أعد أتذكر من أي مقرر كانت. نجحت «روز ألماير»، هذا ما قاله من كان يدرسنا هذا المقرر ، لأن الثناء المبالغ فيه، والخالي من المعنى بالتالي، للفقيدة في الأبيات الأربعة الأولى («آه، ما هي سلالة الملوك، آه، ما هو الجمال الربّاني/ ما هي كل فضيلة، كل بهاء... كلها كانت لك يا روز أيلمر») تنتهي إلى شعور مفاجئ، أو بالأحرى صادم، بالراحة عبر «الحكمة القاسية العذبة» الكامنة في البيتين الأخيرين، التي تشدد على أن لألم الفقدان حصته في الحياة، لكن له حدوداً أيضاً: «ليلة من الذكريات والآهات/ أكرّسها لكِ».

«ليلة من الذكريات والآهات» أذكر الأستاذ المحاضر وهو يكررها مرة بعد أخرى. «ليلة. ليلة واحدة. قد تكون ليلة بأكملها، لكنه لا يقول ليلة بأكملها حتى، يقول ليلة، ليس عمراً بأكمله، بل بضع ساعات فحسب».

الحكمة القاسية العذبة. بما أن «روز أيلمر» كانت حاضرة في ذاكرتي، فمن الواضح أنني اعتقدت كطالبة حينها أنها تقدم درساً في البقاء... الحياة يجب أن تستمر.

30 ديسمبر 2003.

كنا قد رأينا كوينتانا في قسم العناية المركزة في الدور السادس من مشفى بيت إسرائيل نورث، حيث ستبقى لأربعة وعشرين يوماً بعد.

التبعية المطلقة (أتلك تسمية أخرى لعلاقة «الزواج»؟، للعلاقة

بين «الزوج والزوجة»؟ بين «الأم والابن»؟ للعلاقة بين أفراد «العائلة البيولوجية»؟) ليست الحالة الوحيدة التي تتسبب بألم الفقدان المرضي أو المعقد. قرأت في الكتب التي تدور في فلك علم النفس أنه قد يحدث أيضاً عندما تتداخل «عوامل ظرفية» مع سيرورة ألم الفقدان، كأن «يتم تأجيل الجنازة» أو أن تبلى عائلة الفقيد بـ«إصابة أحد أفراد العائلة بمرض أو وقوع موت آخر فيها». قرأت توضيحاً للدكتور فاميك دي فولكان، وهو بروفسور مختص في الطب النفسي في جامعة فرجينيا في شارلوتزفيل، عما أسماه re-grief therapy «العلاج بإعادة تمثيل ألم الفقدان» وهو عبارة عن تكنيك تم تطويره في جامعة فرجينيا لمعالجة «المحزونين المرضيين الدائمين». في هذا العلاج، بحسب الدكتور فولكان، تأتي مرحلة يمكننا فيها:

مساعدة المريض على استرجاع ظروف الموت: كيف حدث، رد فعل المريض للخبر ورؤية الجثة، وقائع الجنازة، وما إلى ذلك. عادة ما تظهر مشاعر الغضب في هذه المرحلة إذا سار العلاج كما يجب. يتفجر في البداية، ثم يتم توجيهه إلى الآخرين. التنفيس عن الغضب – وهو ما أسماه بيبرينغ (أي بيبرينغ، Psychoanalysis and the Dynamic، 1954 Psychotherapies «التحليل النفسي وطرق العلاج النفسي الديناميكية»، مجلة المنظمة الأمريكية للتحليل النفسي) «إعادة عيش التجربة العاطفية» – يمكن أن تحدث حينها وتُظهر للمريض حقيقة دوافعه المكبوتة.

عبر فهمنا للديناميكا النفسية المتعلقة بحاجة المريض إلى إبقاء فقيده على قيد الحياة، يمكننا شرح وتفسير العلاقة التي كانت قائمة بين المريض ومن فارق الحياة.

لكن من أين استخلص الدكتور وفريقه في شارلوتزفيل هذا الفهم الفريد لـ«الديناميكية النفسية المتعلقة بحاجة المريض إلى إبقاء فقيده حياً». من أين استمدوا هذه القدرة الخاصة على «شرح وتفسير العلاقة التي كانت قائمة بين المريض ومن فارق الحياة»؟ هل كنتم تشاهدون

تينكو معي أنا و«من فارق الحياة» في بينتوود بارك؟ هل تناولتم العشاء معنا في مطعم مورتون؟ هل كنتم معنا في بانشباول في هونولولو قبل أن تحدث الفاجعة بأربعة أشهر؟ هل جمعتم معنا براعم البلوميريا وقمتم برميها على قبر الجنود المجهولين الذين قضوا في بيرل هاربر؟ هل أصبتم بنزلة برد معنا عندما مشينا تحت المطر في حديقة رانيلاه في باريس قبل شهر واحد من الواقعة؟ هل غفلتم عن مشاهدة لوحات مونيه وذهبتم لتناول الغداء في مطعم كونتي؟ هل كنتم معنا عندما غادرنا كونتي واشترينا مقياس حرارة؟ وهل كنتم جالسين على سريرنا في بريستول حيث لم يعرف أي منا كيف يحوّل القيمة التي وقف عندها مقياس الحرارة من الدرجة المئوية إلى الفهرنهايت؟

هل كنتم معنا؟

لا.

لربما كنا قد استفدنا من خبرتكم في تحويل قيمة مقياس الحرارة، لكنكم لم تكونوا هناك.

أنا لست بحاجة إلى «استرجاع ظروف الموت»، فقد كنت هناك.

لم أتلقَ «الخبر»، لم أعاين «الجثة». كنت هناك.

أضبط نفسي وأنا أضِلّ عن المسار. أتوقّف.

أدرك أنني أوجه غضباً غير منطقي إلى الدكتور فولكان في تشارلوتزفيل، وهو المجهول تماماً بالنسبة إلي.

«الأشخاص الذين حلت بهم مصيبة والرازحون تحت تأثير صدمة فقدانهم أعز ناسهم لا يكونون مضطربين عقلياً فحسب، بل غير متوازنين جسدياً أيضاً. قد يكونون هادئين ومنضبطين في الظاهر، لكن بغض النظر عن ذلك، لا يمكن لأحد أن يكون طبيعياً في هذه الظروف. دورتهم الدموية المضطربة تجعلهم يشعرون بالبرد والبرود، توترهم يجعلهم متشنجين وفي حالة أرق دائم. وغالباً ما ينقلبون على أولئك

الاشخاص الذين يحبونهم، ويبدأون بالنفور منهم. يجب ألّا يفرض أحد نفسه على المحزون والمفجوع بفقدان عزيز، وألا يتواجد دائماً حوله، وبغض النظر عن مدى القرابة والحميمية وعن طبيعة العلاقة التي تجمعهم به، يجب أن يتم الامتناع عن ذلك تماماً. وعلى الرغم من أن معرفته أن أصدقاءه يتعاطفون معه ويشعرون بالأسى من أجله تمنحه عزاءً كبيراً، فإن الشخص الأكثر تضرراً بألم الفقدان يجب أن يكون محمياً من أي شخص أو أي شيء ممكن أن يزيد من توتر أعصابه التي هي أصلاً في حالة حرجة ومعرضة للتوتر في أي لحظة، ولا يحق لأحد أن يشعر بالسوء أو الإهانة إذا ما قيل له إن وجوده غير ضروري أو من غير الممكن استقباله. في وقت كهذا، وجود صحبة قد يعود بالراحة على بعض الناس، لكنه لا يكون كذلك بالنسبة إلى بعضهم الآخر، أولئك الذي ينطوون على أنفسهم وينأون بها بعيداً عن أقرب أصدقائهم».

هذه الفقرة مقتطفة من الفصل الرابع والعشرين من كتاب إيميلي بوست Funerals «جنازات» الذي نُشر في 1922 والذي يقدم تعليمات خاصة بأصول وقواعد السلوك، ويأخذ القارئ في رحلة تبدأ من لحظة الموت («بمجرد أن تحدث الوفاة، يقوم أحدهم، الممرضة المتمرسة عادة، بإغلاق الستائر في غرفة المريض، ويُطلب من الخادم إغلاق الستائر في المنزل»)، وصولاً إلى تعليمات الجلوس لأولئك الذين يحضرون الجنازة: «أدخل الجنازة بأكبر قدر ممكن من الهدوء، وبما أنه لا وجود للحُجّاب في الجنازات، اجلس حيث يجب، وذلك حسب علاقتك بالمتوفى وذويه... وحدهم الأصدقاء المقربون يمكنهم أن يتخذوا مجلساً في الأمام قرب الممر الرئيسي. إذا كنت من المعارف غير المقربين يجب أن تجلس في المؤخرة في مكان غير ظاهر، إلا إذا كانت الجنازة صغيرة والكنيسة كبيرة، فعندها تجلس في آخر مقعد في الصفّ الأوسط من المقاعد الواقعة في مؤخرة الكنيسة».

هذه النبرة، التي تتميز بخصوصية ثابتة، لا تفتر ولا تضعف، يبقى

التشديد فيها على الجانب العملي. يجب أن يُحث المفجوع على «الجلوس في غرفة مُشمسة»، ويُفضل أن تكون الغرفة تحتوي على موقد. الطعام، أو بالأحرى القليل من الطعام، يجب أن يُقدم له على صينية: شاي، قهوة، حساء، شريحة خبز صغيرة، بيضة مسلوقة، حليب، حليب ساخن فقط: «لا يجوز تقديم الحليب البارد لشخص يعاني في الأساس من انخفاض شديد في الحرارة». ولمنحه المزيد من الغذاء «يمكن للطاهي أن يقترح بعض الأكلات التي تروق له عادة - لكن يجب أن تكون الكمية قليلة جداً في كل وجبة، ذلك أنه على الرغم من أن معدته قد تكون فارغة، فإن حاسة التذوق لديه ترفض فكرة الطعام من أصلها، كما لا يكون جهازه الهضمي في أفضل حالاته». يُنصح أن يقتصد المفجوع في موضوع الحداد بالنسبة إلى الملابس فيكتفي بالملابس المتوفرة عادة، بما في ذلك الأحذية الجلدية وقبعات القش التي تتناسب تماماً مع الوضع. الاهتمام بالتكاليف يجب أن يؤخذ بعين الاعتبار مقدماً. يجب أن يتولى أحد الأصدقاء مسؤولية الاهتمام بالمنزل أثناء الجنازة. يجب أن يتأكد هذا الصديق من تهوية المنزل، وإعادة وضع قطع الأثاث التي تم تغيير موضعها في مكانها المعتاد، وإشعال النار في الموقد استعداداً لعودة أفراد العائلة إلى المنزل. «من الجيد أيضاً تحضير شيء من الشاي أو الحساء الساخن». كما توصي السيدة بوست، «ويجب أن يُقدم لهم من دون سؤالهم ما إذا كانوا يرغبون في تناوله أو لا. هؤلاء الذين يعيشون مأساة وبؤساً هائلاً لا يشعرون برغبة في تناول الطعام، ولكن إذا قُدم لهم من دون سؤالهم، فإنهم يتقبلونه بشكل تلقائي، ووجبة ساخنة تساعد على بدء عملية الهضم وتحفيز الدورة الدموية المضطربة هي أكثر ما يحتاجون إليه في هذه الظروف».

ثمة شيء مثير للاهتمام ويستدعي التوقف في ما يتعلق بالواقعية التي تستند إليها هذه الحكمة العملية، وهو الفهم الفطري لتلك الاضطرابات الفيزيولوجية («تغيرات في وظائف الغدد، وجهاز المناعة، والجهاز

العصبي التلقائي، والجهاز القلبي الوعائي») كما كشف معهد الطب لاحقاً. لا أدري ما الذي حدا بي إلى اللجوء إلى كتاب أصول السلوك لإيميلي بوست المنشور في العام 1922 (افترضت أن ذلك كان وليد ذكرى تعود إلى والدتي التي كانت قد أعطتني نسخة منه لأقرأها عندما فرض علينا تساقط الثلوج المستمر أن نبقى حبيستي منزل من أربع غرف في مدينة كولورادو سبرينجز خلال الحرب العالمية الثانية)، ولكنني عندما وجدته على شبكة الإنترنت شعرت به وكأنه يفهمني ويتحدث إلي وعني. أثناء قراءته تذكرت كم كنت أشعر بالبرد في مستشفى نيويورك في الليلة التي قضى فيها جون، لكنني ظننت وقتها أن ذلك مرده إلى أننا كنا في الـ30 من ديسمبر، ولأنني كنت قد أتيت إلى المستشفى عارية الساقين لا أرتدي سوى حذاء منزلي وتنورة من الكتان وبلوزة منزلية كنت قد ارتديتها بعد أن نزعت عني ملابس الخروج لدى عودتي إلى المنزل. كان شعوري بالبرد مرده إلى تلك الأسباب بلا شك، لكنني شعرت بالبرد أيضاً لأنه لا شيء في جسدي كان يعمل كما يجب.

كانت السيدة بوست ستفهم حالتي. ألّفت بوست كتابها في عالم كان الحداد فيه لا يزال رد فعل معترفاً به، ومسموحاً بوجوده، وليس عيباً يجب التستر عليه وإخفاؤه عن الأنظار. في سلسلة من المحاضرات ألقاها في جامعة جونز هوبكنز ونُشرت لاحقاً في كتاب حمل اسم *Western Attitudes toward Death: From the Middle Ages to the Present* «مواقف الغرب من الموت: منذ العصور الوسطى إلى الزمن الحاضر» لاحظ فيليب أرييس أنه في بداية الثلاثينيات من القرن المنصرم شهدت معظم بلدان الغرب على العموم، والولايات المتحدة على وجه الخصوص، ثورة على صعيد سلوك تقبُّل الموت. وكان قد كتب: «الموت، الذي كان منتشراً بصورة طاغية في الماضي إلى درجة أصبح معها شيئاً مألوفاً وعادياً، سيتأثر، ويختفي... سيصبح أمراً مخزياً ومعيباً ومحظوراً». في كتابه *Death, Grief, and Mourning* «الموت،

ألم الفقدان، الحداد» وصف العالم الإنجليزي المختص في علم الإنسان الاجتماعي «الأنثروبولوجيا» جيفري غورير هذا الرفض للتعبير عن الحزن على فقدان عزيز في العلن كنتيجة للانتشار المتزايد لتلك الموجة الجديدة القائلة إن «استمتاع المرء بحياته واجب أخلاقي»، وهي عبارة عن بدعة معاصرة «تحظر القيام بأي شيء ممكن أن يفسد على الآخرين متعتهم». وقد لاحظ أنه في كل من إنجلترا والولايات المتحدة الأمريكية كانت الموجة المعاصرة هي «النظر إلى ممارسة الحداد والحزن على أنها ترف مرضيّ وانغماس ذاتي، والتعبير عن الإعجاب بأي مفجوع يخفي حزنه بالكامل بحيث لا يستطيع أحد أن يخمّن أن مصاباً جللاً قد حل به».

واحدة من الطرق التي تهوّن إخفاء الموت الآن هو أنه قد بات شائعاً إلى درجة أصبح معها يمرّ مرور الكرام من دون أي ضجة أو أجراس. في الأعراف السالفة التي استقت منها السيدة بوست ما كتبت لم يكن فعل الموت قد امتُهن بعد. لم تكن المستشفيات جزءاً من مشهد الموت حينها. كانت النساء تمتن أثناء الإنجاب، والأطفال يموتون من الحمى. لم يكن ثمة علاج للسرطان. في الوقت الذي اضطلعت فيه بوست بتأليف كتاب أصول وقواعد السلوك ذاك، لم تنجُ سوى بضعة بيوت في الولايات المتّحدة من وباء الإنفلونزا الذي اجتاح البلاد في 1918. كان الموت قريباً ملموساً يتربص بنا من داخل منازلنا. كان يُنتظر من الشخص العادي أن يتعامل بحكمة، وبحساسية أيضاً، مع آثاره. أثناء نشأتي في كاليفورنيا تعلمت أنه عندما يموت شخص ما، يقوم جيرانه بطهي بعض اللحم وإرساله إلى منزل أهل الفقيد. يذهبون إلى الجنازة. وإذا كانت عائلة الفقيد من الطائفة الكاثوليكية، يذهبون إلى قداس الصلاة على روحه لكن من دون نواح أو ندب أو أي ملمح من ملامح الحزن أو أي محاولة للفت انتباه عائلة الفقيد. يتبين في النهاية أن كتاب إميلي بوست عن أصول السلوك في العام 1922 كان قاطعاً جداً في

استيعابه وتصويره لهذا الوجه الآخر للموت، ومتقدماً في معالجته لألم الفقدان أكثر من أي مؤلِّف آخر قرأته. لن أنسى ما حييت تلك الحكمة الغريزية لصديقتي التي كانت تجلب لي كل يوم في الأسابيع الأولى التي أعقبت الوفاة وعاء طعام يحتوي على حساء الرز والبصل والزنجبيل من الحي الصيني. كان بإمكاني أن أتناول حساء الرز. كان حساء الرز الطعام الوحيد الذي بإمكاني ابتلاعه.

-5-

ثمة شيء آخر كنت قد تعلمته أثناء نشأتي في كاليفورنيا. عندما يُشتبه بأن أحدهم قد فارق الحياة كانوا يتأكدون من ذلك عبر وضع مرآة أمام فمه وأنفه. إذا لم تتلطخ المرآة برطوبة الزفير يكون الشخص ميتاً. أمي علّمتني ذلك. نسيت تجربة ذلك في ليلة وفاة جون. هل ما زال يتنفس؟ سألني موظف الهاتف. أرجوك أرسل أحداً بسرعة وحسب، أجبته.

30 ديسمبر 2003

كنا قد رأينا كوينتانا في وحدة العناية المركزة في الدور السادس من مشفى بيت إسرائيل نورث.

كانت الأرقام الظاهرة على جهاز التنفس الاصطناعي قد استرعت انتباهنا.

أمسكنا بيدها المتورمة.

ما زلنا غير متأكدين من وضعها، قال أحد أطباء وحدة العناية المركزة.

عدنا إلى المنزل. لم تكن وحدة العناية المركزة تفتح أبوابها مرة أخرى إلا بعد الجولات المسائية عند السابعة مساءً، لذا لا بد أن الساعة كانت قد تجاوزت الثامنة.

كنا قد تداولنا ما إذا كنا سنتناول العشاء خارجاً أم في المنزل.

قلت إنني سأضرم النيران في الموقد وسنتناول العشاء في المنزل.

لا أذكر ماذا قررنا أن نأكل. لكنني أذكر أنني رميت كل ما كان في الأطباق من طعام بعد عودتي من مستشفى نيويورك.

تراك جالساً تتناول العشاء وإذ بالحياة التي تعرفها تنتهي...
هكذا في نبضة قلب،
أو في غياب تلك النبضة...

قضيت معظم وقتي خلال الأشهر القليلة الماضية في محاولة رصد التسلسل الفعلي للأحداث التي سبقت وأعقبت الواقعة تلك الليلة، ومن ثم في محاولة إعادة بنائها عندما فشلت في استذكارها. «في وقت ما بين الخميس الموافق 18 ديسمبر 2003، والإثنين الموافق 22 ديسمبر 2003»، هكذا تبدأ إحدى محاولات إعادة بناء تسلسل الأحداث، «اشتكت كوينتانا من «شعور فظيع» ومن أعراض شبيهة بأعراض الإنفلونزا، واعتقدت أنها مصابة بالتهاب الحلق». محاولة إعادة بناء الأحداث هذه، والمسبوقة بأسماء وأرقام هواتف الأطباء الذين تحدثت إليهم، ليس في مستشفى بيت إسرائيل فقط، بل في باقي المستشفيات في نيويورك وغيرها من المدن أيضاً، تواصلت. كان مركز الأحداث فيها هو التالي: يوم الإثنين، 22 ديسمبر، اشتدت الحمى عليها وارتفعت درجة حرارتها إلى ما يزيد على 39 درجة مئوية، ما اضطرنا إلى حملها إلى قسم الطوارئ في مشفى بيت إسرائيل نورث، الذي كان يتميز حينها بسمعته كقسم الطوارئ الأقل ازدحاماً في طرف مانهاتن الشرقي العلوي، وهناك شخّصوا إصابتها بنزلة برد.

أخبروها أن تلازم الفراش وتشرب الكثير من السوائل، لكنهم لم يقوموا وقتها بإجراء صورة أشعة لصدرها. في 23 و24 ديسمبر عادت الحمى لتشتد عليها وارتفعت حرارتها لتتخطى الـ39 درجة وتصل إلى الـ40 أحياناً. كانت مريضة لدرجة لم تستطع معها أن تحضر عشاء ليلة عيد الميلاد. ألغت هي وجيري مشاريعهما لقضاء ليلة عيد الميلاد والأيام القليلة التي تعقبها مع عائلته في ماساتشوستس.

في صباح يوم عيد الميلاد، وكان يوم خميس، اتصلت بنا في الصباح وقالت إنها تعاني من ضيق تنفس فظيع. بدا تنفسها متقطعاً

وسطحياً وكأن الأكسجين لا ينفذ إلى صدرها. أخذها جيري إلى قسم الطوارئ في مستشفى بيت إسرائيل نورث مرة أخرى، وهناك أظهرت صورة الأشعة تغلغلاً كثيفاً للقيح والبكتيريا في الفص السفلي من رئتها اليمنى. كان نبضها مرتفعاً، ما يزيد على 150 نبضة في الدقيقة. كانت تعاني من جفاف حاد، ومعدل كرياتها البيضاء يقارب الصفر. أعطوها أولاً عقار أتيفان ومن ثم ديمرول. قالوا لجيري في قسم الإسعاف إن شدة الالتهاب الرئوي الذي تعاني منه كان 5 من 10، وهو ما يسمونه «التهاب رئوي متوسط». «شيء بسيط لا يستدعي القلق» (ربما كان هذا ما أردت سماعه)، لكن على الرغم من ذلك قرروا إدخالها إلى وحدة العناية المركزة في الدور السادس لوضعها تحت المراقبة.

عندما وصلت إلى وحدة العناية المركزة في تلك الأمسية كانت حالتها قد تفاقمت. في البداية أعطوها المزيد من المسكنات، ثم قاموا بوصلها بجهاز التنفس الاصطناعي. كانت درجة حرارتها الآن تتجاوز الأربعين. كل الأكسجين الذي يسري في جسدها كان آتياً من أنبوب جهاز التنفس... لم تكن في ذلك الوقت قادرة على التنفس بمفردها. في وقت متأخر من صباح اليوم التالي، الجمعة 26 ديسمبر، أُبلغنا أن الالتهاب الرئوي قد استشرى في كلتا الرئتين، وأن هذا الالتهاب، وعلى الرغم من حقنها بكميات هائلة من الأزيثروميسين والجينتميسين والكليندامايسين والفانكومايسين، كان يشتد ويتفاقم. أعلمونا أيضاً، أو هذا ما افترضوه بما أن ضغطها كان ينخفض، أنها كانت تدخل، أو أنها قد دخلت، في ما يُسمى بـ«الصدمة الإنتانية». طلبوا من جيري منحهم الإذن بالقيام بإجراءين جراحيين إضافيين، الإجراء الأول هو إدخال أنبوب شرياني، والثاني إدخال إنبوب آخر قريب جداً من القلب ليعالج مشكلة ضغط الدم. كانوا قد حقنوها أيضاً بعقار نيوسينفراين لرفع ضغط دمها ليصل إلى +90 على +60.

في يوم السبت الموافق 27 ديسمبر أخبرونا أنهم أعطوها العقار

الجديد الذي أنتجته شركة إيلي ليلي، والمسمى زايغريس، الذي يجب أن تستمر بتعاطيه لمدة ست وتسعين ساعة، أي لأربعة أيام. «يكلف 20 ألف دولار»، قالت لنا الممرضة وهي تقوم بتبديل كيس السوائل الذي يسري ما فيه في وريدها. راقبتُ السائل وهو ينساب نقطة إثر أخرى ويشق طريقه في واحد من الأنابيب الكثيرة التي كانت تبقي كوينتانا على قيد الحياة حينها. بحثت عن عقار زايغريس على شبكة الإنترنت. قرأت في أحد المواقع أن نسبة نجاة المريض المصاب بالصدمة الإنتانية الذي يتعالج بعقار زايغريس هي 69 %، مقابل 56 % عند المصابين بالمرض نفسه من دون تعاطيه. وفي موقع آخر، وهي صحيفة إخبارية خاصة بالأعمال، قرأت أن «زايغريس، العملاق النائم» لشركة إيلي ليلي كان «يقاوم ليتغلب على مشاكله في سوق الأدوية المعالجة للصدمة الإنتانية». بدا هذا بطريقة ما منظوراً إيجابياً يمكنني أن أرى الوضع من خلاله: كوينتانا ليست تلك الطفلة التي كانت عروساً تغمرها السعادة منذ خمسة أشهر، وليست تلك التي تنوس فرص بقائها على قيد الحياة بين 56 % و69 %، بل هي تجسيد لـ «سوق عقاقير الصدمة الإنتانية»، وهو ما يفترض أنه لا يزال ثمة خيار أمام المستهلك. بحلول يوم الأحد 28 ديسمبر، كان من الممكن تصور أن «العملاق النائم» في سوق عقاقيرالصدمة الإنتانية قد بدأ يعمل عمله: لم يتراجع الالتهاب في الحجم، لكن تم إيقاف عقّار نيوسينفراين الذي كان يعالج مشكلة ضغط الدم بعد أن استقر ضغطها عند مؤشر 95 على 40. يوم الإثنين الموافق 29 ديسمبر، قال مساعد الطبيب المعالج لكوينتانا إنه بعد غيابه خلال عطلة نهاية الأسبوع عاد صباحاً ليرى أن حالة كوينتانا «تبشر بالخير». سألت مساعد الطبيب ما الذي بالضبط جعله يستبشر خيراً بخصوص وضعها عندما عاد إلى عمله صباحاً. «كانت لاتزال على قيد الحياة»، أجابني.

في يوم الثلاثاء الموافق 30 ديسمبر، وعند الساعة 1:02 ظهراً (بحسب

جهاز الكمبيوتر)، قمت بتسجيل هذه الملاحظات بعد أن اتّصلت باختصاصي آخر وجلست أنتظر أن يأخذ مكالمتي:

هل يتأثر الدماغ بنقص الأكسجين؟ بارتفاع درجة الحرارة؟ بالتهاب محتمل للسحايا؟

العديد من الأطباء كانوا قد أشاروا إلى أنه «من غير المعروف إذا كان هناك بنية خفية أم انسداد». أكانوا يتحدثون عن احتمال وجود ورم خبيث؟»

تقول الفرضية إن هذا الالتهاب هو جرثومي - على الرغم من أن عمليات الاستنبات لم تظهر وجود أي بكتيريا - هل من طريقة للتأكد من أن منشأ المرض ليس فيروسياً؟

كيف يمكن لإنفلونزا أن تتحول إلى التهاب يستشري في الجسد كله؟ كان جون من طرح السؤال الأخير.

بدا في 30 ديسمبر كأنه يركّز كل حواسه على هذه النقطة. كان قد طرح السؤال نفسه مرات عديدة في الأيام القليلة الماضية على الأطباء والاختصاصيين ومساعدي الأطباء والممرضات، وفي النهاية، عندما استبد به اليأس، طرح السؤال عليّ، لكنه لم يلقَ جواباً شافياً. شيء ما في هذه الجزئية تجاوز قدرته على الفهم. شيء ما تجاوز قدرتي أنا على الفهم. لكنني كنت أتظاهر بأنني قادرة على استيعابه. هذا الشيء هو:

كانت قد أدخلت إلى وحدة العناية المركزة في ليلة عيد الميلاد. كانت تمكث في مستشفى، هذا ما استمررنا بقوله لأنفسنا. كان هناك من يعتني بها ويسهر على راحتها. ستكون بخير حيث هي.

بدا كل شيء آخر طبيعياً.

كانت النيران تشتعل في الموقد. ستكون بأمان.

بعد ذلك بخمسة أيام بدا كل شيء خارج وحدة العناية المركزة في الدور السادس من مستشفى بيت إسرائيل نورث عادياً: كانت هذه هي الجزئية التي لم نستطع لا أنا ولا جون أن نتجاوزها (على الرغم من أن

جون هو وحده من اعترف بذلك)، حالة أخرى من الإمعان في التركيز على السماء الزرقاء الصافية التي هوت منها الطائرة. الهدايا التي فتحناها أنا وجون في ليلة عيد الميلاد كانت لا تزال مكانها في غرفة الجلوس. وتحت الطاولة وفوقها في غرفة نوم كوينتانا القديمة كانت الهدايا التي لم تتمكن من فتحها ليلة عيد الميلاد جاثمة في مكانها لم تُمس، فقد كانت في وحدة العناية المركزة في تلك الليلة. وعلى الطاولة في غرفة الطعام كانت الأطباق التي استخدمناها ليلة عيد الميلاد لا تزال مكدسة بعضها فوق بعض حيث تركناها. ضمن فاتورة صادرة من أمريكان إكسبريس وصلتنا في ذلك اليوم كانت تظهر تكاليف الرحلة التي قمنا بها إلى باريس في شهر نوفمبر الماضي. عندما غادرنا إلى باريس كانت كوينتانا وجيري قد خططا لقضاء عيد الشكر الأول لهما معاً. قاما بدعوة والدة جيري وأخته وصهره. استخدما طقم الأطباق الصيني الذي أتاهما هديةً بمناسبة زفافهما. جاءت كوينتانا إلى منزلنا لاستعارة كؤوس الكريستال التي أعطتني إياها أمي. اتصلنا بهما من باريس يوم عيد الشكر. كانوا يشوون ديكاً رومياً ويعدون مهروس اللفت.

«ومن ثم... انتهى كل شيء».

كيف يمكن للإنفلونزا أن تتحول إلى التهاب يستشري في الجسد كله؟ أرى السؤال الآن وكأنه تجسيد لصرخة غضب يائسة... طريقة أخرى لقول: كيف يمكن لهذا أن يحدث عندما كان كل شيء يسير بعادية مطلقة؟ في الحجرة التي كانت تمكث فيها كوينتانا في وحدة العناية المركزة، بوجهها المتورم وأصابعها المنتفخة بالسوائل وشفتيها المتشققتين بفعل الحمى تقبضان على أنبوب التنفس، وشعرها المتلبد والغارق في العرق، كانت الأرقام الظاهرة على جهاز التنفس تشير تلك الليلة إلى أنها كانت تحصل على 45 % فقط من أكسجينها عبر الأنبوب. قبّل جون وجهها المتورم. «لأكثر من مجرد يوم واحد» كان قد همس في أذنها، وهي عبارة من العبارات المتداولة في عائلاتنا، وهي مقتبسة

من فيلم روبين وماريان للمخرج ريتشارد لِستر. «أحبك لأكثر من مجرد يوم واحد» تقول أودري هيبورن، التي لعبت دور الخادمة ماريان، لشون كونري الذي لعب دور روبن هود بعد أن تناولا الجرعة القاتلة. كان جون يهمس بهذه العبارة كلما غادر وحدة العناية المركزة. في طريق خروجنا من المستشفى تمكنّا بالحيلة من جرّ أحد الأطباء للتحدث إلينا. سألناه ما إذا كان النقص في كمية الأكسجين التي تأتيها من أنبوب التنفس يعني أنها كانت تتحسن.

خيّم الصمت لبرهة.

كان هذا عندما قال لنا طبيب العناية المركزة: «ما زلنا لا نعلم في أي اتجاه تسير الأمور».

«تسير إلى الأفضل»... هذا ما فكرت فيه حينها كما أذكر.

لم يكن الطبيب قد أنهى كلامه، وتابع قائلاً: «إنها مريضة جداً». فهمت ذلك وكأنه طريقة مشفرة لقول إنّ موتها أمر متوقع، ولكنني فكرت بإصرار: الأمور تسير إلى الأفضل. الأمور تسير إلى الأفضل. لأنه لزام عليها أن تسير إلى الأفضل.

أنا أؤمن بكات.

أنا أؤمن بالرب.

«أحبك لأكثر من مجرد يوم واحد»... قالتها كوينتانا بعد ثلاثة أشهر وهي واقفة بثوبها الأسود في كاتدرائية القديس يوحنا. «كما اعتدت أن تقول لي».

كنا قد تزوجنا ظهر يوم الخميس الموافق الثلاثين من يناير من العام 1964 في الإرسالية الكاثوليكية سان خوان باوتيستا في سان بينيتو كاونتي في كاليفورنيا. ارتدى جون يومها بزة كحلية اللون من محلات تشيب. أما أنا فكنت أرتدي ثوباً حريرياً أبيض قصيراً ابتعته من محلات رانسوهوف في سان فرنسيسكو في اليوم الذي شهد اغتيال جون كينيدي. عندما كانت الساعة تشير إلى الثانية عشرة والنصف ظهراً في دالاس كان الوقت لا

يزال صباحاً في كاليفورنيا. لم نعلم أنا وأمي بما حدث إلا أثناء مغادرتنا رانسوهوف لتناول الغداء حيث صادفنا شخصاً من معارفنا من سكراميتو. بما أنه لم يكن هناك سوى ثلاثين أو أربعين شخصاً في سان خوان باوتيستا مساء يوم الزفاف (والدة جون، وأخوه الأصغر ستيفن، وأخوه نِك وزوجته ليني وابنتهما ذات الأربعة أعوام، وأمي وأبي وأخي وزوجته وجدي وعمتي وبعض من أقاربي وثلة من أصدقاء العائلة من ساكراميتو، ورفيق سكن جون من برينستون، وبضعة أشخاص آخرين)، أردت أن تكون المراسم بسيطة، وألا يكون هناك دخول احتفالي ولا «موكب»، وأن نكتفي بالوقوف هناك والقيام بالمراسم. «ظهور عادي» أذكر نِك وهو يقول ذلك بيأس، فهم نِك الخطة، لكن عازف الأرغن لم يفهمها، ولم أجد نفسي إلا وأنا متأبطة ذراع أبي ونحن نسير معاً في الممشى ودموعي تنهمر خلف نظارتي السوداء. بعد انتهاء المراسم مضينا بالسيارة إلى منتجع بيبل بيتش. كان هناك أطعمة كوكتيل صغيرة، وشمبانيا، وشرفة تطل على المحيط الهادئ. كان كل شيء بسيطاً للغاية. وكما يفعلون عادة في شهر العسل أمضينا بضعة ليالٍ في بنغالو في مزرعة سان إيسيدرو في مونتيسيتو، وبعد ذلك، عندما شعرنا بالملل، هربنا إلى فندق بيفرلي هيلز.

في يوم زفاف كوينتانا تذكّرت حفل زفافي. كان زفافها بسيطاً أيضاً. ارتدت ثوباً طويلاً أبيض وطرحة بيضاء وحذاءً باهظاً، لكن شعرها كان مجدولاً في ضفيرة تنسدل على ظهرها، كما اعتادت أن تفعل عندما كانت طفلة.

جلسنا مع الجوقة في كاتدرائية القديس يوحنا. مشى والدها برفقتها إلى المذبح حيث كانت تنتظرها صديقتها المقربة من كاليفورنيا منذ أن كانت في عمر الثالثة، سوزان، وصديقتها المقربة من نيويورك، وابنة عمها هانا. ومن كاليفورنيا أتت أيضاً ابنة عمها لتلقي جزءاً من القداس. أحفاد زوجة جيري السابقة كانوا هناك أيضاً ليؤدوا جزءاً آخر من القداس. كان هناك أيضاً أطفال أصغر سناً، وفتيات صغيرات عاريات الأقدام بأكاليل

من الزهور على رؤوسهن. على المائدة كنت ترى سندويتشات البيض والجرجير، والشمبانيا، والليموناضة، ومناديل بلون الخوخ لتناسب الشراب المحلى الـذي أتى مع التورتة، وعلى المرج كنت ترى طواويس زاهية الألوان. خلعت حذاءها وأزالت الطرحة. «ألم يكن حفل زفاف مثالياً؟» قالت عندما اتصلت بنا مساء اليوم نفسه. أنا ووالدها اعتقدنا أنه كان كذلك. سافرت هي وجيري إلى سانت بارت جواً. أما أنا وجون فاستقللنا الطائرة ومضينا إلى هونولولو.

26 يوليو 2003

قبل 4 أشهر و29 يوماً من نقلها إلى وحدة العناية المركزة في مشفى بيت إسرائيل نورث، وقبل 5 أشهر و4 أيام من موت والدها، وخلال الأسبوع أو الأسبوعين اللذين أعقبا موته عندما كان الإعياء الوقائي يهاجمني في الليل، كنت أترك كل من في منزلنا من أقارب وأصدقاء يتجاذبون أطراف الحديث في غرفة الجلوس وغرفة الطعام والمطبخ وأسير عبر الممر إلى غرفة النوم وأغلق الباب خلفي. كنت أتجنب النظر إلى كل تلك التذكارات المعلقة على جدران الممر التي تعود إلى بداية زواجنا. في الواقع، لم أكن بحاجة إلى النظر إليها لأتذكر، ولا كنت قادرة على تجنبها بعدم النظر إليها... كنت أحفظ كل ما فيها عن ظهر قلب. كان هناك صورة التُقطت لي أنا وجون في موقع تصوير فيلم *The Panic in Needle Park*. كان أول فيلم عملنا عليه معاً. ذهبنا مع فريق عمل الفيلم إلى مهرجان «كان» السينمائي. كانت تلك المرة الأولى التي أسافر فيها إلى أوروبا، وكانتِ في الدرجة الأولى على حساب شركة توينتيث سينشري فوكس، وصعدت حينها على متن الطائرة حافية القدمين. حدث ذلك في العام 1971. كان هناك صورة لي ولجون وكوينتانا التُقطت لنا قرب نافورة بيثيسدا في سنترال بارك عام 1970، كان جون وكوينتانا، البالغة من العمر 4 سنوات حينها، يأكلان الآيس كريم. كنا قد أمضينا الخريف كله في نيويورك نعمل على أحد الأفلام مع المخرج

أوتو بريمنغر[1]. «إنها في مكتب السيد بريمنغر الذي لا شعر على رأسه»، هذا ما قالته كوينتانا لطبيب أطفال سألها أين الماما. كان هناك صورة لي مع جون وكوينتانا على المنصة الخشبية أمام المنزل الذي كنا نمتلكه في ماليبو في العام 1970. ظهرت هذه الصورة في مجلة People. عندما رأيتها أدركت أن كوينتانا كانت قد اغتنمت فرصة فترة الاستراحة من جلسة التصوير النهاري لتضع، لأول مرة في حياتها، كحلاً على عينيها. كانت هناك صورة التقطها باري فاريل لزوجته وهي جالسة في كرسي الخيزران في منزلنا في ماليبو وهي تحمل طفلتها الصغيرة آنذاك جوان ديديون فاريل.

باري فاريل أصبح الآن في عداد الأموات.

كان هناك صورة لكاترين روس التقطها لها كونراد هول خلال حقبة ماليبو حين كانت تعلّم كوينتانا كيف تسبح عبر رمي صدفة تاهيتية في بركة سباحة جيراننا والقول لها إنها ستكون من نصيبها إذا استطاعت أن تجلبها. حدث ذلك في أوائل سبعينيات القرن الماضي عندما كانت كاترين وكونراد وجين وبراين مور وجون وأنا نتبادل الشتلات والحيوانات الأليفة والوصفات والخدمات ويساعد كل منا الآخر ونتعشى بعضنا عند بعض مرة أو مرتين في الأسبوع.

لا أنسى كيف كنا جميعاً نعد طبق السوفليه. كانت شقيقة كونراد نانسي في مدينة بابيت البولينيزية قد علّمت كاترين كيفية تحضيره بكل سهولة، وكاترين قامت بتعليمي الطريقة أنا وجين. كانت الحيلة تكمن في اتباع منهج أقل تعنّتاً مما يُنصح به عادة. كاترين جلبت لنا معها أيضاً حبوب الفانيليا التاهيتية في حزم سميكة مربوطة بألياف النخل.

أعددنا الكريم كرميل لفترة من الزمن لكن لم يكن أحد بيننا يحب أن يكرمل السكر.

1- ممثل ومخرج ومنتج أمريكي.

كنا قد ناقشنا فكرة استئجار منزل «لي غرانت» المطل على شاطئ زوما وتحويله إلى مطعم يحمل اسم «لي غرانت هاوس». اتفقنا على أن نتناوب أنا وكاترينا وجين على الطبخ، وأن يتناوب براين وكونراد وجون على تولي إدارة الصالة وخدمة الزبائن. تم التخلي عن خطة البقاء في ماليبو لأن كاترينا وجون كانا قد انفصلا، وكان براين يضع اللمسات الأخيرة على روايته، وأنا وجون انتقلنا إلى هونولولو لإعادة كتابة سيناريو أحد الأفلام. كان عملنا شاقاً في هونولولو واستغرق منا جهداً ووقتاً. لم يتمكن أحد في نيويورك من استيعاب فرق التوقيت لذا كان بإمكاننا العمل طوال اليوم من دون أن يرن الهاتف. مرت علي فترة في سبعينيات القرن الماضي أردت خلالها أن أشتري منزلاً هناك، وأخذت جون معي لمعاينة العديد من المنازل، لكنه بدا حينها كأنه يرى فكرة العيش في بيت في هونولولو أقل إغراءً من الإقامة في منتجع كاهالا.

كونراد هول أصبح الآن في عداد الأموات.

براين مور غادر الحياة أيضاً.

من منزل سابق، وهو عبارة عن منزل قديم وشاسع في فرانكلين أفينيو في هوليوود كنا قد استأجرناه بغرف نومه العديدة وأروقته الكثيرة الظليلة وأشجار الأفوكادو في حديقته وملعب التنس الترابي المكسو بالأعشاب التابع له، مقابل 450 دولاراً في الشهر، ثمة قصيدة موضوعة في صورة مؤطرة كان إيرل مكغراث قد كتبها بمناسبة عيد زواجنا الخمسين:

هذه قصة جون جريجوري ديون
الذي كان متزوجاً من السيدة ديديون دو
شرعاً وله أسرة من شخص واحد
يعيشون معاً في فرانكلين أفينيو.
عاشوا مع طفلتهم الجميلة كوينتانا
والتي ينادونها أيضاً باسم ديديون دي
ديديون دون.

وديديون دو.
وكوينتانا أو ديديون دي.
أسرة جميلة من شخص واحد، ديون ديون ديون
(أعني عائلة من ثلاثة أشخاص)
يعيشون بطريقة أجمل ما نصفها به هو «أجمل ما كان»
في فرانكلين أفينيو.

الأشخاص الذين فقدوا عزيزاً تميّزهم نظرة معينة تُرى على وجوههم خلال الفترة القصيرة التي تعقب الفجيعة... نظرة قد لا يدركها سوى أولئك الذين قد ارتدوا هذه النظرة ورأوها على وجوههم. كنت قد لاحظت تلك النظرة على وجهي، كما لاحظتها على وجوه آخرين. نظرة مليئة بالضعف، بالعري، بالضياع. نظرة شخص خرج للتو من عيادة طبيب العيون فصعقه ضوء النهار بوهج جعل حدقتيه تتسعان، أو نظرة شخص يرتدي نظارات وأجبر على خلعها على حين غرة. هؤلاء الذين فقدوا عزيزاً يبدون عراة لأنهم يعتقدون أنهم غير مرئيين. أنا نفسي شعرت بأنني غير مرئية، على الصعيد المعنوي لا الجسدي، لفترة من الزمن. بدوت كأنني قد عبرت أحد تلك الأنهار الأسطورية التي تفصل عالم الأحياء عن عالم الأموات، ودخلت مكاناً لا يمكن أن يراني فيه إلا أولئك الذين فقدوا عزيزاً منذ وقت ليس ببعيد. فهمت لأول مرة تلك القوة الكامنة في صورة النهر، وآلهة النهر «ستيكس»[1]، ونهر النسيان «ليثي»[2]، والمراكبي المقنّع وساريته. فهمت لأول مرة المعنى الكامن

1- ستيكس هو نهر في الميثولوجيا الإغريقية يجري سبع مرات حول عالم الأموات، وفي الإلياذة هو النهر الوحيد في العالم السفلي، بينما ذكر معه في الأوديسة نهر كوكيتوس وبيريفليغيثون وأنه يصب في النهر الرئيسي أنهار أخرى.

2- ليثي هو أحد الأنهار الخمسة في العالم السفلي أو أنهار هاديس، والذي تتحدث عنه الأساطير الإغريقية والرومانية. وكلمة ليثي كلمة يونانية تعني النسيان. وتحكي الأساطير الرومانية والإغريقية أن الشُّرب من هذا النهر يجعل أرواح الموتى تتقمص أجسادًا جديدة تجعلها تنسى ما حدث لها في حياتها السابقة في العالم السفلي. وتشكّل هذه الأنهار الخمسة حدودًا فاصلة بين أرض الأحياء وأرض الأموات.

في طقس إحراق الأرملة. الأرامل كنّ يرمين أنفسهن في الطوف المشتعل هرباً من الحزن... من ألم الفقدان. كان الطوف المشتعل تجسيداً دقيقاً للمكان الذي أجبرهن ألمهن (ليس عائلاتهن، ولا مجتمعاتهن، ولا عاداتهن، بل ألمهن) على الذهاب إليه. في ليلة وفاة جون كنا على بعد واحد وثلاثين يوماً من عيد زواجنا الأربعين. لا بد من أنكم قد شعرتم الآن بأن «الحكمة القاسية العذبة» المتجسدة في الشطرين الأخيرين من قصيدة «روز إيلمر» لم تؤثر بي كما يجب.

أردت أكثر من ليلة واحدة من الذكريات والآهات.

أردت أن أصرخ.

أردته أن يعود إلى الحياة... أن يعود إلي.

-6-

منذ عدة سنوات في نيويورك، وبينما كنت أسير شرقاً في شارع فيفتي سيفين بين الجادة السادسة والخامسة في يوم مشرق من أيام الخريف، انتابني، ما تراءى لي حينها، توجسٌ من الموت وإدراك لحضوره. كانت تلك ظاهرة من ظواهر الضوء: أشعة شمس خاطفة تتسلل لتلطخ الأرض ببقع متفرقة من نور، أوراق صفراء تتساقط (لكن من أين؟ وهل في شارع ويست فيفتي سيفين أصلاً أشجار؟)، زخة من ذهب تتلألأ بسرعة خاطفة، وضياء ينهمر. بعد ذلك بدأت أحترس من ظواهر كتلك في الأيام المشرقة لكنني لم أختبر تلك التجربة مرة أخرى. تساءلت بعدها إذا كان ما مررت به نوبة أو سكتة ما. قبل ذلك ببضع سنوات، وأثناء وجودي في كاليفورنيا، رأيت حلماً علمت عندما استيقظت منه أنه رؤية عن الموت. رأيت صورة لجزيرة جليدية يمكن تمييز حافتها المتعرجة من الأعلى كأنّها إحدى جزر تشانل آيلاندس الإنجليزية، لكن لم يكن يُرى فيها سوى الجليد نصف الشفاف، وبياض مائل إلى الأزرق يتلألأ في ضوء الشمس. وبخلاف الأحلام التي يتوقع فيها الحالم الموت، ويدرك أنه حُكم عليه بالموت حكماً مبرماً لكنه لم ينفذ بعد، لم يكن ذلك الحلم ينطوي على أي خوف. كلتا الحادثتين، الجزيرة الجليدية وانهمار الضوء في شارع ويست فيفتي سيفين، بدتا مبهمتين وجميلتين بما يفوق الوصف، لكن على الرغم من ذلك كنت متأكدة تماماً من أن ما تراءى لي فيهما هو الموت.

إذا كانت تلك تصوراتي عن الموت، لماذا إذاً ظللت غير قادرة على تقبل حقيقة أنه قد مات؟ أكان ذلك لأني عجزت عن رؤية الموت على أنه شيء حدث له؟ أكان ذلك لأنني ما زلت أنظر إليه كأمر أصابني أنا؟

بسرعة تتغير الحياة.

في لحظة تتبدل الحياة.

تراك جالساً تتناول العشاء وإذ بالحياة التي تعرفها تنتهي.

أي شفقة على الذات تلك!

لاحظوا السرعة التي تصبح فيها مسألة الشفقة على الذات جزءاً من الصورة.

في أحد الصباحات خلال فصل الربيع الذي أتى بعد الواقعة حدث ذات مرة أن التقطت عدداً من صحيفة نيويورك تايمز وتجاوزت صفحتها الأولى وتوجهت رأساً إلى صفحة الكلمات المتقاطعة، وقد أصبحت تلك عادة عندي خلال تلك الأشهر، وأسلوباً أتبعه في قراءة، أو بالأحرى عدم قراءة، الصحف. في السابق لم يكن لي صبر قط على حل الكلمات المتقاطعة، أما الآن فكنت أنظر إليه كتمرين ذهني يساعدني على استعادة قدراتي الإدراكية. أول مفتاح لغز استرعى انتباهي ذلك الصباح كان ذلك الخاص بـ6 عمودي، «أحياناً تشعر كأنك...» وفي الحال عرفت الجواب الصحيح، جواباً طويلاً كفيلاً بملء عدة فراغات وإثبات كفاءتي لذاك اليوم: «طفل يتيم الأم».

يتامى الأم حياتهم مريرة-

يتامى الأم حياتهم كلها مرارة-

خطأ.

6 عمودي يجب أن تكون كلمة من أربعة أحرف فقط.

تخليت عن حل الكلمات المتقاطعة (نفاد الصبر لا غالب له)، وفي اليوم التالي بحثت عن الجواب الصحيح. جواب 6 عمودي الصحيح

كان «جوزة». جوزة!؟ أحياناً تشعر برغبة في تناول جوزة؟ إلى أي مدى أقصيت نفسي عن عالم الأجوبة العادية؟

ملاحظة: الجواب الذي خطر ببالي في الحال (يتيم الأم) كان تجسيداً لأنين الشفقة على الذات الذي يعصف في داخلي.

ما كان هذا العجز عن الفهم بالأمر السهل علاجه.

شرةٌ اندفاعه، ذلك الوهج المدوّخ!

أين أبي وإيليانور؟

لا أسأل أين هما الآن، فقد رحلا من سبع سنين،

بل أين ما كانا عليه حينها؟

ما عاد لهما وجود؟ ما عاد لهما وجود؟

ديلمور شوارتز «بهدوء نمشي عبر هذا اليوم النيساني»

«Calmly We Walk Through This April's Day»

كان واثقاً من أن موته بات قريباً. قالها لي أكثر من مرة. لم ألقِ بالاً إلى ذلك. كان مكتئباً. كان قد انتهى من كتابة روايته، Nothing Lost «لم نفقد شيئاً»، التي كانت قد علقت في حالة الإهمال المتوقعة تلك التي تحدث بين مرحلة التسليم والنشر لفترة طالت أكثر من المعتاد. كان يعيش أزمة ثقة، المتوقعة بالقدر نفسه، بخصوص الكتاب الذي كان قد بدأ كتابته حينها، وهو عبارة عن تأملات في معنى الوطنية التي لم تجد زخمها بعد. كان عليه أيضاً أن يتعامل مع سلسلة من الأزمات الصحية التي أحاقت به معظم فترات العام. كان نظم قلبه يدخل بوتيرة متزايدة مرحلة الرجفان الأذيني. كان من الممكن استعادة النظم الجيبي عبر تقويم نظم القلب، وهو إجراء طبي يتم خارج المستشفى، حيث يوضع المريض تحت التخدير العام لبضع دقائق يتم خلالها تعريض قلبه للصدمات الكهربائية، لكن أي تغيير في وضعه الجسدي، ومهما كان بسيطاً، كالإصابة بالزكام أو السفر جواً لمسافات طويلة، قد يعرقل النظم من جديد. في الإجراء

الأخير الذي خضع له، في أبريل من العام 2003، لم تكفِ قلبه صدمة كهربائية واحدة، ما اضطرهم إلى تعريضه إلى صدمتين. الوتيرة المتزايدة التي أصبحت بها عملية الصدمة الكهربائية ضرورة وحاجة منتظمة بالنسبة إليه كانت دلالة على أنها لم تعد نافعة. في يونيو، وبعد سلسلة من الاستشارات، كان عليه أن يخضع إلى إجراء طبي أكثر خطورة في القلب، وهو اقتطاع عقدة التقاء الأذين بالبطين، التي يجب أن يعقبها زراعة منظم نبض القلب Medtronic Kappa 900 SR.

خلال الصيف، عندما كان مأخوذاً بفرحه بزفاف كوينتانا واطمئنانه للنجاح الظاهري لمنظم نبض القلب، بدا كأن مزاجه يتحسن. لكن ما إن جاء الخريف حتى سقط ضحية للاكتئاب من جديد. أذكر شجارنا حول السفر إلى باريس في نوفمبر. كنت معارضة لفكرة السفر. قلت له إن لدينا الكثير من العمل والقليل من المال. أنبأه إحساسه أنه إذا لم يسافر إلى باريس في نوفمبر فإنه لن يرى باريس مرة أخرى. تلك كانت ذريعته التي اعتبرتها نوعاً من الابتزاز حينها. *حُسم النقاش إذاً*، قلت، *سنذهب إلى باريس*. كان جالساً على الطرف الآخر من الطاولة، نهض ومشى خارجاً. ولم يدر بيننا أي حديث ذي معنى لمدة يومين بعد ذلك.

في النهاية ذهبنا إلى باريس في نوفمبر.

أقول لك إنني لن أعيش لأكثر من يومين، يقول جافن في أسطورة الملك آرثر. منذ بضعة أسابيع في مجلس العلاقات الخارجية في سيكستي إيتث أند بارك استرعى انتباهي شخص يجلس على الطرف المقابل لي ويقرأ صحيفة إنترناشيونال هيرالد تريبيون. هذا مثال آخر عن انزلاقي إلى المسار الغلط. شعرت وقتها بأنني لم أعد موجودة في مجلس العلاقات الخارجية في سيكستي إيتث أند بارك، بل جالسة قبالة جون على مائدة الفطور في غرفة الطعام في فندق بريستول في باريس في نوفمبر العام 2003. كان كلانا يقرأ صحيفة إنترناشيونال هيرالد تريبيون، نسخة الفندق، مرفقة ببطاقات صغيرة مغروزة فيها تُظهر حال الطقس اليوم.

كل البطاقات المرفقة الخاصة بصباحات نوفمبر كان يظهر عليها رسم لمظلة. مشينا تحت المطر في حديقة اللكسمبورغ. لجأنا إلى كنيسة سان سولبيس. كان ثمة قُداس يُعقد في الكنيسة. تناول جون القربان المقدس. أصبنا بالزكام من السير تحت المطر في حديقة جاردان دو رانيلاه. في رحلة العودة إلى نيويورك كان وشاح جون وقميصي يعبقان برائحة الصوف الرطب. عند الإقلاع أمسك بيدي إلى أن استقرت الطائرة في الجو.

دائماً ما كان يفعل ذلك؟

ألى أين كان يقودني كل هذا؟

في إحدى المجلات رأيت إعلاناً لشركة مايكروسوفت يظهر فيه رصيف محطة مترو بورت دي ليلا في باريس.

في الأمس وجدت في إحدى جيوب سترة غير ملبوسة بطاقة مترو مستعملة من تلك الرحلة إلى باريس في نوفمبر. «وحدهم أتباع الكنيسة الأسقفية يتناولون القربان المقدس»، صحّح لي معلوماتي مرة أخرى أثناء مغادرتنا كنيسة سان سوليبس. أربعون عاماً وهو يصحح لي هذه المعلومة. الأسقفيون «يتناولون» بينما الكاثوليكيون «يتلقّون»، كان هذا يجسّد، شرح لي أكثر من مرة، اختلافاً في المسلك والتوجه.

لا أسأل أين هما الآن، فقد رحلا من سبع سنين،

بل أين ما كانا عليه حينها؟

آخر إجراء لتقويم نظم القلب: أبريل 2003. ذلك الذي احتاج فيه قلبه إلى صدمتين. أتذكر الطبيب وهو يفسر لي لماذا تم الإجراء تحت التخدير العام «لأن المرضى يثبون عن الطاولة من دون تخدير». 30 ديسمبر 2003: تلك الوثبة المفاجئة عندما كان المسعفون يستخدمون جهاز الصدمة الكهربائية على أرضية غرفة الجلوس، أكانت نبضة قلب أم نبضة كهرباء؟

في ليلة رحيله أو في الليلة التي سبقتها، ونحن في سيارة الأجرة في طريقنا من مستشفى بيت إسرائيل نورث إلى شقتنا، قال أشياء عديدة

جعلتني عاجزة لأول مرة عن صرف الاكتئاب عنه، تلك المرحلة العادية في حياة كل كاتب.

قال لي إن كل ما فعله في حياته كان بلا قيمة. لم أكف عن محاولة الخروج به من اكتئابه.

ربما لم يكن هذا شيئاً عادياً، قلت لنفسي، لكن لم يكن ثمة شيء عادي في الوضع الذي تركنا فيه كوينتانا. قال إن الرواية كانت بلا قيمة.

ربما لم يكن هذا شيئاً عادياً. قلت لنفسي، لكن أن يرى أب طفلته على هذه الحال من دون أن يكون بيده حيلة لانتشالها من عذابها ليس أمراً عادياً أيضاً. قال إن مقالته الحالية في نيويورك ريفيو، المراجعة التي كتبها عن كتاب غافين لامبرت الذي يسرد سيرة ناتالي وود، كانت بلا قيمة.

ربما لم يكن هذا عادياً، لكن، هل كان أي شيء في الأيام الماضية عادياً؟

قال إنه لا يعلم ما الذي يفعله هنا في نيويورك. «لماذا أضعت وقتي في كتابة مقالة عن نتالي وود»، قال.

ذاك لم يكن سؤالاً.

«كنتِ محقة بخصوص هاواي»، قال بعد ذلك.

ربما عنى أنني كنت على حق منذ يوم أو يومين عندما قلت له إنه إذا تحسّن حال كوينتانا (كانت تلك تورية عن «إذا بقيَت على قيد الحياة») يجب أن نستأجر منزلاً على شاطئ كايلوا حيث يمكنها أن تتعافى هناك. أو ربما عنى أنني كنت على حق في سبعينيات القرن الماضي عندما أردت أن أشتري منزلاً في هونولولو. فضّلت حينها أن أعتقد أنه كان يعني الأولى لكن الزمن الماضي في عبارته كان يوحي بأنه عنى الثانية. قال تلك الأشياء في سيارة الأجرة التي كانت تقلنا من مستشفى بيت إسرائيل نورث إلى شقتنا قبل ثلاث ساعات أو سبع وعشرين ساعة من موته، حاولت أن أحصر ذهني لأتذكر متى كان ذلك، لكن بلا جدوى.

-7-

لماذا ألح على تفنيد ما كان عادياً وما كان غير عادي في وضع لم يكن فيه شيء عادي؟

دعوني أحاول استعادة الترتيب الزمني للأحداث...

نُقلت كوينتانا إلى وحدة العناية المركزة في مستشفى بيت إسرائيل نورث في 25 ديسمبر 2003.

فارق جون الحياة في 30 ديسمبر 2003. أخبرت كوينتانا عن موته في صباح 15 يناير 2004 في وحدة العناية المركزة في مستشفى بيت إسرائيل نورث بعد أن تمكن الأطباء من إزالة أنبوب التنفس وخفض مستويات الأدوية المخدّرة إلى حد يمكنها معه أن تصحو تدريجياً. لم أكن قد خططت لإخبارها في ذلك اليوم. كان الأطباء قد أخبروني أنها ستصحو على فترات وبشكل جزئي في البداية، وفي غضون الأيام الأولى سيكون بإمكانها أن تستوعب كمّاً محدوداً من المعلومات. فكرت: إن استيقظت ورأتني وحدي ستتساءل أين والدها. بحثنا مطولاً أنا وجيري وتوني عن حل لهذه المعضلة. قررنا في النهاية أنها عندما تستيقظ يجب ألا ترى أمامها سوى جيري. ستنشغل بوجوده، ستركز تفكيرها عليه وعلى مستقبلهما معاً. وقد لا يخطر ببالها السؤال عن والدها. سيكون بإمكاني أن أراها لاحقاً، بعد بضعة أيام ربما. يمكنني أن أخبرها عندئذ. ستكون أقوى حينها.

وكما خططنا، كان جيري في انتظارها عندما أفاقت. وبعكس ما خططنا، أخبرتها إحدى الممرضات أن أمها تنتظر خارجاً في الرواق.

وماذا تنتظر لتدخل، سألت.

دخلت.

«أين أبي؟» سألت بصوت مبحوح أقرب إلى الهمس لدى رؤيتي. بعد ثلاثة أسابيع من وجود أنبوب مغروز في حلقها التهبت حبالها الصوتية وكان صوتها بالكاد مسموعاً. شددت في حديثي على تاريخه الطويل والمؤلم مع المشاكل القلبية والأزمات الصحية التي أضنته في السنوات الأخيرة، والحظ الجيد الذي كان حليفنا لوقت طويل لكنه انقلب ضدنا الآن، والفجيعة المفاجئة في ظاهرها، لكن التي لم يكن منها مناص في النهاية، وحتمية حدوث ما حدث. بكت. احتضناها أنا وجيري. غرقت في النوم من جديد.

«كيف حال أبي؟» همست عندما رأيتها مساء اليوم نفسه.

أعدت الكرّة من جديد. الأزمة القلبية. تاريخه الطويل مع مشاكل القلب. الفجيعة، المفاجأة، الحتمية...

«لكن كيف حاله الآن؟» همست جاهدة لتجعل صوتها المنهَك مسموعاً.

كانت قد استوعبت جزئية الحدث المفاجئ لكن ليس ما نجم عنه.

أخبرتها مرة أخرى. وكان علي أن أعيد الرواية على مسامعها مرة ثالثة في وحدة عناية مركزة أخرى، وذلك في مركز جامعة كاليفورنيا الطبي UCLA في لوس أنجلوس. أما كيف وصلت إلى هناك، فإليكم الترتيب الزمني للأحداث.

في 19 يناير 2004 نُقلت من وحدة العناية المركزة في الدور السادس إلى غرفة في الدور الثاني عشر في مستشفى بيت إسرائيل نورث. في 22 يناير 2004، وهي لا تزال أضعف من أن تقف أو تجلس وحدها من دون مساعدة، وبعد إصابتها بالحمى نتيجة عدوى أصيبت بها في وحدة العناية المركزة، تم إخراجها من مستشفى بيت إسرائيل نورث. أوصلتها إلى السرير في غرفتها القديمة في منزلنا بمساعدة جيري. خرج جيري

ليجلب الأدوية التي وصفها لها الطبيب. نهضت من السرير لتجلب بطانية أخرى من الخزانة فخارت قواها وسقطت على الأرض. لم يكن بوسعي أن أرفعها عن الأرض وحدي فاضطررت إلى طلب المساعدة من أحد العاملين في المبنى لأعيدها إلى سريرها.

في صباح الخامس والعشرين من يناير 2004، وهي لا تزال في المنزل، أفاقت على ألم حاد في صدرها وحمى لا تني تشتد. نُقلت في اليوم نفسه إلى مستشفى مايلستين في كولومبيا برسبيتيريان التابعة لجامعة كولومبيا بعد أن شخصوا إصابتها بجلطة رئوية عند وصولها إلى قسم الطوارئ. نظراً إلى المدة الطويلة التي قضتها بلا حراك في مستشفى بيت إسرائيل نورث، وهذا ما أدركته الآن ولكنني لم أكن أعرفه حينها، فقد كان ذلك تطوراً متوقعاً تماماً ومن الممكن اكتشافه قبل إخراجها من مستشفى بيت إسرائيل عبر الصورة نفسها التي أخذت لها بعد ذلك بثلاثة أيام في قسم طوارئ مستشفى كولومبيا برسبيتيريان. بعد دخولها مستشفى مايلستين أُخذت صورة أخرى لساقيها لمعرفة ما إذا كانت جلطات أخرى قد تشكلت. أعطوها مضادات تخثر للحؤول دون تشكل المزيد من هذه الجلطات في الوقت الذي يتم فيه تمييع تلك التي تشكلت.

في الثالث من فبراير 2004، خرجت من مستشفى برسبيتيريان، وهي ما تزال تتعاطى مضادات التخثر. بدأت بعد ذلك بتلقي علاج فيزيائي لتستعيد قوتها وقدرتها على الحركة. قمنا أنا وهي بالتخطيط لمراسم دفن جون بمساعدة توني ونِك. أقيمت المراسم عند الساعة الرابعة من مساء يوم الثلاثاء الموافق 23 مارس 2004 في كاتدرائية القديس جون، حيث تم إيداع رماد جثة جون كما كان مخططاً في المعبد الواقع أمام المذبح الرئيسي عند الساعة الثالثة، وبحضور العائلة. بعد إتمام المراسم قام نِك بتنظيم تجمّع عائلي في نادي يونيون كلاب. وعاد بعده ثلاثون أو أربعون شخصاً من أفراد العائلة إلى المنزل معنا. أشعلت النيران في الموقد. احتسينا بعض كؤوس الشراب. تناولنا العشاء. كوينتانا، وعلى الرغم من

أنها لا تزال ضعيفة ولم تسترد عافيتها بعد، كانت قد وقفت في الكنيسة بثبات مزدانة بثوبها الأسود، وجلست تتبادل الحديث والضحكات مع أقاربها على العشاء. في صباح الخامس والعشرين من مارس، بعد ذلك بيوم ونصف اليوم، كانت هي وجيري على أهبة استئناف حياتهما بالسفر إلى كاليفورنيا والاستجمام على شاطئ ماليبو لبضعة أيام. كنت أنا من شجعهما على ذلك. أردت أن أرى انعكاس ألوان ماليبو على وجهها وشعرها من جديد.

في اليوم التالي، الموافق 24 مارس، وأنا وحيدة في المنزل، وبعد أن أديت واجبي في دفن زوجي وتأكدت من أن ابنتي قد تجاوزت أزمتها، أعدت الأطباق إلى مكانها وسمحت لنفسي لأول مرة بالتفكير في ما يلزمني لأستأنف حياتي. اتصلت بكوينتانا لأتمنى لها رحلة موفقة. كانت مسافرة في وقت مبكر من صباح اليوم التالي. بدا من صوتها أنها متوترة. دائماً ما كانت تتوتر قبل السفر. القرارات المتعلقة بما عليها أن تحزمه من أمتعة بدت منذ أيام الطفولة وكأنها تطلق في داخلها رعباً من قلة التنظيم. *هل تعتقدين أنني سأكون على ما يرام في كاليفورنيا*؟ سألتني. أجبتها بنعم. لا شك في أنها ستكون على ما يرام في كاليفورنيا. السفر إلى كاليفورنيا كان في الواقع سيسجل اليوم الأول من حياتها القادمة. بعد أن أنهيت المكالمة معها خطر لي أن تنظيف مكتبي سيكون الخطوة الأولى التي ستأخذني إلى اليوم الأول من حياتي القادمة. شرعت بذلك. أمضيت معظم اليوم التالي، الخامس والعشرين من مارس، في تنظيف المكتب. خلال أوقات معينة من ذلك اليوم البطيء وجدت نفسي أفكر في أنني قد أكون دخلت فصلاً جديداً من العام. كنت في يناير قد شاهدت قطع الجليد العائمة وهي تتشكل في نهر إيست ريفير من نافذة مستشفى بيت إسرائيل نورث. في فبراير كنت قد شاهدت قطعاً جليدية عائمة تذوب وتتبدد في نهر هدسون من نافذة مستشفى كولومبيا برسبيتيريان. وها نحن الآن في مارس والجليد قد اختفى وتلاشى، وأنا قمت بكل

واجباتي تجاه جون، وكوينتانا ستعود من كاليفورنيا مستعيدة صحتها وتوازنها. مع تقدم المساء (ستكون طائرتها قد حطت الآن، وهي قد استقلت سيارة تنطلق بها على طريق باسيفيك كوست السريع) تخيلتها وهي تتمشى على الشاطئ بصحبة جيري تحت أشعة شمس ماليبو الرقيقة. أدخلت رمز منطقة ماليبو، 90265، في موقع AccuWeather. كان الطقس هناك مشمساً، لا أذكر ما إذا كانت الشمس قوية أم لطيفة، لكنني أذكر جيداً أنه كان يوماً رائعاً ورائقاً في ماليبو.

ستكون نباتات الخردل البري قد نمت على التلال. سيكون بإمكانها أن تصحب جيري لرؤية أزهار السحلبية في زوما كانيون. ستصحبه لتناول السمك المقلي على ساحل فينتشورا كاونتي.

كانت قد خططت لتصحبه إلى تناول الغداء في منزل جين مور. ستصحبه إلى الأماكن التي احتضنت طفولتها. يمكنها أن تريه المكان الذي كنا نجمع فيه المحار من أجل غداء الفصح. يمكنها أن تريه تلك البقعة التي كانت الفراشات تحلّق فيها، وذلك المكان الذي تعلمت فيه لعب التنس، وحيث تعلمت السباحة عكس التيار على يد منقذي شاطئ زوما. على الطاولة في مكتبي صورة التقطت لها عندما كانت في السابعة أو الثامنة من عمرها، كان شعرها طويلاً ولونه مائلاً إلى الأشقر من تأثير شمس ماليبو. في خلفية إطار الصورة غُرزت قصاصة من الورق تحمل عبارة كُتبت بقلم التلوين، وكانت قد تُركت ذات يوم على نضد المطبخ في ماليبو: حبيبتي ماما، *عندما فتحتِ الباب كنت أنا من فر بعيداً... قبلاتي، كوينتانا.*

في الساعة السابعة وعشر دقائق من مساء ذلك اليوم كنت أبدل ملابسي استعداداً للخروج لتناول العشاء مع أصدقاء لي يقطنون المبنى. أقول «في الساعة السابعة وعشر دقائق» لأنه الوقت الذي رن فيه جرس الهاتف. كان اتصالاً من توني. قال لي انه آتٍ لزيارتي الآن. تذكرت الوقت لأن موعدي كان عند السابعة والنصف لكن الإلحاح الذي

تحدث به توني كان من الشدة بحيث لم أتمكن من أن أخبره بذلك. كانت زوجته، روزميري بريسلين، تعاني من اضطراب دموي مجهول المنشأ. ومنذ وقت قصير بعد موت جون كانت قد خضعت لعلاج تجريبي تركها ضعيفة وخائرة القوى بصورة متزايدة، ما جعلها تُنقل إلى مركز ميموريال سلون كيتيرينغ بشكل دوري. علمت أن ذلك اليوم الطويل الذي أمضته معنا في الكاتدرائية، وبعد ذلك في منزلنا، كان شاقاً بالنسبة إليها. بينما كان علي وشك أن ينهي المكالمة أوقفته. سألته إذا كانت روزميري قد نُقلت إلى المستشفى من جديد. قال لي إن الأمر لا يتعلق بروزميري. إنها كوينتانا، التي كانت أثناء حديثنا، في السابعة وعشر دقائق بتوقيت نيويورك والرابعة وعشر دقائق بتوقيت كاليفورنيا، تخضع لعملية جراحية طارئة في قسم المخ والأعصاب في مركز UCLA الطبي في لوس أنجلوس.

-8-

غادرا الطائرة.

استلما الحقيبة التي وضعا فيها أمتعتهما معاً.

حمل جيري الحقيبة ومشى عبر ممر الواصلين أمام كويتتانا التي كانت تتبعه إلى كشك استئجار السيارات. نظر إلى الخلف، ولا أعلم إلى الآن ما الذي جعله ينظر، ولم يخطر ببالي أن أسأل قط. أتصورها كواحدة من تلك الحالات التي تكون فيها تصغي إلى شخص يتحدث من دون أن تنظر إليه ويتوقف فجأة عن الحديث، فتنظر إليه بصورة لا إرادية. *تتبدل الحياة في لحظة ... تلك اللحظة الاعتيادية*. كانت مستلقية على ظهرها فوق الأسفلت. استدعوا سيارة إسعاف ونُقلت إلى مركز UCLA الطبي. وفقاً لجيري كانت صاحية وواعية لكل شيء حولها في سيارة الإسعاف. لم تبدأ بالتشنج وفقدان الوعي وتناسق الحركة إلا بعد وصولها إلى قسم الطوارئ. وُضع فريق الجراحة في حالة تأهب. أجروا لها صورة مقطعية. بحلول الوقت الذي نُقلت فيه إلى قسم الجراحة كانت إحدى حدقتيها قد توسعت، أما الثانية فقد توسعت أثناء نقلها إلى قسم الجراحة. رُويت لي هذه الحادثة أكثر من مرة، وكانت في كل مرة تروى لي كدليل على خطورة الوضع والطبيعة الحرجة للتدخل الجراحي: «إحدى حدقتي عينيها كانت قد توسعت، أما الأخرى فقد توسعت أثناء نقلها على الحداجة».

عندما رُويت لي هذه الواقعة للمرة الأولى لم أكن مدركة لحساسية

الأمر. لكنني أدركت ذلك في المرة الثانية. في كتابه *How We Die* «كيف نموت» يصف شيروين بي نولاند[1] مشاهداته كطالب طب في السنة الثالثة لأحد مرضى القلب الذي «تجمدت حدقتا عينيه وتوسع سواد القزحية فيهما وهو ما يشير إلى موت الدماغ، وكان واضحاً أنهما ما كانتا لتستجيبا إلى الضوء». في الكتاب نفسه يصف نولاند المحاولات الفاشلة التي يقوم بها طاقم الإنعاش القلبي الرئوي لإعادة مريض توقف قلبه في المستشفى إلى الحياة «يرى فريق الشابات والشباب حدقتي عينَي المريض تصبحان خاملتين ولا تستجيبان إلى الضوء وتتوسع القزحيتان إلى أن تصبحا حلقتين ميتتين من السواد المنيع. يعصف التردّد بأعضاء الفريق، فيتوقّفون مجبرين عن المحاولة ويسلّمون بالأمر الواقع... أنقاض المحاولة الفاشلة تملأ غرفة العمليات، وأصداء الهزيمة تتردد في كل أركانها» أكان هذا ما رآه المسعفون من مستشفى نيويورك برسبيتيريان في عيني جون وهو مستلقٍ على أرضية غرفة الجلوس في 30 ديسمبر 2003؟ أكان هذا ما رآه فريق الجراحة العصبية في مركز UCLA الطبّي في عيني كوينتانا في 25 مارس 2005؟ «سواد منيع؟ دماغ يموت؟ أكان هذا ما اعتقدوه؟ أنظر إلى نسخة من تقرير الأشعة المقطعية الصادر من مركز UCLA الطبّي في ذلك اليوم وهي ما تزال غائبة عن الوعي:

تُظهر الصورة المقطعية ورماً دموياً نصف كروي تحت الجافية مع دلائل على حدوث نزيف حاد. لا يُستبعد احتمال استمرار النزيف. تسبب الورم الدموي بتأثير ملحوظ واسع النطاق على الجانب الأيمن من المخ، ومنطقة تحت المنجل، وانفتاق شصي مبكر، مع انزياح للخط النصفي بمقدار 19 ملم من اليمين إلى اليسار عند مستوى البطين الثالث. البطين الجانبي الأيمن تأثر بشكل كامل والبطين الأيسر الجانبي يُظهر انتفاخاً مبكراً. ثمة انضغاط يتراوح بين المتوسط والبالغ في الدماغ الأوسط وتضرر في المنطقة تحت العنكبوتية. لوحظ ورم سحائي لاحق

1- جرّاح وكاتب أمريكي.

طفيف وأورام خيمية تحت الجافية. لوحظ نزيف متني طفيف، من تأثير رضة على الأغلب، في الفص الأمامي السفلي الوحشي الأيمن. اللوزات المخيخية تتموضع على مستوى الثقبة الكبرى. لا وجود لكسر في الجمجمة. يوجد ورم دموي جداري ضخم في جلدة الرأس.

25 مارس 2004، الساعة السابعة وعشر دقائق مساءً بتوقيت نيويورك.

كانت قد أتت من حيث قال الأطباء «ما زلنا لا نعرف في أي اتجاه تسير الأمور». وها هي الآن قد عادت من حيث أتت.

جلّ ما كنت أعرفه حينها أن كل شيء قد سار في الاتجاه الغلط.

ربما يكونون قد أخبروا جيري الآن، وجيري يحاول استيعاب الصدمة قبل الاتصال بي.

قد تكون في طريقها إلى المشرحة الآن...

وحيدة تستلقي على نقالة لا يصحبها سوى من يدفعها. كنت قد تخيلت المشهد نفسه مع جون.

وصل توني.

أعاد على مسامعي ما قاله لي عبر الهاتف. روى لي كيف تلقى اتصالاً من جيري من مركز UCLA الطبّي أخبره فيه أن كوينتانا قد دخلت غرفة العمليات. كان يمكن الوصول إلى جيري عبر هاتفه المحمول أثناء انتظاره في ردهة المستشفى، التي كانت تُستخدم أيضاً كردهة انتظار لقسم العمليات الجراحية (إدارة مركز UCLA الطبي كانت تبني مستشفى جديداً، فقد كان مبناها الحالي مكتظاً وقديم الطراز.)

اتصلنا بجيري.

أحد الجراحين كان قد خرج للتو ليُطلع جيري على المستجدات. كان الطاقم الذي يجري العملية «واثقاً إلى حد ما» من أن كوينتانا «ستخرج من غرفة العمليات»، على الرغم من أنهم لم يكونوا قادرين على استشراف كيف سيكون وضعها آنذاك.

أذكر أنني اعتبرت ذلك تقدماً وتحسناً في تقييم وضعها: التقرير السابق من الطاقم المشرف على العملية كان يشير إلى أنهم «غير متأكدين أبداً ما إذا كانت ستخرج من غرفة العمليات».

أذكر أنني حاولت كثيراً أن أفهم المقصود من عبارة «ستخرج من غرفة العمليات» لكن من دون طائل. هل كانوا يقصدون أنها ستخرج حية؟ هل كانوا قد ذكروا كلمة «حية» ولم يستطع جيري أن يقولها؟ أذكر تفكيري حينها أنه مهما حدث فهي «ستخرج لا محالة من غرفة العمليات».

ربما كانت الساعة حينها الرابعة والنصف بتوقيت لوس أنجلوس، والسابعة والنصف بتوقيت نيويورك. لم أكن واثقة في ذلك الحين كم مر عليها من وقت داخل غرفة العمليات. أدرك الآن، إذ ذُكر في تقرير الصورة المقطعية أنها قد حدثت في الثالثة وست دقائق في لوس أنجلوس، أنه لم يكن قد مضى على وجودها سوى ما يقارب نصف ساعة. بحثت في دليل OAG لرحلات الطيران لأرى إذا كانت أي شركة تسيّر رحلات في ذلك المساء إلى لوس أنجلوس. كانت ثمة رحلة على متن خطوط شركة دلتا مغادرة من مطار كينيدي عند التاسعة وأربعين دقيقة. كنت على وشك الاتصال بشركة دلتا عندما قال لي توني إنه لا يعتقد أنها فكرة جيدة أن أكون بين السماء والأرض بينما تخضع ابنتي لعملية جراحية.

أذكر كيف أطبق الصمت عليّ حينها.

أذكر كيف وضعت دليل الرحلات الجوية جانباً.

اتصلت بتيم راتن في لوس أنجلوس، وطلبت منه أن يذهب إلى المستشفى ليبقى بصحبة جيري. اتصلت بمدير حساباتنا في لوس أنجلوس جيل فرانك، الذي كانت ابنته قد خضعت لعملية جراحية في المخ في مركز UCLA قبل بضعة أشهر، وهو أيضاً أخبرني أنه سيذهب إلى المستشفى لينضم إلى جيري.

كان وجودهما هناك يجعلني أقرب ما يمكن أن أكون إليها. حضّرت مائدة العشاء في المطبخ. تناولنا أنا وتوني ما بقي من وجبة الدجاج بالنبيذ التي حضّرناها للأقارب على العشاء بعد عودتنا من كاتدرائية القديس جون. وصلت روزميري. جلسنا حول طاولة المطبخ وحاولنا أن نتوصل إلى ما أسميناه «خطة». استخدمنا كلمات من قبيل «الاحتمالات» بصورة عالية الحساسية والمراعاة، وكأن أيًّا من الثلاثة الجالسين حول الطاولة لا يعلم ما الذي تخبئه وراءها كلمة «احتمالات». أذكر اتصالي بإيرل مكغراث لأسأله ما إذا كان بإمكاني أن أستخدم منزله في لوس أنجلوس. أذكر استخدامي عبارة «في حال استدعت الحاجة»، وهي عبارة إنشائية أخرى فيها قدر من المراعاة والحساسية. أذكر كيف قاطعني فوراً وقال لي إنه مسافر غداً إلى لوس أنجلوس على متن الطائرة الخاصة لأحد أصدقائه، وإنه يمكنني السفر معهم. حوالي منتصف الليل اتصل بي جيري وأخبرني أن العملية الجراحية قد أنجزت. سيقومون الآن بأخذ صورة مقطعية أخرى ليروا ما إذا كان هناك نزيف آخر لم يكتشفوه في الصورة السابقة. لو أنهم اكتشفوا وجود نزيف آخر حينها لكانوا سيقومون بإجراء عملية أخرى. وفي حال لم يكتشفوا أي نزيف سيقومون بتركيب شبكة في الوريد الأجوف للحؤول دون تسلل أي جلطات إلى القلب. حوالي الرابعة صباحاً بتوقيت نيويورك اتصل بي مرة أخرى ليخبرني أن الصورة المقطعية لم تظهر أي نزيف، وأنهم قد ركّبوا لها الشبكة. أخبرني ما قاله له الأطباء بخصوص العملية، وأنا قمت بتدوين الملاحظات التالية:

«نزيف شرياني، تدفق دموي شرياني، الدم ينبع كنافورة، الدماء تغطي أرضية غرفة العمليات، لا وجود لعوامل تجلط» «الدماغ مائل إلى الجانب الأيسر».

عندما عدت من لوس أنجلوس إلى نيويورك في وقت متأخر من مساء يوم 30 أبريل وجدت هذه الملاحظات على قائمة التسوق إلى جانب هاتف المطبخ. وقتها فقط عرفت أن الاسم العلمي لعبارة «الدماغ مائل

إلى الجانب الأيسر» هو «انزياح الخط النصفي»، وهو إشارة هامة يمكن اعتبارها دليلاً على أن العملية لم تأتِ بالنتيجة المرجوة، لكنني كنت على علم أن النتيجة لم تكن جيدة قبل حتى أن أعرف ذلك. في ذلك اليوم من شهر مارس كنت بحاجة إلى مياه إيفيان، وبعض الدبس، وحساء دجاج، ووجبة من بزر الكتان... هذا ما كان يعتمل في ذهني وقتها.

اقرأ، تعلّم، حلل الوضع، الجأ إلى الأدب والأدبيات.

المعرفة تمنحك السيطرة.

صباح اليوم التالي بعد إجراء العملية، وقبل أن أذهب إلى مطار تيتيربورو لأستقل الطائرة، بحثت في شبكة الإنترنت عن «حدقتي العين المتوسعتين والجامدتين»، وجدت أنه يُشار إلى ذلك اختصاراً بـFDPs. قرأت خلاصة دراسة أعدها باحثون في قسم الجراحة العصبية في المستشفى الجامعي في بون. تابعت الدراسة حالة 99 مريضاً إما أصيبوا أو طوروا حالة أو حالتين من توسع الحدقتين. كانت نسبة الوفيات بينهم 75 بالمئة. من ضمن الناجين الذين يشكلون نسبة 25 بالمئة ممن بقوا على قيد الحياة، 15 بالمئة صُنفوا بحسب مقياس غلاسغو كـ«غير لائقين»، بينما صُنف العشرة بالمئة الباقين كـ«لائقين»: فسّرت هذه النسب كالتالي: من بين التسعة والتسعين مريضاً أربعة وسبعون فارقوا الحياة. من بين الأربعة والعشرين مريضاً الذين نجوا، بعد مرور عامين، خمسة أصيبوا بشلل تام، وعشرة أصيبوا بحالات عجز شديد، وثمانية كانوا قادرين على الحركة والعيش بشكل مستقل، واثنان فقط تماثلا للشفاء بصورة كاملة. علمت أيضاً أن الحدقتين المتوسعتين والجامدتين تشيران إلى تضرر أو انضغاط العصب الجمجمي الثالث وجذع الدماغ العلوي. «العصب الثالث» و«جذع الدماغ» كانتا عبارتين سأسمعهما أكثر مما أتمنى خلال الأسابيع القادمة.

-9-

أنتِ بأمان، أذكر كيف همست في أذن كوينتانا أول ما رأيتها في وحدة العناية المركزة في مركز UCLA الطبي. *أنا هنا، ستكونين بخير.* كان نصف جمجمتها حليق الشعر من أجل العملية التي أجريت لها. كان بإمكاني رؤية الجرح الطويل والمشابك المعدنية التي تبقيه مغلقاً. ومجدداً لم تكن تستطيع التنفس إلا من خلال أنبوب مقحم في القصبة الهوائية. *أنا هنا. كل شيء على ما يرام.* «متى عليكِ أن تغادري؟» سألتني في اليوم الذي تمكنت فيه من الكلام أخيراً. خرجت الكلمات منها بصعوبة بالغة حتى أن معالم وجهها كانت تتقلص وهي تتلفظ بها.

قلت لها إنني لن أغادر إلا عندما تتعافى ويصبح بمقدورنا الذهاب معاً. انفرجت أساريرها وارتاح وجهها. عادت إلى النوم.

جال في خاطري خلال تلك الأسابيع أن هذا الوعد كان وعدي الأوّل لها في اليوم الذي أحضرناها فيه إلى المنزل من مستشفى القديس جون في سانتا مونيكا. ما كنت لأذهب وأتركها. سأعتني بها. ستكون بخير. لكن كان يخطر لي أيضاً أنه وعد لست قادرة على الوفاء به، فهي لم تعد طفلة. باتت بالغة راشدة. ثمة أشياء تحدث في الحياة ليس بمقدور الأمهات الحؤول دون وقوعها أو إصلاحها. سأموت قبل أن أسمح للموت بأن يأخذها مني، إلا إذا حدث وأدّى ما لم يكن في الحسبان إلى موتها قبل الأوان، كما كاد يحدث في مستشفى بيت إسرائيل، ومن الممكن أن يحدث الآن في مركز UCLA الطبي. أذكر تلك المحادثات في مكتب

المحامي التي كنت قد بدأت خلالها أشعر بالغم يملؤني من وقع عبارة «تموت أولاً»... عبارة كهذه لا يمكن أن تتجسد أبداً. بعد كل حديث من تلك الأحاديث أصبحت أرى عبارة «وحدة المصير في الكارثة» في ضوء جديد وإيجابي. وعلى الرغم من ذلك حدث ذات مرة أثناء رحلة جوية شاقة بين هونولولو ولوس أنجلوس أن تخيلت أحد سيناريوهات «وحدة المصير في الكارثة» ورفضت قبوله. تخيلت أن الطائرة هوت، وبأعجوبة نجونا أنا وهي من حادث التحطم بعد أن سقطنا في المحيط وتشبثنا بحطام الطائرة. أما المعضلة فقد كانت كالتالي: لأنني كنت في فترة الطمث حينها، ومن شأن الدماء التي تتسرب مني أن تجتذب أسماك القرش، كان علي أن أتخلى عنها، وأسبح بعيداً، وأتركها تواجه مصيرها وحيدةً في قلب المحيط.

أيمكنني أن أفعل ذلك؟

أهذا ما يشعر به كل الآباء؟

عندما كانت أمي على وشك الموت وهي في التسعين من عمرها قالت لي إنها كانت مستعدة للموت لكنها لم تستطع إلى ذلك سبيلاً. «أنتِ وجيم بحاجة إلي». قالت لي. وكنا أنا وأخي قد تجاوزنا الستين حينها.

أنتِ بأمان.

أنا هنا.

ثمة أمر كنت قد لاحظته خلال تلك الأسابيع التي قضيتها في مركز UCLA الطبّي، وهو أن معظم الأشخاص الذين عرفتهم، سواء في كاليفورنيا أم نيويورك أم غيرهما من الأماكن، كانت لهم طريقة مشتركة في التفكير خاصة الناجحين منهم... كانوا مؤمنين تماماً بمهاراتهم الإدارية. كانوا يؤمنون تماماً بالقوة التي تمنحهم إياها أرقام الهواتف المخزنة في ذاكرة هواتفهم، والثقة التي يشعرون بها حيال الطبيب الأمثل لهم، والطمأنينة التي يشعرون بها بوجود من يهبهم ما يطلبونه، والنفوذ

الذي يحظون به بوجود الشخص الذي ييسّر لهم أمورهم في وزارة العدل. المهارات الإدارية لهؤلاء الأشخاص كانت في الواقع مذهلة. كانت القوة التي تمنحهم إياها أرقام هواتفهم لا تُضارع. أنا نفسي كنت قد شاطرتهم ذلك الإيمان العميق بقدرتي على التحكم بالأحداث والسيطرة عليها. لو حدث أن اضطرت أمي إلى دخول المستشفى فجأة في تونس، لكان بإمكاني أن أرتب الأمر مع القنصل الأمريكي لكي يؤمّن لها صحفاً باللغة الإنجليزية وأن يضعها على متن إحدى طائرات الخطوط الجوية الفرنسية المسافرة إلى باريس لتلتقي بأخي هناك. لو حدث وعلقت كوينتانا فجأة في مطار نيس لكان بإمكاني أن أنسّق مع أحد موظفي شركة الخطوط البريطانية كي يضعها على إحدى الطائرات المسافرة إلى لندن لتلتقي بقريبتها هناك. لكنني على الرغم من ذلك لطالما أدركت عند مستوى معين، كوني قد ولدت أحمل على كاهلي عقدة خوف لا براء منها، أن بعض الأحداث في الحياة ستبقى خارج حدود قدرتي على السيطرة أو التحكم. بعض الأحداث ستقع شئت أم أبيت. كان هذا أحد تلك الأحداث.

تراك جالساً تتناول العشاء وإذ بالحياة التي تعرفها تنتهي.

كثيرون ممن تحدثت إليهم في الأيام الأولى التي كانت كوينتانا خلالها طريحة الفراش وغائبة عن الوعي في مركز UCLA الطبي بدوا كأنهم متحررون من هذا الخوف. كانت غريزتهم الفطرية تخبرهم أن هذا الحدث يمكن التحكم به وتطويعه. لكي يتمكنوا من التحكم به كانوا يحتاجون إلى المعلومات فقط، إلى معرفة كيف حدث ما حدث فحسب. كانوا يحتاجون إلى أجوبة. كانوا يحتاجون إلى «توقعات».

لم يكن لدي أجوبة.

لم يكن لدي أي توقعات.

لم أكن أعرف كيف حدث ما حدث.

كان هناك احتمالان، وقد اكتشفت بعد ذلك أن كليهما كان غير وارد.

أحد الاحتمالين كان أنها سقطت وسبب لها اصطدامها بالأرض نزيفاً في الدماغ، وذلك بتأثير مضادات التخثر التي أُعطيت لها للحؤول دون إصابتها بالانسداد الوعائي. الاحتمال الثاني هو أن النزيف الدماغي قد حدث قبل أن تسقط وأن النزيف نفسه هو ما تسبب بفقدانها الوعي وسقوطها. الأشخاص الذين يتعاطون مضادات التخثر معرضون للنزيف، ويصابون بالكدمات لدى أدنى صدمة. من الصعب التحكم بمستوى مانع التجلط في الدم، والذي يُقاس برقم يُشار إليه اختصاراً بـ INR، (النسبة المعيارية الدولية). يجب أن يتم إجراء فحص للدم كل بضعة أسابيع، وفي بعض الحالات كل بضعة أيام. ويجب أن تخضع الجرعة لتغييرات متناهية الصغر وبالغة التعقيد. كان المستوى المثالي لمانع التجلط في الدم لدى كوينتانا هو 2.2، بفارق عُشر النقطة زيادة أو نقصاناً. في يوم سفرها إلى لوس أنجلوس صادف أن كان هذا الرقم لديها هو 4، وهو مستوى يمكن أن يحدث عنده النزيف بشكل تلقائي. عندما وصلت إلى لوس أنجلوس وتحدثت إلى رئيس الجراحين، قال لي إنه «متأكد بنسبة مئة بالمئة» من أن صدمة السقوط هي ما قد تسبب بالنزيف. الأطباء الآخرون الذين تحدثت إليهم كانوا أقل تيقناً منه. كان لأحد الأطباء رأي مخالف، وهو أن السفر جواً قد سبّب تغيرات في ثبات الضغط كانت كفيلة بإحداث النزيف.

أذكر إلحاحي على الجرّاح للحصول على إجابات في ما يتعلق بهذه النقطة... ها أنا (من جديد) أحاول أن أتحكم بالموقف، أن أحصل على أجوبة. كنت أتحدث إليه عبر الهاتف المحمول من الفناء الذي أمام مقهى مركز UCLA الطبي. كان المقهى يحمل اسم «كافيه مد»، وتلك كانت زيارتي الأولى إليه والمرة الأولى التي تعرفت فيها إلى أكثر الزبائن تردداً إليه وأشدهم إثارة للانتباه، رجل ضئيل بدأ الصلع يفتك بشعره (افترضت أنه أحد مرضى المصح العصبي النفسي ممن يحظون بميزة التجول خارج حدود المصح.) كان يعاني من وسواس قهري يدفعه إلى

مطاردة إحدى النساء اللواتي يراهن في المقهى، ومضايقتها، والبصق عليها بشكل متكرر، وشتمها بكلمات نابية، ونعتها بالمقرفة، والخسيسة، والحثالة التي لا تساوي شيئاً. في ذلك الصباح بالتحديد اختار ذلك الرجل الآخذ بالصلع أن يطاردني إلى الفناء ما جعل من الصعب علي أن أفهم ما الذي يقوله الجراح. «الصدمة هي ما تسبب بالنزيف، لديها وريد ممزق، لقد رأيناه»، هذا ما اعتقدت أنه قاله. لكن بدا لي أنّ كلامه لم يقدّم جواباً شافياً - وجود وريد ممزق لا يلغي بشكل قاطع احتمال أن يكون تمزق الوريد قد حدث أولاً وتسبب بالسقوط - ولكنني أدركت وأنا في فناء مقهى كافيه ميد والرجل الآخذ بالصلع يشتمني ويبصق على حذائي أن الجواب ما كان ليُحدث أي فرق. ما حدث قد حدث. كانت تلك الحقيقة الجديدة الماثلة أمام عينَي.

خلال الفترة التي استغرقتها هذه المكالمة مع الجرّاح، والتي حدثت في اليوم الأول الذي قضيته كاملاً في لوس أنجلوس، أذكر أنه أخبرني العديد من الأشياء الأخرى.

أذكر قوله لي إن غيبوبتها قد تستمر لأيام وقد تمتد لأسابيع.

أذكر قوله لي إن الأمر سيستغرق 3 أيام على الأقل قبل أن يعرف أحد ما هو وضع دماغها. كان الجرّاح «متفائلاً» لكن لم يكن بالإمكان التكهن بأي شيء. الكثير من الأمور الطارئة قد تحدث في الأيام القليلة القادمة.

قد تصاب بالتهاب.

قد تصاب بذات الرئة.

قد تصاب بانسداد شرياني.

قد تصاب بالمزيد من الأورام، وهو ما سيستدعي إجراء عملية أخرى.

بعد أن أنهيت المكالمة عدت إلى المقهى حيث كان جيري يشرب القهوة بصحبة سوزان تايلور وابنتي أخي كيلي ولوري. تساءلت ما إذا كان علي أن أنقل إليهم تلك المعلومات البائسة التي كان الجراح قد

أغرقني بها بلا هوادة. عندما نظرت إلى وجوههم لم أجد أي سبب يمنعني من ذلك: أربعتهم كانوا في المستشفى قبل أن أصل إلى لوس أنجلوس. أربعتهم كانوا قد سمعوا قبلي بمثل تلك المعلومات البائسة.

خلال ليالي ديسمبر ويناير الأربع والعشرين التي قضتها كوينتانا في وحدة العناية المركزة في الدور السادس من مستشفى بيت إسرائيل نورث كنت قد احتفظت على طاولة بقرب سريري بنسخة ذات غلاف ورقي من كتاب *Intensive Care: A Doctor's Journal* «العناية المركزة: يوميات طبيب» من تأليف الدكتور جون إف موراي، الذي شغل منصب رئيس قسم أمراض الرئة والحالات الحرجة في كلية الطب في جامعة كاليفورنيا في سان فرنسيسكو. يسرد كتاب العناية المركزة، يوماً بيوم وبشكل مفصل، تجربة الدكتور موراي التي امتدت أربعة أسابيع في وحدة العناية المركزة في مستشفى سان فرنسيسكو العام حين كان يشغل منصب الطبيب المعالج المسؤول عن المرضى، والمقيمين، والمتدربين، وطلاب الطب. كنت قد قرأت هذا الكتاب أكثر من مرة، وحصلت منه على الكثير من المعلومات التي كانت مفيدة لي في تقييم سلوكي اليومي في التعامل مع أطباء وحدة العناية المركزة في مستشفى بيت إسرائيل نورث. تعلمت منه على سبيل المثال أنه من الصعب تحديد الوقت المناسب لنزع أنبوب التنفس المقحم داخل القصبة الهوائية. وقد علمت منه أيضاً أن من العقبات الشائعة التي تحول دون نزع الأنبوب هي حدوث وذمة، وهي من الحالات الشائعة التي تواجه الأطباء في وحدات العناية المركزة. تعلمت أيضاً أن هذه الوذمة كانت نتيجة الإفراط في إدخال السوائل عبر الوريد، أو الفشل في ملاحظة الفرق بين الترطيب وفرط السوائل ، أي الخطأ في التقدير واتخاذ الاحتياطات اللازمة أكثر منه نتيجة حالة مرضية كامنة. تعلمت أيضاً أن العديد من الأطباء المقيمين الأغرار يرتكبون الخطأ نفسه في التقدير وأخذ الاحتياطات اللازمة عند نزع الأنبوب: لأن النتيجة غير مضمونة، يميلون دائماً إلى تأجيل الإجراء لوقت أطول من اللازم.

كنت قد دوّنت كل هذه الدروس. وجعلتها نافعة لي: ما هو أول سؤال يُطرَح، وما هي الأمنية المعبّر عنها هناك. كنت قد «تساءلت» إذا كانت تعاني من «احتباس السوائل». («بالطبع لم أكن أعرف. كنت أعرف فقط ما كان مظهرها يوحي به.») استخدمت كلمة «احتباس السوائل» عمداً. لاحظت نوعاً من التصلب والتعنت عند استخدام كلمة «وذمة». تساءلت أيضاً إذا كان وارداً أن تتنفس بشكل أفضل لو كان مستوى «احتباس السوائل» عندها أقل. (بالطبع لست طبيبة، لكن بدا لي هذا منطقياً.) «تساءلت» مرة أخرى ما إذا كان منحها مدراً للبول تحت المراقبة قد يسهل عملية نزع الأنبوب، («طبعاً هذا علاج منزلي بدائي، ولكنني لو شعرت كما بدا أنها تشعر لكنت تناولت بعض اللاسيكس»[1]) باتخاذي كتاب «العناية المركزة» كدليل ومرشد لي، بدا لي هذا حلاً صرفاً وبسيطاً وعفوياً. كانت ثمة طريقة لمعرفة ما إذا كنت قد حققت أي تقدم... تعلم أنك قد حققت تقدماً عندما يقوم الطبيب الذي عرضت عليه اقتراحاً ما بتقديمه في اليوم التالي كخطة هو من أتى بها.

كان هذا شيئاً مختلفاً. خطرت ببالي عبارة تهكمية خلال تضارب الأفكار والإرادات في ما يتعلق بمسألة الوذمة في مستشفى بيت إسرائيل نورث: *أهي عملية جراحية في الدماغ!؟* إلا أنها كانت كذلك. عندما قال لي الأطباء في مركز UCLA الطبي «فص جداري» و«فص صدغي» لم يكن لدي أدنى فكرة عن أي منطقة في الدماغ يتحدثون، ناهيك عما كانوا يعنونه. ظننت أن بإمكاني أن أفهم عبارة «الفص الجبهي الأيمن». ظننت أن كلمة Occipital «العظم القذالي» لها علاقة بالعين، لكن فقط من خلال الاستدلال ووقع الكلمة الذي يفتقد إلى الإقناع كون الكلمة تبدأ بحرفي «oc» مثل ocular «بصري». ذهبت إلى متجر الكتب التابع لمركز UCLA الطبي. ابتعت كتاباً يوصَف، كما كُتب على غلافه، بأنه «لمحة موجزة عن التشريح العصبي وتضميناته الوظيفية والسريرية»

1- يستخدم لعلاج تجمع السوائل (الوذمة) المرتبط بقصور القلب الاحتقاني.

بالإضافة إلى أنه يُعتبر «مراجعة مميزة لقوانين هيئة التراخيص الطبية في الولايات المتحدة الأمريكية». وهو كتاب من تأليف الدكتور ستيفين جي واكسمان، رئيس القسم العصبي في جامعة ييل في نيوهيفين، وكان يُدعى *Clinical Neuroanatomy* «التشريح العصبي السريري». نجحت في تصفح حواشي الكتاب، مثل «الحاشية A: الفحص العصبي»، لكن عندما بدأت بقراءة محتوى الكتاب، كان الشيء الوحيد الذي تذكرته هو رحلة قمت بها إلى إندونيسيا حيث شعرت بالضياع نتيجة عدم قدرتي على فهم قواعد البهاسا الإندونيسية، وهي اللغة الرسمية المستخدمة في لافتات الشوارع وواجهات المتاجر ولوحات الإعلانات. سألت أحد العاملين في السفارة الأمريكية عن كيفية التمييز بين الأسماء والأفعال في هذه اللغة. أجابني بأن البهاسا هي لغة يمكن للمفردة نفسها فيها أن تُستخدم كفعل واسم على حد سواء. بدا لي كتاب «التشريح العصبي السريري» وكأنه حالة أخرى من تلك الحالات التي لم أكن قادرة فيها على فهم القواعد الأساسية. وضعته على الطاولة الموجودة إلى جانب سريري في فندق بيفرلي ويلشير حيث بقي على ما هو من دون أن يُمس للأسابيع الخمسة التالية.

عندما كنت أستيقظ في الصباح، وقبل أن يكون عدد اليوم من صحيفة نيويورك تايمز بكلماته المتقاطعة المغوية قد وصل، كنت أقرأ بعضاً من صفحات كتاب «التشريح العصبي السريري»، لأكتشف أنه حتى «الحاشية A: الفحص العصبي» بدت مبهمة وعصية على الفهم. استطعت فهم بعض الإرشادات المألوفة والمفهومة فيها، من قبيل (اسأل المريض ما هو اسم رئيس البلاد، اسأل المريض أن يعد بالعكس من المئة بحيث يتم إنقاص سبعة في كل تعداد)، لكن بمرور الأيام بدا كأنني أركز أكثر على ذلك السرد الغامض في الحاشية A الذي يحمل عنوان «قصة الصبي المسربل بالذهب»، التي تصلح لأن تكون اختباراً للذاكرة والإدراك. يمكن أن تُحكى القصة للمريض، يقترح الدكتور واكسمان،

ومن ثم يُطلب منه أن يرويها بمفرداته الخاصة وأن يفسّر معناها. «في حفل تتويج أحد الباباوات، منذ حوالي 300 عام، وقع الاختيار على صبي صغير ليلعب دور الملاك».

هكذا تبدأ «قصة الصبي المسربل بالذهب».

عند هذا الحد تكون القصة واضحة في تفاصيلها، بالرغم من بعض الجزئيات التي لها أن تكون مربكة بالنسبة إلى شخص خارج لتوه من غيبوبة (منذ 300 عام؟ طفل يلعب دور ملاك؟)

تتواصل الحكاية: «ولكي يكون مظهر الصبي بهياً إلى أقصى حد ممكن، سُربل من رأسه إلى قدميه بغلاف من أوراق الذهب. مرض الصبي، وبالرغم من أنهم لم يتركوا شيئاً إلا وفعلوه لعلاجه، باستثناء إزالة طبقة الذهب القاتل التي تغطيه، إلا أنه مات بعد بضع ساعات».

ما هو «المغزى» من «حكاية الصبي المسربل بالذهب»؟ هل ترمز إلى أن الباباوات غير معصومين عن الخطأ؟ أم إلى أن السلطة غير معصومة عن الخطأ؟ أم أنها تشير إلى أنه لا عصمة للطب؟ (لاحظوا أنهم «لم يتركوا شيئاً إلا وفعلوه لعلاجه.») هل من فائدة تُرجى من رواية هذه القصة لمريض عاجز عن الحركة في وحدة العناية المركزة في قسم الأمراض العصبية التابع لأحد المستشفيات التعليمية الكبرى؟ ما هو الدرس المستخلص منها؟ هل يظنون أنه كونها مجرد «قصة» يمكن أن تُروى من دون عواقب؟ في أحد الصباحات بدا كأن «قصة الصبي المسربل بالذهب»، بتجاهلها الواضح لحساسية وضع المريض واستعصائها على فهمه، تجسد الموقف الذي كنت أواجهه بكل ما فيه. عدت مرة أخرى إلى المكتبة التابعة لمركز UCLA الطبي بحثاً عن مصادر تحتوي على تفسير للقصة، لكنني لم أرَ أي ذكر لقصة «الصبي المسربل بالذهب» في أي من الكتب التي تصفحتها. وبدلاً من متابعة البحث، وبما أن حرارة فترة الظهيرة في لوس أنجلوس كانت في ذلك الوقت تتجاوز السابعة والعشرين درجة مئوية، وكنت قد سافرت

غرباً مصطحبة معي فقط ملابس أواخر الشتاء التي كنت أرتديها في نيويورك، اشتريت عدة أطقم من زي الممرضات الأزرق. عميقة جداً أغوار تلك العزلة التي كنت أغوص فيها لدرجة أنه لم يخطر ببالي فوراً أن ظهور والدة إحدى المريضات في المستشفى مرتدية الزي الأزرق القطني المخصص للممرضات لا يمكن أن يُنظر إليه إلا كانتهاك سافر ومشبوه للحدود.

-10-

تنبّهت للمرة الأولى إلى ما سأعرفه لاحقاً على أنه «أثر الدوامة» في شهر يناير وأنا أشاهد قطع الجليد الطافية على سطح نهر إيست ريفير من نافذة مستشفى بيت إسرائيل نورث. صادف أن كان الخط الذي يلتقي عنده الجدار بالسقف في الغرفة التي كنت أشاهد منها قطع الجليد الطافية مغطى بورق جدران بنقوش أزهار الورد، وكانت لمسة دوروثي درايبر تبدو واضحة فيه، وهي على ما أظن أثر باقٍ من الحقبة التي كان فيها اسم بيت إسرائيل نورث هو «مستشفى الأطباء». لم أكن قد زرت مستشفى الأطباء من قبل، لكن في العشرينيات من عمري عندما كنت أعمل لمصلحة مجلة «فوغ» *Vogue* كان قد ذُكر أمامي عدة مرات، فقد كان المستشفى المفضل للمحررين العاملين في مجلة فوغ بفضل خدماته السريعة وشعور الراحة الذي يحظون به فيه، وكأنهم يعيشون معه نوعاً من الاستجمام الصحّي.

بدا ذلك كأنه نسق تفكير مقبول... أفضل من تفكيري في سبب وجودي في بيت إسرائيل نورث.

غصت أكثر في التفكير على هذا النسق:

مستشفى الأطباء كان ذاك الذي أجرت فيه «فلانة» عملية الإجهاض التي تكفل مكتب المدعي العام بأجورها كاملة. «فلانة» هي امرأة كنت قد عملت معها في مجلة فوغ. سحب من الدخان المغوي وعطر شانيل 5 وكارثة وشيكة ساقتها إلى مكاتب كوندي ناست، التي كانت قائمة حينها في مبنى غراي بار. في صباح أحد الأيام، وبينما كنت أحاول أن

أؤلف تقريراً مطولاً للمجلة يحمل عنوان «حديث الناس»، اكتشفَت أنها بحاجة إلى عملية إجهاض، وفي الوقت نفسه أن اسمها قد ظهر في ملفات استقصاء عملية سرّية خاصة بإحدى فتيات الحفلات وأن مكتب المدعي العام قد وضعها قيد التحقيق. تلقت ذينك الخبرين، اللذين بديا لي «مفجعين تماماً»، ببشاشة وإيجابية. عقدوا معها صفقة. وافقت على أن تشهد أنّه تمّ استدراجها إلى العملية السرية، مقابل أن يتكفل مكتب المدعي العام بإجراء الترتيبات اللازمة لإجراء عملية كشط وتوسيع الرحم، أو D&C كما تُسمى اختصاراً، في مستشفى الأطباء، وهو أمر ليس بالهين في وقت كان فيه إجراء عملية إجهاض يعني عقد موعد سري، وقد يكون قاتلاً، مع شخص أول حل يخطر بباله عند الأزمات هو استئصال المشكلة وأسبابها وكل ما يحيط بها بغض النظر عن الخسائر.

العملية السرية الخاصة بفتاة الحفلات وترتيب عملية الإجهاض والسنوات التي قضيت فيها صباحات كثيرة وأنا أؤلف تقرير «حديث الناس» كانت لا تزال تبدو كأنها نسق تفكير جيد.

أذكر استخدامي لحدث كهذا في روايتي الثانية *Play It As It Lays* «العبها كما يجب». بطلة العمل، وهي عارضة أزياء سابقة اسمها ماريا، كانت قد خضعت لعملية إجهاض منذ وقت ليس ببعيد، ما كان يسبب لها اضطراباً كبيراً.

حدث منذ وقت بعيد أن عملت ماريا لمدة أسبوع في مدينة أوتشو ريوس[1] مع فتاة كانت قد أجرت عملية إجهاض. استطاعت أن تتذكر الفتاة وهي تخبرها عن تجربتها بينما كانتا جالستين أحداهما الأخرى أمام الشلال في انتظار ارتفاع الشمس بما يكفي حسب تقدير المصور لالتقاط الصور. كان ذلك وقتاً عصيباً لمن تريد أن تقوم بإجراء عملية إجهاض، وقد تم اعتقال بعض الأشخاص بسبب ذلك، وبدا أنه لا أحد

1- أوتشو ريوس، وتعني الأنهار الثمانية، هي مدينة صغيرة على الساحل الشمالي لدولة جامايكا.

يريد خوض غمار تلك التجربة. في نهاية الأمر، سألت الفتاة، واسمها سيسي ديلانو، صديقاً لها في مكتب المدعي العام إذا كان على معرفة بأي شخص قادر على أن يساعدها. «مقابل ماذا؟» قال لها، ولاحقاً في اليوم نفسه شهدت الفتاة أمام هيئة محلفين، يرتدي من فيها شريطاً أزرق يمتد من كتفه إلى خصره عابراً صدره، بأنه قد تم الاتصال بها من أجل عملية سرية من طرف فتاة حفلات، وتم إدخالها إلى مستشفى الأطباء لإجراء عملية كشط وتوسيع للرحم وبشكل قانوني، وقد تكفل مكتب المدعي العام بكل تكاليفها وترتيب الإجراءات الخاصة بها.

الطريقة التي روت بها القصة جعلتها تبدو مضحكة في كلتا المرتين، أولاً في ذلك الصباح أمام الشلال، ولاحقاً للمصور وموظف الوكالة الإعلامية ومنسق الأزياء من طرف العميل أثناء تناول العشاء. كانت ماريا تحاول أن تروي ما حدث في حي إنسينو بروح مرحة كما فعلت صديقتها، لكن حالة سيسي ديلانو كانت مختلفة ولا تسري على قصتها. في النهاية كانت مجرد قصة أخرى من قصص نيويورك.

بدا هذا كأنه يجدي نفعاً.

تجنبت التفكير في سبب وجودي في مستشفى بيت إسرائيل نورث لدقيقتين على الأقل.

تابعت التفكير على النسق ذاته... تلك الفترة التي كتبت خلالها «العبها كما يجب». ذلك المنزل القديم والشاسع الذي استأجرناه في فرانكلين أفينيو في هوليوود. الشموع المنذورة على حواف النوافذ الكبيرة في غرفة الجلوس. أعشاب غِراس الليمون والصبار النامية عند باب المطبخ. الجرذان التي كانت تأكل ثمار الأفوكادو. الرواق الظليل الذي كنت أكتب فيه، وأشاهد من نوافذه كوينتانا وهي تركض عبر رذاذ الماء فوق المرج.

أذكر كيف أدركت أنني كنت أُبحر في مياه أكثر خطورة، لكن بدا كأنني قد وصلت إلى نقطة اللارجوع.

عندما كنت أعمل على ذلك الكتاب كانت كوينتانا في الثالثة من عمرها.

كانت كوينتانا في الثالثة من عمرها...

عبارة أثارت الدوامة.

كوينتانا في الثالثة من عمرها... في تلك الليلة التي أقحمت فيها قشور البذور التي جلبتها من الحديقة في أنفها واضطررت إلى أخذها إلى مشفى الأطفال. وصل طبيب الأطفال المتخصص في هذه الحالات مرتدياً ملابس السهرة. في الليلة التالية وضعت أغلفة بذور أخرى في أنفها رغبة منها في تكرار مغامرة الليلة الماضية. *أنا وجون نسير بصحبتها حول البحيرة في حديقة ماك أرثر بارك.* عجوز *يجلس بلا ثبات على مقعد الحديقة. «هذه الطفلة نسخة طبق الأصل عن جنجر روجرز*[1]*»، صاح الرجل العجوز.* أتممت الرواية، وكنت مرتبطة بعقد للبدء بكتابة عمود في مجلة لايف، اصطحبنا كوينتانا إلى هونولولو. اقترحت إدارة لايف أن أعرّف القرّاء بنفسي في العمود الأول، «دعي القرّاء يعرفون من تكونين». قررت أن أكتبه أثناء وجودي في هونولولو، في فندق هاوايان، حيث اعتدنا أن نحجز جناحاً مزوداً بشرفة بالسعر المخصص للعاملين في الصحافة والبالغ 27 دولاراً في الليلة الواحدة. ونحن هناك وقعت مذبحة ماي لاي[2] التي أثارت موجة سخط عالمية. فكرت في العمود الأول. في ضوء هذا الحدث بدا لي أن واجبي يحتّم علي أن أكتب عمودي الأول من سايغون. حدث ذلك في يوم أحد. كانت إدارة لايف قد أعطتني بطاقة دوِّنت عليها أرقام هواتف المحررين والمحامين العاملين معها في مختلف مدن العالم. أخرجت البطاقة واتصلت بمحرري، لودن واينرايت،

1- ممثلة وراقصة أمريكية اشتهرت في أوائل القرن الماضي.

2- مجزرة مي لاي، هي مجزرة وقعت خلال حرب فيتنام على أيادي جنود أمريكيين، وأثارت الصور التي التقطت أثناء المجزرة موجة استنكار عالمية.

لأخبره أنني ذاهبة إلى سايغون. ردّت زوجته على مكالمتي. أخبرتني أنه مشغول الآن وسيعيد الاتصال بي.

«أنا واثق من أنه يشاهد إحدى مباريات الدوري الأمريكي»، قال جون عندما أنهيت المكالمة. «سيتصل بكِ بين الشوطين».

وهذا ما فعله. قال إنه يجب علي أن أبقى حيث كنت وأن أعرّف عن نفسي في العمود الأول، أما في ما يخص مسألة سايغون فقد قال إنه «يتم حالياً تسريح بعض العاملين في المجلة ومنهم من يغادر بإرادته». بدا كأن الموضوع غير مفتوح للنقاش. «الدنيا تغلي الآن ويمكننا أن نضعك في خضمّها»، هذا ما قاله جورج هانت عندما كان لا يزال يشغل منصب مدير التحرير يوم عرض علي فرصة العمل. في الوقت الذي أتممت فيه كتابة «العبها كما يجب» كان قد تقاعد وتم تسريح بعض العاملين في المجلة. «لقد حذرتك!» قال جون، «أخبرتك كيف سيكون الحال في لايف. ألم أقل لك؟ سيكون الوضع أشبه بالموت نقراً وسط سرب من البط».

كنت أسرّح شعر كوينتانا... النسخة طبق الأصل عن جنجر روجرز.

شعرت بأنني تعرضت للخيانة والإهانة. كان عليّ أن أصغي إلى جون.

كتبت العمود وقدمت نفسي للقرّاء وعرّفتهم من أكون. أو هكذا بدا النص في ظاهره. بدت تلك الثمانمئة كلمة كافية ومقبولة بالنظر إلى طبيعة المهمة المنوطة بها، لكن في نهاية الفقرة الثانية كأن ثمة عبارة تتناقض بصورة فاضحة مع أسلوب مجلة لايف، وكانت توحي بأن من كتبها قد تم اختطافه من قِبل سكان الفضاء: «نحن هنا على هذه الجزيرة الواقعة في قلب المحيط الهادئ بدلاً من إتمام إجراءات الطلاق». بعد ذلك بأسبوع صادف أن كنا في نيويورك. «هل كنت تعلم أنها كانت تكتب ذلك؟» الكثير من الأشخاص سألوا جون، لكن بصوت لا يكاد يُسمع.

هل كان يعلم أنني أكتب ذلك؟

هو من قام بتنقيحه.

هو من اصطحب كوينتانا إلى حديقة حيوانات هونولولو لأتمكن من إعادة كتابته.

هو من أوصلني بسيارته إلى مكتب ويسترن يونيون في وسط المدينة لأحفظه وأرسله.

وفي مكتب ويسترن يونيون كان هو من كتب «مع أطيب التمنيات، ديديون» في نهاية النص. قال لي «هذا ما تكتبينه دائماً في نهاية البرقية»، لماذا، سألته. لأن هذا ما تكتبينه في نهاية البرقية، قال.

لاحظوا كيف سحبتني هذه الدوامة وإلى أين قادتني. من ورق جدران دوروثي درايبر في مستشفى بيت إسرائيل نورث إلى كوينتانا في الثالثة من عمرها، لتحط بي في نهاية المطاف عند «كان علي أن أصغي إلى جون».

أخبرتك أنني لن أعيش لأكثر من يومين، يقول جافين.

العودة إلى الوراء هي ما يتيح للحياة أن تطيح بك... أن تسحقك.

تنبّهت في الحال وأنا في لوس أنجلوس إلى أن قدرة هذه المدينة على إثارة دوامات كتلك يمكن الحد منها عبر تجنب التفكير في أي أمكنة يمكنني أن أربطها بكوينتانا أو جون، أو عبر تفادي الذهاب إلى تلك الأماكن. تطلّب مني هذا بعض البراعة. عشنا أنا وجون في مقاطعة لوس أنجلوس من 1964 إلى 1988. بين 1988 وتاريخ موته أمضينا هناك فترات لا بأس بها، أغلبها في فندق بيفرلي ويلشاير، الفندق نفسه الذي أنزل فيه حالياً. ولدت كوينتانا في مقاطعة لوس أنجلوس، في مستشفى القديس جون في سانتا مونيكا. هناك ذهبت إلى المدرسة أيضاً، في ماليبو أولاً، وبعد ذلك في ما كان يُعرف حينها بمدرسة ويستليك للبنات (في السنة التي تلت ذلك أصبحت مدرسة مختلطة وغيرت اسمها إلى هارفارد ويستليك) في هولمبي هيلز.

لأسباب لا تزال غامضة بالنسبة إلي، نادراً ما كان فندق بيفرلي ويلشاير بحد ذاته يثير تلك الدوامة. من الناحية النظرية كانت تلك الروابط التي أحاول تجنبها متغلغلة في ممراته وأروقته. عندما كنا نعيش في ماليبو

ولدينا التزامات واجتماعات في المدينة كنا نصطحب كوينتانا معنا وننزل في بيفرلي ويلشاير. بعد أن انتقلنا إلى نيويورك وكان يتوجب علينا الذهاب إلى لوس أنجلوس من أجل العمل على أحد الأفلام كنا ننزل هناك أيضاً، لبضعة أيام في بعض الأحيان، ولأسابيع متتالية في أحيان أخرى. كنا قد وضعنا جهاز كمبيوتر وطابعة هناك. وكنا نجري بعض الاجتماعات فيه أحياناً. *ماذا لو*، لم يخلُ أي من هذه الاجتماعات من شخص يطلق هذه السؤال الافتراضي. كان بإمكاننا أن نعمل هناك لغاية الثامنة أو التاسعة ليلاً وأن نرسل الصفحات التي أنجزناها إلى المخرج أو المنتج الذي كنا نعمل لمصلحته، لنذهب بعد ذلك لتناول العشاء في أحد المطاعم الصينية التي لا تحتاج إلى حجز مسبق في جادة ميلروز. دائماً ما كنا نذكر ذلك المبنى القديم في أحاديثنا. كنت أعرف النساء المسؤولات عن النظافة، والفتيات العاملات في تقليم الأظافر، والبواب الذي كان يقدم زجاجة الماء لجون لدى عودته من تريضه الصباحي. كنت أحفظ عن ظهر قلب كيف أضع المفتاح في الخزنة وكيف أفتحها وأقفلها وكيف أعدل مرشّ الحمام: كنت على مدى سنوات طويلة قد نزلت في عشرات الغرف المماثلة للغرفة التي أنزل فيها الآن، آخر مرة كانت في العام 2003. كنت وحدي حينها أعمل على إحدى الحملات الترويجية قبل وفاة جون بشهرين. وعلى الرغم من ذلك بدا فندق بيفرلي ويلشاير أثناء وجود كوينتانا في مركز UCLA الطبي المكان الوحيد الذي أكون فيه بمنجى من الذكريات والدوامات... كان المكان الذي ما زال كل شيء فيه على حاله، حيث لا أحد يعلم أو يشير إلى الأحداث التي عصفت بحياتي مؤخراً... المكان الذي أكون فيه الشخص الذي كنته قبل أن يحدث كل ما حدث. *ماذا لو؟!*

خارج نطاق المنطقة الآمنة التي كانت محصورة بفندق بيفرلي ويلشاير، كنت أرسم خطوط سيري، وأبقى متيقظة دائماً.

لم يحدث ولا مرة أن قدت سيارتي إلى ذلك الجزء من برينتوود

حيث كنا نسكن في الفترة الواقعة بين 1978 و1988. عندما اضطررت إلى الذهاب لرؤية طبيب الأمراض الجلدية في سانتا مونيكا وأجبرتني أعمال الترميم والبناء في الشارع على المرور عبر ثلاثة أبنية قريبة من منزلنا في برينتوود، لم أجرؤ على النظر يميناً أو يساراً. لم يحدث ولا مرة خلال الأسابيع الخمسة التي قضيتها هناك أن قدت سيارتي على طريق المحيط الهادئ السريع في اتجاه ماليبو. عندما عرضت علي جين مور استخدام منزلها القائم على جانب طريق المحيط الهادئ السريع، الذي لا يبعد سوى بضعة أمتار عن المنزل الذي سكناه في الفترة الواقعة بين 1971 و1978، اختلقت الكثير من الأعذار لأنزل في فندق بيفرلي ويلشاير... هكذا سيكون بإمكاني أن أتجنب القيادة إلى مركز UCLA الطبي عبر جادة سانسيت. سيكون بإمكاني أن أتجنب المرور بذلك التقاطع عند جادة سانسيت وبيفرلي غلين حيث كنت أنعطف لأسلك الاتجاه المؤدي إلى مدرسة ويستليك للبنات على مدى ست سنوات. سيكون بإمكاني أن أتجنب المرور بأي تقاطع لا أستطيع التكهن بما يخفيه من ذكريات أو السيطرة على نفسي عنده. سيكون بإمكاني أن أتجنب إبقاء مذياع السيارة على المحطات التي اعتدت أن أستمع إليها وأنا أقود، أن أتجنب ضبط المذياع على محطة KRLA، وهي إذاعة محلية تبث على الموجة المتوسطة AM وتدعو نفسها «قلب موسيقى الروك أند رول وروحها»، وكانت لا تزال في أوائل التسعينيات تبث تلك الأغاني التي كانت رائجة في العام 1962. سيكون بإمكاني، إذا ما شعرت بالملل من أغاني الستينيات، أن أتجنب تغيير المحطة إلى محطة الإذاعة المسيحية التي كانت تتلقى طلبات المستمعين.

كنت بدلاً من ذلك أستمع إلى محطة NPR التي تبث برنامجاً صباحياً جاداً اسمه «صباح النخبة» *Morning Becomes Eclectic*. كنت كل صباح أطلب الفطور نفسه في بيفرلي ويلشاير، هويفوس رانشيروز[1]

1- طبق مكسيكي بالبيض يؤكل عادةً على الفطور.

مع بيضة مخفوقة واحدة. كنت كل صباح عندما أغادر الفندق أسلك الطريق نفسه إلى مركز UCLA الطبي: أغادر الفندق، أنعطف يميناً عند جامعة غليندون، ومن ثم يساراً نحو ويستوود، ومن جديد يميناً نحو لو كونت وشمالاً عند تيفرتون. كنت كل صباح أرى اللافتات نفسها تتموج تحت أعمدة النور الموزعة على طول ويلشاير: *مركز UCLA الطبي - الرقم 1 في الجانب الغربي، الرقم 3 في جانب ذا نايشون.* كنت كل صباح أتساءل من منحها هذا التصنيف. لم يحدث قطّ أن استفسرت عن ذلك. كنت كل صباح أدخِل بطاقتي في جهاز فتح البوابة الأوتوماتيكي، وعندما أدخلها بشكل صحيح، أسمع صوت المرأة نفسه يقول: «أهلاً- بكم - في U-C-L-A». كل صباح، في حال وصلت في التوقيت المناسب، كنت أجد موقفاً شاغراً لأركن سيارتي في مستوى البلازا 4 مقابل السياج. في وقت متأخر من كل مساء كنت أقود سيارتي عائدة إلى فندق بيفرلي ويلشاير، أقرأ الرسائل الواردة إلي، وأجيب على بعضها. بعد الأسبوع الأول كان جيري يقطع الأجواء جيئة وذهاباً بين لوس أنجلوس ونيويورك، محاولاً أن يعمل يومين أو ثلاثة على الأقل كل أسبوع، وعندما يكون في نيويورك كنت في نهاية كل يوم أتصل به لأطلعه على المستجدات أو لأخبره عن عدم وجود أي جديد. كنت أستلقي أمام التلفاز وأتابع الأخبار المحلية. كنت أقف في الحمام تحت مرش الماء لعشرين دقيقة وأخرج بعدها لتناول العشاء.

كنت أخرج لتناول العشاء كل ليلة أثناء وجودي في لوس أنجلوس، أحياناً مع أخي وزوجته أثناء وجودهما في المدينة، وفي بعض الأحيان في منزل كوني والد في بيفرلي هيلز حيث ترى الورود وأزهار السلبوت والنيران تضطرم في المواقد، تماماً كما كان الحال طوال السنين التي كنا أنا وجون وكوينتانا نذهب فيها إلى هناك. الآن كانت سوزان ترايلور هناك. ذهبت أيضاً إلى منزل سوزان في هوليوود هيلز. عرفت سوزان منذ أن كانت في الثالثة من عمرها، وعرفت زوجها

جيسي منذ أن كان هو وسوزان وكوينتانا في الصف الرابع في مدرسة بوينت ديوم، وها هما الآن يعتنيان بي. تناولت الطعام في العديد من المطاعم بصحبة الكثير من الأصدقاء. تناولت العشاء مراراً مع أيرل ماكغراث، الذي، بدافع من لطفه الفطري في وضعي البائس ذاك، كان يسألني كل صباح إذا كان لدي ما أفعله في المساء، وفي حال كانت إجابتي ضبابية بأي شكل من الأشكال، كان يرتب دعوة عشاء غير رسمية لشخصين أو ثلاثة أو أربعة في مطعم أورسو أو مورتون أو في منزله في روبيرتسون بوليفارد.

بعد العشاء كنت أستقل سيارة أجرة وأعود إلى الفندق وأتصل بخدمة الغرف لأطلب فطور الصباح التالي، هويفوس رانشيروز. «بيضة مخفوقة واحدة» يعاجلني الصوت على الطرف الآخر من الهاتف.

«تماماً» كنت أقول.

كنت أرسم هذه المساءات بالحرص نفسه الذي كنت أرسم فيه خط سيري كل يوم.

لم أترك لنفسي وقتاً للوقوف عند وعود لم يكن في يدي الوفاء بها.

أنتِ في أمان. أنا هنا.

في اليوم التالي، في أثناء الهمس الذي يسود برنامج «صباح النخبة»، هنأت نفسي.

كان من الممكن أن أتابع القيادة حتّى كليفلاند.

لكن، على الرغم من ذلك...

لا يمكنني أن أحصي الأيام التي كنت أقود فيها سيارتي عاجزة عن رؤية الطريق أمامي من الدموع التي تحتشد فجأة في عينَي.

كانت ذكريات سانتا آنا تهجم علي.

كانت لحظات جاكراندا تحاصرني.

في أحد المساءات كان علي رؤية جيل فرانك في مكتبه في ويلشاير، الذي يقع على بُعد بضعة أبنية شرق فندق بيفرلي ويلشاير. في هذه البقعة

غير المجرَّبة من قبل (لهذه الأسباب كانت البقعة التي أعرفها وآلفها تقع إلى غرب ويلشاير، وليس إلى الشرق منها) وقع نظري في غفلة مني على دار سينما كنت أنا وجون قد شاهدنا فيها فيلم The Graduate في العام 1967. لم يكن ثمة إحساس بعينه خاص باللحظة التي قررنا فيها مشاهدة ذلك الفيلم في 1967. كنت في ساكرامنتو. كان جون قد أقلني من مطار لوس أنجلوس الدولي. بدا الوقت متأخراً جداً على شراء مكونات العشاء ومبكراً جداً على تناوله في أحد المطاعم، ولهذا قررنا الذهاب لمشاهدة فيلم The Graduate ومن بعدها إلى مطعم فراسكاتي. فراسكاتي ما عاد له وجود الآن، أما دار السينما فلا تزال مكانها، وكأنها باقية هناك فقط لتكون فخاً للغافلين عن ذكرياتهم فيها.

كان هناك العديد من الأفخاخ الشبيهة بفخ دار السينما ذاك. في أحد الأيام لاحظت امتداداً مألوفاً للطريق الساحلي السريع في أحد الإعلانات التلفزيونية وأدركت أنه يقع أمام منزل البوابة، ذلك القائم عند الحيد البرتغالي في شبه جزيرة بالوس فيرديس، وهو المنزل الذي كنا أنا وجون قد جلبنا كوينتانا إليه من مستشفى القديس جون.

كان لها من العمر ثلاثة أيام فقط.

وضعنا مهدها قرب شتلة أزهار «الحلوة» في الحديقة المغلقة.

أنتِ بأمان. أنا هنا.

لم يكن المنزل ولا بوابته ظاهرَين في الإعلان، لكن الذكريات هجمت علي دفعة واحدة: خروجي من السيارة على جانب الطريق السريع لأفتح البوابة ويتمكن جون من الدخول بها... مراقبة المد وهو يقترب رويداً رويداً ليغمر سيارة كانت موضوعة على شاطئنا بغرض تصوير إعلان تلفزيوني ويجعلها تطفو فوق مياهه... تعقيم زجاجات الحليب لكوينتانا وديك المصارعة الذي كان يقطن في بيتنا يؤانسني ويتبعني من نافذة إلى أخرى. ديك المصارعة هذا، الذي كان مالك المنزل قد أسماه «باك»، كان قد تُرك على الطريق السريع من قبل «بعض

المكسيكيين الهاربين»، بحسب تعبير مالك منزلنا العنصري. المدهش في الأمر أن «باك» كانت له شخصية محببة ومميزة، لا تختلف كثيراً عن شخصية كلب اللابرادور. بالإضافة إلى الديك «باك»، كان يقطن المنزل أيضاً بعض الطواويس المزدانة بألوانها الرائعة لكنها كانت عديمة الشخصية بصورة مضجرة. بعكس «باك» كانت الطواويس بدينة ولا تتحرك إلا عند الضرورة القصوى. عند الغسق كانت تبدأ بالزقاء[1] وتحاول التحليق إلى أعشاشها في أشجار الزيتون. كانت تلك لحظات مشحونة وحزينة لأنها غالباً ما كانت تسقط وتفشل في محاولاتها. وقبل أن ينبلج الفجر بدقائق كانت تبدأ بالزقاء أيضاً. استيقظت في فجر أحد الأيام على أصواتها ولم أجد جون قربي، فخرجت أبحث عنه. رأيته واقفاً في الظلام يقطف ثمار الدراق غير الناضجة من إحدى الأشجار ويرمي بها الطواويس، حل مباشر بصورة مميزة، وإن كان بلا طائل، للتخلص من هذا الإزعاج. عندما أكملت كوينتانا شهرها الأول طُلب منّا إخلاء المنزل. كان ثمة بند في عقد الإيجار ينص على أنه لا يُسمح لنا بتربية أطفال فيه أثناء فترة استئجارنا له، لكن المالك وزوجته أكدا لنا أن السبب لم يكن الطفلة. السبب كان توظيفنا فتاة جميلة في سن المراهقة اسمها جنيفر للاعتناء بها. لم يرغب المالك وزوجته في وجود غرباء في عقارهما، أو «خلف البوابة» على حد تعبيرهما، وخاصة المراهقات الجميلات اللواتي يحملن اسم جنيفر، واللواتي من المحتمل بصورة كبيرة أن يبدأن بمواعدة الفتيان «خلف البوابة». استأجرنا منزلاً في البلدة تعود ملكيته إلى أرملة هيرمان جي مانكيويتز[2]، سارة، التي كانت مسافرة وقتها لبضعة أشهر. تركت كل شيء في المنزل على حاله ما عدا غرضاً واحداً فقط، جائزة الأوسكار التي حصل عليها هيرمان جي مانكيويتز عن نص فيلم *Citizen Kane*. *«ستقيمون حفلات في المنزل، والزوار*

1- صوت الطاووس.

2- كاتب سيناريو، ومنتج أفلام، وصحفي أمريكي.

سيسكرون ويلهون بها»، قالت لنا وهي تضعها في مكان آمن. في يوم انتقالنا إلى المسكن الجديد كان جون مسافراً مع فريق نادي سان فرنسيسكو جيانتس ليكتب مقالة عن «ويلي ميس[1]» لمجلة ذا ساترداي إيفينينغ بوست. استعرت سيارة سِلفتي من طراز ستيشن، حمّلت أغراضنا فيها، وضعت كوينتانا وجنيفر في المقعد الخلفي، ودعت «باك»، قدت السيارة إلى خارج العقار، وتركت البوابة التي يعيش وراءها ذلك العالم الطوطمي الخارق تُغلق خلفي للمرة الأخيرة.

حدث كل هذا من دون حتى أن أقود سيارتي إلى هناك.

جل ما فعلته كان نظرة خاطفة إلى إعلان تلفزيوني بينما كنت أرتدي ثيابي للذهاب إلى المستشفى.

في يوم آخر كنت بحاجة إلى شراء مياه معبّأة في صيدلية رايت أيد عند كانون درايف وتذكرت أن مطعم بيسترو كان موجوداً هناك أيضاً. في 1964 و1965، حين كنا نعيش في منزل البوابة بصحبة الشاطئ والطواويس، ولكن لم يكن بمقدورنا حينها حتى أن نعطي فتيان ركن السيارات في موقف المطاعم إكرامية، ناهيك طبعاً عن تناول الطعام فيها، اعتدنا أنا وجون أن نركن سيارتنا إلى جانب الشارع عند كانون درايف وأن نتناول الطعام في بيسترو. اصطحبنا كوينتانا إلى هناك في يوم تبنيها، عندما لم تكن قد بلغت بعد شهرها السابع. منحونا الركن الخاص بمحامي رجال الأعمال سيدني كورشاك ووضعوا حمالتها وسط الطاولة وكأنها مزهرية. في قاعة المحكمة ذلك الصباح، كانت الرضيعة الوحيدة، بل الطفلة الوحيدة التي يتم تبنيها، جميع حالات التبني الأخرى في ذلك اليوم كانت لأشخاص بالغين يتبنون بعضهم بعضاً لأسباب تتعلق بالضرائب. «*Qué bonita, qué hermosa*»، «كم هي جميلة، كم هي حلوة»، بدأ النُدل والعاملون في المطعم يهتفون عندما

1- لاعب بيسبول أمريكي محترف، قضى معظم حياته مع فريق نيويورك وسان فرنسيسكو جايتنس قبل أن ينهي مسيرته في فريق نيويورك ميتس.

جلبناها معنا لتناول الغداء. عندما بلغت السادسة أو السابعة من عمرها اصطحبناها إلى هناك لنتناول معاً عشاء عيد ميلادها. كانت ترتدي رداء روانا لونه أخضر ليموني كنت قد اشتريته لها من بوغوتا. ونحن على وشك المغادرة جلب النادل رداء الروانا ورماه على كتفيها الصغيرتين بحركة مسرحية.

«كم هي جميلة، كم هي حلوة»، كوينتانا... النسخة طبق الأصل عن جنجر روجرز.

كنا أنا وجون قد سافرنا معاً إلى بوغوتا. يومها فررنا من مهرجان سينمائي في كارتاهينا واستقللنا إحدى طائرات شركة أفيانكا للخطوط الجوية المغادرة إلى بوغوتا. أحد الممثلين الذين كانوا حاضرين في المهرجان، وهو جورج مونتغمري، كان معنا على متن الطائرة نفسها المتوجهة إلى بوغوتا. مضى إلى قمرة القيادة. من المقعد الذي أجلس فيه استطعت رؤيته وهو يتحدث إلى طاقم الطائرة، لينسل بعد ذلك إلى مقعد كابتن الطائرة.

لكزت جون الذي كان نائماً. «إنهم يسمحون لجورج مونتغمري بقيادة الطائرة فوق جبال الأنديز» همست له.

«هذا مسلٍ أكثر من مهرجان كارتاهينا»، قال جون وعاد إلى النوم.

في ذلك اليوم لم أمضِ أبعد من رايت أيد عند كانون درايف.

-11-

ذات مرة خلال شهر يونيو، وبعد أن غادرَت مركز UCLA الطبي وكانت في الأسبوع الخامس مما سيصبح خمسة عشر أسبوعاً ستقضيها كمريض مقيم في معهد راسك لطب التأهيل في مركز جامعة نيويورك الطبي في مدينة نيويورك، أخبرتني كوينتانا أن ذكرياتها، ليس فقط عن مركز UCLA الطبي، بل حتى بعد وصولها إلى معهد راسك كانت «*موشوشة تماماً*». صحيح أنه كان بإمكانها أن تتذكر بعض الأشياء عن مركز UCLA الطبي، لكن ما كان باستطاعتها قط أن تتذكر أي شيء مما حدث قبل عيد الميلاد (لم تذكر مثلاً ما قالته عن مناقب والدها في الكلمة التي ألقتها في كاتدرائية القديس جون، كما لم تذكر قط تلقيها خبر موت والدها حالما أفاقت من غيبوبتها)، لأنها كانت لا تزال «موشوشة». لاحقاً استدركت ذلك وصححتها إلى «مشوشة» على الرغم من أنها لم تكن بحاجة إلى ذلك... كنت أدرك تماماً ما تعنيه. في الأدوار الخاصة بأمراض الجهاز العصبي كانوا يصفون هذه الحالة بالـ «ضبابية»، كما في قولهم «ذاكرتها تتحسن لكنها لا تزال ضبابية». عندما أحاول إعادة بناء أحداث تلك الأسابيع في مركز UCLA الطبي أدرك أن ذاكرتي أنا نفسي كانت تعاني من شيء من «*التوشوش*». ثمة أجزاء من اليوم كانت تبدو واضحة جداً وأخرى مبهمة تماماً. على سبيل المثال، أذكر جيداً ذلك الجدال الذي دار بيني وبين أحد الأطباء في اليوم الذي قرروا فيه إجراء

عملية فغر الرغامى[1]. في ذلك الوقت كان قد مضى أسبوع تقريباً على إدخال الأنبوب في قصبتها الهوائية، قال الطبيب إن مركز UCLA الطبي لا يسمح ببقاء الأنبوب في قصبة المريض الهوائية لأكثر من أسبوع. قلت له إنها قد بقيت كذلك لثلاثة أسابيع في مستشفى بيت إسرائيل في نيويورك. أشاح بوجهه بعيداً. «العرف في مستشفى جامعة ديوك ينص على بقاء الأنبوب لأسبوع واحد فقط أيضاً»، قالها بنبرة من يسكنه الانطباع بأن ذكر كلمة «ديوك» سيحل الخلاف وينهي الجدال. لكنه بدلاً من ذلك فاقم غضبي: مالي أنا ومال «ديوك»؟ أردت أن أقول لكنني أحجمت. ديوك في كارولينا الشمالية، ومركز UCLA في كاليفورنيا. لو أردت أن أعرف رأي شخص من كارولينا الشمالية لكنت اتصلت بشخص ما في كارولينا الشمالية.

زوجها الآن على متن إحدى الطائرات المتوجهة إلى نيويورك، قلت بدلاً من ذلك. *بالتأكيد يمكننا أن ننتظر وصوله قبل القيام بهذا الإجراء.*

في الواقع لا، قال الطبيب. *خصوصاً أن الإجراء قد تمت جدولته مسبقاً.*

اليوم الذي قرروا فيه إجراء عملية فغر الرغامى كان اليوم نفسه الذي أطفأوا فيه جهاز تخطيط أمواج الدماغ.

«كل شيء على ما يرام». ما انفكوا يرددون هذه العبارة. «ستتحسن حالتها بمجرد أن نقوم بنزع الأنبوب. ولقد أزلنا جهاز تخطيط أمواج الدماغ، ربما لم تلاحظي ذلك».

لم ألاحظ ذلك؟

ابنتي الوحيدة وربما لم ألاحظ ذلك؟

ابنتي الوحيدة التي ترقد فاقدةً وعيها الآن؟

1- فغر الرغامى هي عملية يتم فيها إحداث فتحة في القصبة الهوائية في مقدمة العنق لتمكين دخول الهواء إلى مجرى التنفس.

ربما لم ألاحظ أيضاً عندما دخلتُ وحدة العناية المركزة في ذلك الصباح أن موجات دماغها قد اختفت عن شاشة جهاز التخطيط؟ أن الشاشة فوق رأسها كانت مظلمة تماماً... أكانت ميتة مثلاً ولم ألاحظ ذلك؟

أخبروني ذلك وكأن هذه التطورات تعكس تحسناً في وضعها الآن، لكن لم يبدُ الأمر كذلك أول ما رأيتها. تذكرت أنني قد قرأت في كتاب «العناية المركزة» أن الممرضين في وحدة العناية المركزة يطفئون أجهزة المراقبة عندما يكون المريض على وشك الموت، فقد علمتهم التجربة أن أهل المريض يركزون حينها على أجهزة المراقبة أكثر من تركيزهم على مريضهم الذي بات في حكم الميت. تساءلت ما إذا كان هذا القرار بشأن كوينتانا قد اتُخذ في ضوء تطور كهذا. حتى بعد أن أكدوا لي أن الأمر لم يكن كذلك، وجدت نفسي أتجنب النظر إلى شاشة مراقبة عمل الدماغ. كنت قد اعتدت على رؤية موجات دماغها. كان ذلك يجسد شكلاً من أشكال التواصل بيني وبينها، وكأنني أسمعها وهي تتكلم.

لم أفهم لماذا، بما أن الجهاز كان موضوعاً في مكانه ومطفأ، لم يبقوا جهاز مراقبة الدماغ في حالة عمل... في حال حدث شيء مثلاً.

سألت.

لا أذكر أنني تلقيت جواباً على سؤالي. كانت تلك فترة أطرح فيها الكثير من الأسئلة من دون أن أتلقى أي جواب عليها. الأجوبة التي كنت أحصل عليها كانت تلك غير الشافية، مثل «تمت جدولة الإجراء مسبقاً».

ما انفكوا يقولون لي في ذلك اليوم إنه ما من مريض في وحدات الأمراض العصبية إلا وأجرى أو سيجري عملية فغر الرغامى. كل المرضى في وحدات الأمراض العصبية كانوا يعانون من حالات وهن عضلي أدت إلى تعقيد عملية إزالة أنبوب التنفس. احتمال التسبب بضرر في مجرى الهواء يصبح أقل مع عملية فغر الرغامى. احتمال الإصابة بالتهاب رئوي يصبح أقل مع عملية فغر الرغامى. تنظر إلى يمينك، تنظر إلى شمالك، تنظر أمامك وخلفك فلا تجد سوى عمليات فغر الرغامى.

يمكن إجراء العملية باستخدم «الفينتانيل[1]» ومرخٍ عضلي، ستكون تحت تأثير المخدّر لوقت لا يتجاوز الساعة. عملية فغَر الرغامى لا تترك أي أثر يُذكر، «مجرد ندبة صغيرة» قد تختفي مع الزمن ولا يعود لها أثر.

ما انفكوا يرددون على مسامعي هذه الملاحظة الأخيرة، وكأن أساس رفضي لعملية فغر الرغامى هو الندبة ولا شيء سواها. كانوا أطباءً حديثي التخرج، شباناً مهندمين ومعطرين، على عكسي أنا تماماً، فقد كان المظهر والجماليات آخر همومي في تلك الفترة.

في الواقع لم يكن لدي أدنى فكرة عن سبب معارضتي لإجراء تلك العملية.

أعتقد الآن أن منشأ معارضتي كان نبع الخرافة نفسه الذي كنت أستدر منه مخاوفي منذ موت جون.

إذا لم تجرِ العملية ستكون أفضل حالاً في الصباح، ومستعدة لتناول الطعام، وقادرة على الكلام والعودة إلى المنزل. إذا لم تجرِ العملية سنكون على متن إحدى الطائرات بحلول عطلة نهاية الأسبوع. وإذا لم يسمحوا لها بالسفر جواً، سآخذها معي إلى فندق بيفرلي ويلشاير، حيث سنذهب إلى الصالون ونقوم بتدريم أظافرنا ونجلس قرب بركة السباحة. وإذا لم يسمحوا لها بالطيران بعد ذلك، سآخذها بالسيارة إلى ماليبو، ونقضي بضعة أيام نستجم خلالها بصحبة جين مور.

إذا لم تجرِ عملية فغر الرغامى...

كانت تلك فكرة مختلة، لكنني أنا أيضاً كنت كذلك.

عبر الستائر القطنية الزرقاء ذات الرسومات التي تفصل بين أسرّة المرضى كان بإمكاني سماع أقارب المرضى وزوجاتهم يتحدثون إلى أزواجهم، أو أقاربهم، أو آبائهم، أو زملائهم الغائبين عن الوعي. في السرير الذي يقع إلى يمين سرير كوينتانا كان ثمة رجل أصيب في

1- دواء مسكن.

حادث أثناء عمله في البناء. الرجال الذين كانوا يعملون معه وقت وقوع الحادث أتوا لزيارته. وقفوا حول سريره وحاولوا أن يشرحوا ما حدث. *المعدات، العربة، الرافعة، سمعت ضجيجاً، ناديت على فيني*. قدّم كل منهم نسخته من القصة، وكل نسخة كانت مختلفة عن الأخرى بصورة طفيفة. كان هذا مفهوماً، بما أن كل واحد منهم قد شهد الواقعة من زاوية مختلفة، لكنني أذكر رغبتي في التوسط بينهم ومساعدتهم على التوفيق بين قصصهم... بدت لي كمّية التناقضات في المعلومات أكبر من أن تنزل على رأس ذلك المسكين المصاب بصدمة في دماغه.

«كان كل شيء يسير كالمعتاد ومن ثم أفلت الوضع من السيطرة ووقعت الواقعة»، قال أحدهم.

لم يند عن الشخص المصاب أي رد فعل، ولم يكن بإمكانه ذلك، إذا كان قد خضع إلى عملية فغر الرغامى.

إلى يسار سرير كوينتانا استلقى رجل من ماساتشوستس مضى على وجوده في المستشفى أشهر عديدة. كان هو وزوجته في لوس أنجلوس يقومان بزيارة لأبنائهما، وأثناء وجودهما هناك سقط عن السلم، وبدا بخير تماماً بعدها. يوم آخر يسير كل ما فيه بشكل روتيني واعتيادي تماماً. بعد ذلك بدأ يعاني من صعوبة في الكلام. *كان كل شيء يسير كالمعتاد ومن ثم أفلت الوضع من السيطرة ووقعت الواقعة*. كان حينها مصاباً بالتهاب رئوي. كان أبناؤه يأتون ويذهبون، أما الزوجة فكانت تبقى معه طوال الوقت، تناشده وتتضرع إليه بصوت محزون خافت. لم يكن الزوج يقوم بأي رد فعل: هو أيضاً كان قد خضع لعملية فغر الرغامى.

أجروا لها عملية فغر الرغامى في مساء يوم الخميس الموافق الأول من أبريل.

بحلول صباح يوم الجمعة وبعد أن نالت كفايتها من التخدير والغياب تمت إزالة أنبوب التنفس، وبات بإمكانها أن تفتح عينيها وتضغط على يدي.

في يوم السبت أخبروني أنهم في اليوم التالي أو بحلول يوم الإثنين سيقومون بنقلها من وحدة العناية المركزة إلى وحدة المراقبة العصبية، تلك الموجودة في الدور السابع والتي تُنقل إليها الحالات الأقل حرجاً بعد أن تكون قد تجاوزت مرحلة الخطر. كان الدوران السادس والسابع في مركز UCLA الطبي مخصصين للأمراض العصبية حصراً.

لا أتذكر متى قاموا بنقلها بالتحديد، ولكن حدث ذلك بعد بضعة أيام كما أظن.

في مساء أحد الأيام، وبعد أن تم نقلها إلى وحدة مراقبة الحالات الأقل حرجاً، التقيت بتلك المرأة القادمة من ماساتشوستس في ساحة مقهى كافيه ميد.

زوجها أيضاً كان قد نُقل من وحدة العناية المركزة إلى ما أسمته «منشأة إعادة تأهيل الحالات شبه الحرجة». كلتانا كانت تعلم أن «منشأة إعادة تأهيل الحالات شبه الحرجة» كانت ما تطلق عليه شركات التأمين الصحّي والموظفون المسؤولون عن تخريج المرضى من المستشفى اسم «دور الرعاية» لكن لم تشر أي منا إلى ذلك. أرادت أن تنقله إلى وحدة إعادة تأهيل الحالات شبه الحرجة في قسم الأمراض العصبية النفسية التي تضم أحد عشر سريراً في مركز UCLA الطبي، لكن لم يتم قبوله. هذه هي العبارة التي استخدمتها «لم يتم قبوله». كانت قلقة حول كيفية الوصول إلى منشأة العناية بالحالات الحرجة لأنها لم تكن تتقن القيادة، فقد كانت هناك منشأتان، الأولى كان فيها سرير واحد متاح وكانت قريبة من مطار لوس أنجلوس الدولي، والثانية في الحي الصيني. أبناؤها لديهم أعمالهم، أعمال مهمة، لا يستطيعون أن يقلّوها إلى هناك كل يوم.

جلسنا تحت أشعة الشمس.

تحدثَت واستمعت إليها.

سألتني عن ابنتي.

لم أرد أن اخبرها أن ابنتي كانت ستُنقل إلى وحدة إعادة تأهيل الحالات الحرجة التي تضم أحد عشر سريراً في قسم الأمراض العصبية النفسية.

عند مرحلة معينة لاحظت أنني كنت أحاول أن أجمع الأطباء حولي ككلب الرعي، أن أشير إلى مسألة الوذمة إلى أحد الأطباء المتدرجين، أن أذكّر طبيباً آخر بأن يجري فحص البول ليفحص الدم عند مستوى القثطار الفولي، أن أصرّ على إجراء صورة أشعة فوق صوتية لمعرفة ما إذا كان الألم في ساقها بسبب الوذمة، أن أكرر بإصرار - عندما بينت الأشعة فوق السمعية أنها كانت في الواقع تقوم بقذف الجلطات من جديد - أنني أريد أن يتم استدعاء متخصص في تخثر الدم لاستشارته. كتبت اسم المختص الذي أريد استدعاءه. حتى أنني عرضت عليهم أن أتصل به بنفسي. هذه الجهود جعلتني شخصاً مكروهاً من قِبل شباب وشابات طاقم المستشفى («إذا كنتِ تنوين المواصلة على هذه الشاكلة والاستمرار في التدخل في عملي، سأنسحب!» قال لي أحدهم بعد أن فاض به الكيل) لكن هذه الجهود جعلتني أشعر بأنني أقل عجزاً.

أذكر أنني تعلمت في مركز UCLA الطبي أسماء العديد من الاختبارات والمقاييس. اختبار صندوق كيمورا[1]. اختبار تمييز النقطتين[2]. مقياس غلاسكو للغيبوبة[3]. مقياس غلاسكو لدرجة الشفاء[4]. أما معاني هذه الفحوص والمقاييس فقد كانت غامضة بالنسبة إلي. أتذكر أيضاً أنني تعلمت في مركز UCLA الطبي، وقبل ذلك في مستشفى بيت إسرائيل ومستشفى كولومبيا برسبيتيريان، أسماء العديد من الجراثيم المنتشرة في

1- أحد اختبارات الوظائف الحركية.

2- أحد اختبارات الإحساس الموضعي.

3- هو مقياس للأعصاب يهدف إلى إعطاء وسيلة موثوق بها، وموضوعية لتسجيل الحالة الواعية لشخص ما بشكل مبدئي وأيضاً بشكل متتابع.

4- مقياس للمرضى الذين يعانون من إصابات في المخ، مثل الصدمات الدماغية التي تجمع الضحايا حسب درجة الشفاء الموضوعية.

المشافي والمحصّنة ضد المضادات الحيوية المستخدمة فيها. في بيت إسرائيل كانت هناك جرثومة من سلالة الأسينيوتوباكتر الراكدة التي كانت محصنة ضد عقّار الفانكومايسين[1]. «*هكذا تعرفين أنها عدوى حدثت في المستشفى*»، أذكر عندما أجابني أحد الأطباء في مستشفى كولومبيا برسبيتيريان لدى سؤاله عن ذلك. «إذا كانت محصنة ضد الفانكومايسين فهي بلا شك من المستشفى. لأن الفانكومايسين لا يستخدم إلا في المستشفيات». في مركز UCLA الطبي كان هناك بكتيريا MRSA، أو المكورات العنقودية الذهبية المقاومة للميثيسيلين، التي ظنوا في البداية أنهم قد قاموا بازدراعها وبدا الأمر مفزعاً للطاقم الطبي بشكل خاص. «لا يمكنني الإفصاح عن السبب لكن بما أنكِ حامل يستحسن أن تنتقلي إلى مستشفى آخر»، نصح أحد الأطباء المعالجين زميلته أثناء استفحال الخوف من انتشار المكورات العنقوية الذهبية وهو ينظر إلي وكأنني لا أفهم قصده. كان ثمة العديد من أسماء البكتيريا الأخرى التي تتفشى في المستشفى، لكن تلك كانت الأكثر فتكاً. بغض النظر عن نوع البكتيريا التي يظهر أنها مصدر الحمى الجديد أو التهاب المسالك البولية الذي انتشر مؤخراً، كانت الإجراءات تفرض استخدام أردية وقفازات وأقنعة واقية بصورة صارمة. كما كانت الإجراءات تنطوي أيضاً على سلسلة معقدة من التواقيع والإمضاءات التي يُطلب من العاملين في المستشفى الالتزام بها بشكل صارم قبل أن يدخلوا أي غرفة لإفراغ سلة المهملات الموجودة فيها. المكورات العنقودية الذهبية المقاومة للميثيسيلين في مركز UCLA كانت عبارة عن جراثيم تتسبب بالتهاب في مجرى الدم. عندما سمعت ذلك عبّرت للطبيب الذي كان يفحص كويتتانا عن تخوّفي من أن التهاباً في مجرى الدم قد يؤدي إلى إصابتها بتعفن الدم مرة أخرى.

«حسناً، تعفن الدم، وليكن بمعلومك، هو مصطلح طبي»، قال الدكتور، وواصل بعد ذلك فحصه لها.

1- مضاد حيوي.

ضغطت عليه.

«هي تعاني في الأصل من درجة معينة من تعفن الدم». وبدا عليه أنه مبتهج لقول ذلك. «لكننا نتابع إعطاءها الفانكومايسين. والوضع جيد حتى الآن». عدنا ننتظر لنرى ما إذا كانت قد فقدت ضغطها الشرياني.

عدنا إلى مراقبة ما إذا كانت ستصاب بصدمة إنتانية. بعد ذلك جلسنا نراقب قطع الجليد الطافية على سطح مياه نهر إيست ريفير.

في حقيقة الأمر ما شاهدته من نوافذ المركز الطبي كان بركة سباحة. لم يحدث قط أن شاهدت أحداً يسبح فيها، على الرغم من أنها كانت ممتلئة ومفلترة (كان بإمكاني أن أرى الدوامة حيث تدخل المياه الفلتر والفقاعات التي تشير إلى مكان خروجها)، ومتلألئة تحت أشعة الشمس، ومحاطة بطاولات تظللها شمسيات ملونة. في أحد الأيام بينما كنت جالسة أراقبها انتابتني ذكرى خاطفة وقوية لفكرة راودتني في السابق جعلتني أظن أنني قادرة على تعويم الشموع والغاردينيا على سطح بركة السباحة القائمة خلف منزلنا في برينتوود بارك. كنا نقيم حفلة حينها. حدث قبل موعد الحفلة بساعة واحدة، وكنت حينها مرتدية الملابس التي سأحضر بها الحفلة، أن راودتني فكرة الغاردينيا والشموع. اتكأت على الإفريز وأشعلت الشموع واستخدمت دلو تنظيف البركة لأوجه زهور الغاردينيا والشموع لتتوزع بصورة عشوائية على سطح الماء. وقفت بعد ذلك أنظر إليها وأنا مسرورة بالنتيجة. وضعت دلو التنظيف جانباً. عندما نظرت إلى بركة السباحة بعد ذلك بقليل، كانت زهور الغاردينيا قد اختفت والشموع قد انطفأت، أجسام صغيرة مخضّلة بدأت تدور وتتحرك مهتاجة حول مسرب الفلتر. لم يكن من الممكن أن تُسحب عبر مسرب الفلتر لأنه كان مسدوداً أصلاً بأزهار الغاردينيا. قضيت الخمس وأربعين دقيقة المتبقية على بدء الحفلة في إزالة زهور الغاردينيا المبتلة من الفلتر والشموع من الماء وتجفيف فستاني بمجفف الشعر، وانتهت القصة على خير.

تلك ذكرى من منزلنا في برينتوود بارك لم يكن لجون وكوينتانا وجود فيها.

لسوء الحظ انتابتني ذكرى أخرى. في ذلك الوقت الفاصل بين الغسق والمساء كنت وحيدة في المطبخ أُطعم كلب البوَفييه الذي كنا نربّيه حينها. كوينتانا كانت تدرس حينها في كلّية برنارد، وجون يقضي بضعة أيام في الشقة التي كنا نمتلكها في نيويورك. حدث هذا على الأرجح في أواخر العام 1987، خلال الفترة التي بدأ فيها يتحدث عن رغبته في أن نقضي مزيداً من الوقت في نيويورك. لم أكن أؤيد الفكرة. فجأة ملأ المطبخ ضوء وامض أحمر اللون. مضيت إلى النافذة لأتبين مصدره. رأيت سيارة إسعاف تقف أمام أحد المنازل القائمة على الجانب الآخر من شارع مارلبورو، وكانت تُرى من وراء الأشجار المرجانية وتلك الكدستين من الخشب القائمتين في فناء بيتنا. كان هذا واحداً من تلك الأحياء التي تضم المنازل فيها، بما فيها تلك القائمة على الجانب الآخر من شارع مارلبورو، فناءً جانبياً وكدستين من الأخشاب. راقبت ذلك المنزل حتى انطفأ آخر ضوء فيه وغادرت سيارة الإسعاف من أمامه. في صباح اليوم التالي بينما كنت أنزه الكلب أخبرني أحد الجيران بما حدث. الكدستان من الخشب لم تتمكنا من الحؤول دون أن تصبح المرأة المقيمة على الجانب الآخر من شارع مارلبورو أرملة عند العشاء.

اتصلت بجون في نيويورك.

بدا الضوء الأحمر الوامض حينها وكأنه نذير وإنذار عاجل.

قلت له إنه قد يكون على حق، ربما علينا أن نقضي المزيد من الوقت في نيويورك.

أثناء مراقبتي بركة السباحة الفارغة من نافذة مركز UCLA الطبي استطعت أن أرى الدوامة تدنو مني لكنني لم أستطع أن أبتعد عن دربها. الدوامة في هذه الحالة كان باعثها ذكرى ذلك الجانب اللجوج

من رواية موعد في سامراء[1]. لو أنني لم أجرِ تلك المكالمة هل كانت كوينتانا لتعود إلى لوس أنجلوس عند تخرجها من كلّية برنارد؟ لو أنها كانت تعيش في لوس أنجلوس هل كان ليحدث كل ما حدث في بيت إسرائيل نورث؟ هل كان ليحدث كل ما حدث في مستشفى كولومبيا برسبيتيريان؟ هل كنت سأراها طريحة الفراش هنا في مركز UCLA الطبي؟ لو أنني لم أخطئ فهم الضوء الأحمر الوامض في أواخر العام 1987 أكان من الممكن الآن أن أدخل سيارتي وانطلق بها غرباً عبر جادة سان فيسنتي لأجد جون ينتظرني في منزلنا في برينتوود بارك؟ هل كنت سأراه واقفاً في منتصف المسبح والمياه تغمره؟ هل كنت سأراه يعيد قراءة رواية «خيار صوفي»؟

هل كان علي أن أعيش كل خطأ ارتكبته مرة أخرى؟ لو أنني بالصدفة تذكرت ذلك الصباح الذي قدنا فيها سيارتنا على طريق سانت تروبيز من منزل توني ريتشاردسون القائم في التلال، وتناولنا القهوة على طريقنا وابتعنا بعض السمك لنعده على العشاء، أكان علي أن أذكر أيضاً ذلك المساء الذي رفضت فيه أن أسبح تحت ضوء القمر لأن البحر المتوسط كان ملوثاً وكنت مصابة بجرح في ساقي؟ لو أنني تذكرت ديك المصارعة في الحيد البرتغالي، أكنت بحاجة أيضاً إلى أن أذكر الرحلة الطويلة إلى

1- هي قصة قصيرة للكاتب سومرست موم وجاءت القصة على لسان الموت: الموت يتحدث: أرسل تاجرٌ في بغداد خادمهَ إلى السوق ليأتيه برزق منه، وما لبث الخادم أن عاد شاحباً مرتجفاً وقال: سيدي! بينما كنت في السوق زاحمتني امرأة في حشود الناس فالتفتُ إليها فإذا هو الموت يزاحمني. لقد نظرت إليّ وأومأت إلي إيماءة كلها تهديد ووعيد، والآن أعطني جوادك حتى أمتطيه وأعدو به بعيداً عن المدينة هرباً من مصيري المحتوم. سوف أذهب إلى سامراء، وهناك لن يجد الموت إلي سبيلاً. دفع التاجر إليه بجواده، وامتطاه الخادم وغمزه بالمهماز وعدا الحصان بعزم ما فيه. ثم ذهب التاجر بعد ذلك إلى السوق ورآني واقفاً وسط الزحام، فأقدم علي وقال: لماذا أومأتِ إلى خادمي إيماءة تهديد عندما رآك هذا الصباح؟ قلت: لم تكن تلك إيماءة تهديد ووعيد، بل إيماءة تنم عن العجب والمفاجأة. لقد اعترتني الدهشة حين رأيته هنا في بغداد في حين أن لي موعداً معه الليلة في سامراء!

المنزل بعد العشاء، وكم هي كثيرة تلك الليالي التي قال خلالها أحدنا شيئاً في غير مكانه وزمانه أثناء مرورنا بقرب مصافي النفط القائمة على طريق سان دييغو السريع؟ أو تلك الليالي التي توقف فيها أحدنا عن الكلام؟ أو التي خُيّل فيها لأحدنا أن الآخر قد توقف عن الكلام؟ «كل ذكرى من الذكريات وكل أمل من الآمال التي تكون الرغبة فيها مقيدة بموضوع الذكرى أو الأمل تُستحضر ويتم التركيز عليها نفسياً بإفراط، ويتم التوصل إلى الانفصال عن الرغبة المتعلقة بهذه الذكرى... اللافت للنظر أن هذا البؤس الموجع يؤخذ من قبلنا على أنه أمر طبيعي». هكذا فسّر فرويد ما اعتبره «عمل» ألم الفقدان، الذي من الطريقة التي يوصف بها يبدو كأنه شبيه بعمل الدوامة.

في حقيقة الأمر، المنزل في برينتوود بارك، الذي رأيت من نافذته الضوء الأحمر الوامض وفكرت في تفادي مضامينه عبر الانتقال إلى نيويورك، لم يعد له وجود الآن، فقد هُدم وسوي بالأرض (وبُني مكانه بيت أكبر منه بقليل) بعد عام من بيعنا له. في اليوم الذي صادف فيه أن كنا في لوس أنجلوس وقدنا سيارتنا مجتازين منعطف تشادبورن وشارع مارلبورو ورأينا أنه لم يبقَ شيء قائم منه سوى المدخنة التي تُركت للحصول على الفوائد الضريبية، تذكرت سمسار العقارات عندما أخبرني كم سيعني للمشتري أن نقدم له نُسخاً من مخطوطات الكتب التي ألّفناها أثناء وجودنا في المنزل. وهذا ما كنا قد فعلناه. «كوينتانا والأصدقاء»، «داتش شيا جونيور»، و«الأحمر والأبيض والأزرق» التي ألّفها جون، و«سلفادور»، و«الديمقراطية» و«ميامي» التي ارتكبتها بقلمي. عندما رأينا المنزل المهدم الذي سوي بالأرض من نافذة السيارة، كوينتانا، الجالسة في المقعد الخلفي، انفجرت بالبكاء. كان رد فعلي الأول غاضباً. أردت ان أستعيد الكتب.

هل ساهم هذا السطر الاستدراكي في إيقاف الدوامة؟

لا، ولا بأي شكل.

في صباح أحد الأيام عندما كانت كوينتانا لا تزال في وحدة العناية بالحالات الأقل حرجاً، ذلك أن استمرار إصابتها بالحمى استلزم إجراء فحص القلب التصواتي لاستبعاد وجود التهاب في بطانة القلب، رفعت يدها اليمنى لأول مرة. كان هذا أمراً جسيماً لأنه حدث على الجانب الأيمن من جسدها الذي يمكن أن تظهر عليه آثار الصدمة. تلك الحركة بينت أن الأعصاب المرضوحة كانت لا تزال حية. في وقت لاحق من ذلك اليوم لم تكف عن التعبير عن رغبتها في مغادرة السرير، وأصبحت تتذمر وتشتكي كطفلة عندما رفضت مساعدتها. ذكرياتي عن ذلك اليوم لم تكن «موشوشة» قط.

في أواخر أبريل ارتأى المشرفون على حالتها أنه قد مر وقت كافٍ منذ إجراء العملية الجراحية للسماح لها بالسفر إلى نيويورك. كانت المسألة الأساسية حتى ذلك الحين هي تكييف الضغط والتحقق من احتمال تسببه بتورم. كانت ستحتاج إلى شخص مُدرَّب ليلازمها. استُبعد خيار الطيران في الدرجة السياحية. تم اتخاذ الإجراءات والتدابير اللازمة لإخراجها من المركز: تم تأمين سيارة إسعاف لتنقلها من مركز UCLA الطبي إلى المطار، وإسعاف جوي لغاية مطار تيتيربورو، وسيارة إسعاف لتقلها من تيتيربورو إلى مستشفى نيويورك الجامعي، حيث ستخضع إلى إعادة تأهيل عصبي في معهد راسك. العديد من المحادثات تمت بين معهد راسك ومركز UCLA الطبي، وتم إرسال العديد من السجلات. تم تحضير قرص مدمج يحوي جميع صور الأشعة المقطعية. حُدد تاريخ ما كنت، وما زلت إلى الآن، أسميه «الترحيل»: الخميس الموافق 29 أبريل. في صباح يوم الخميس وبينما كنت أوشك على تسجيل الخروج من فندق بيفرلي ويلشاير تلقيت اتصالاً من كولورادو. تم تأجيل الرحلة. كانت الطائرة في تاكسن، حيث كانت قد حطت مصحوبة بـ «صعوبات تقنية». كان أفراد فريق الصيانة سيفحصونها ليكتشفوا ما هو عطلها عندما يصلون، وذلك عند الساعة العاشرة بتوقيت المنطقة الجبلية. في وقت

مبكر من المساء بتوقيت منطقة المحيط الهادئ اتضح أن الطائرة لن يكون بإمكانها أن تحلّق. كان من المقرر أن يتم تأمين طائرة أخرى في صباح اليوم التالي، لكن صادف أن كان اليوم التالي هو الجمعة، ولم يكن الطاقم الطبي في UCLA يحبذ إجراء عمليات «الترحيل» أيام الجمعة. ضغطت على الموظف المسؤول عن تخريج المرضى من المستشفى للموافقة على حدوث الترحيل في يوم الجمعة.

تأجيل الترحيل إلى الأسبوع القادم لن يساهم إلا في إصابة كوينتانا بالإحباط والاضطراب. قلت بنبرة واثقة وثابتة.

ليس لدى راسك أي اعتراض على قبولها في المستشفى ليلة يوم الجمعة، قلت بنبرة أقل ثقة.

ليس لدي مكان أقيم فيه خلال عطلة نهاية الأسبوع، كذبت.

عندما وافق موظف التخريج على حدوث الترحيل في يوم الجمعة كانت كوينتانا قد أسبلت للنوم جفنيها. جلست لبعض الوقت تحت أشعة الشمس في الساحة أمام المستشفى أراقب طائرة عمودية ترسم دوائر في السماء لتحط على سطح المركز. دائماً ما كانت الطائرات العمودية تحط على سطح مركز UCLA الطبي، وهو ما يشير إلى حدوث حالة طوارئ في مكان ما من كاليفورنيا الجنوبية، ويستحضر في الذهن مشاهد بعيدة لأشلاء ودماء على إسفلت الطريق السريع، وصوراً لمجزرة ولرافعات تسقط على من تحتها في البعيد، وما ينبئ بيوم مرير ينتظر زوجاً أو أماً أو أباً من دون أن يكون أي منهم قد تلقى بعد ذلك الاتصال المشؤوم الذي سينقل إليه أو إليها خبراً قد يغير حياته أو حياتها (وذلك حتى بعد أن تكون الطائرة العمودية قد حطت على سطح المركز الطبي، ودخل فريق الطوارئ بالنقالة إلى قسم الحجر الصحي). تذكرت يوماً من أيام صيف العام 1970 عندما توقفنا أنا وجون عند إحدى الإشارات الضوئية حين تغير لونها إلى الأحمر في جادة سانت تشارلز في نيو أورليانز واسترعى انتباهنا كيف انهار السائق في السيارة المجاورة على عجلة القيادة. انطلق

بوق سيارته بلا توقف وكأنه صوت كارثة. هرع العديد من الراجلين على الرصيف إليه. أتى أحد ضباط الشرطة ليتحقق من الأمر. تغير لون الإشارة إلى الأخضر فمضينا في طريقنا. لم يستطع جون بعد ذلك أن يُخرج هذه الصورة من رأسه.

ما فتئ يقول بعد ذلك، *كان هناك، حياً يرزق، وبعدها أصبح ميتاً، كل هذا ونحن نتفرّج عليه*. رأينا ذلك في لحظة حدوثه. أدركنا أنه قد فارق الحياة حتى قبل أن تعلم أسرته بذلك.

مجرد يوم روتيني.

«ومن ثم... انتهى كل شيء!»

يوم السفر، عندما أتى أخيراً، بدا كأنه سيتكشف عن حدث غير مفهوم وغير متصل ويستحضر في الذهن تلك الأحداث أو الجزئيات غير المنطقية التي نراها في الحلم. عندما أدرت التلفاز على إحدى محطات الأخبار في وقت مبكر من الصباح علمت بوجود أحداث شغب على الطرق السريعة، كان سائقو الشاحنات يحتجون على ارتفاع أسعار البترول. شاحنات ضخمة كانت قد طُويت وتُركت عمداً على الطريق السريع رقم 5. أفاد شهود أن الشاحنات الأولى التي توقفت في عرض الطريق كانت تحمل على متنها طاقم التصوير التلفزيوني. كان سائقو سيارات الركاب والسيارات الرياضية ينتظرون لكي يزيحوا الشاحنات بأنفسهم ويفتحوا الشارع المسدود. مقطع الفيديو الذي شاهدته بدا كأنه خارج سياقه... كأنه قد وقع في فرنسا العام 1968. «تجنبوا التوجه إلى الطريق رقم 5 إذا استطعتم» أوصى المذيع المشاهدين، وحذّرهم من أن «مصادر» (هي على الأغلب طاقم التصوير التلفزيوني نفسه الذي كان على متن أولى الشاحنات المحتجة) أفادت بأن الشاحنات ستقوم بإغلاق طرق سريعة أخرى، وبالتحديد الطرق رقم 710، و60، و10. في السياق الاعتيادي لهذا النوع من الاضطرابات كان من غير المرجح أن نتمكن من الذهاب من مركز UCLA الطبي إلى الطائرة، لكن بحلول

الوقت الذي وصلت فيه سيارة الإسعاف إلى المستشفى كان الحدث «الفرنسي» برمته قد بدا كأنه قد حُل، ودخل ذلك الجزء من الحلم في طي النسيان.

كانت ثمة مراحل وجزئيات وتفاصيل أخرى سترد في سياق هذه القصة الشبيهة بالحلم. قيل لي إن الطائرة ستكون في مطار سانتا مونيكا. بينما قيل لفريق الطوارئ إنها ستكون في بوربانك. أحدهم أجرى اتصالاً وأخبرنا أنها ستكون في فان نويس. عندما وصلنا إلى فان نويس لم نرَ أي طائرة في المدى المنظور، طائرات عمودية فقط. *ذلك على الأغلب لأنكم ستستقلون طائرة عمودية*، قال أحد المرافقين الطبيين الذي كان واضحاً أنه مستعد لعمل أي شيء ليتخلص منا ويكمل يومه بسلام. *لا أظن ذلك*، قلت، إنها ثلاثة آلاف ميل المسافة التي سنقطعها. هز المرافق كتفيه واختفى. وصلت الطائرة أخيراً، طائرة نفاثة من نوع سيسنا فيها قمرة تتسع لطيارَين، ومسعفَين، والحمالة التي استلقت عليها كوينتانا وثبتت إليها بالأشرطة، وأنا، إذا تمكنت من الجلوس على المقعد الموجود فوق أسطوانة الأكسجين. أقلعت الطائرة. حلّقنا لبعض الوقت. أحد المسعفين كان معه كاميرا رقمية يلتقط بها صوراً لما كان يشير إليه على أنه «غراند كانيون». قلت إنني أعتقد أن ما يصوره هو بحيرة ميد، وسد هوفر. أشرت إلى لاس فيغاس.

واصل المسعف التقاط الصور. واستمر بتسمية ما كان يصوره «غراند كانيون». *لماذا يجب أن تكوني دائماً على حق.* تذكرت قول جون لي.

كان ذلك تذمراً، تهمة، ومقطعاً من شجار. لم يفهم قط أنه في داخل عقلي لم يحدث قط أن اعتقدت أنني على حق. حدث ذات مرة في العام 1971، عندما كنا ننتقل من فرانكلين أفينيو إلى ماليبو، أن عثرت على رسالة محشورة خلف إطار صورة أثناء إزالتها عن الجدار. الرسالة وردتني من شخص كنت مقربة منه قبل أن أتزوج جون. كان قد قضى معنا بضعة أسابيع في منزلنا في فرانكلين أفينيو. كان نص الرسالة يقول

«كنتِ مخطئة». لم أعلم ما هو الأمر الذي كنت مخطئة بخصوصه، لكن الاحتمالات بدت لا نهائية. أحرقت الرسالة. لم أخبر جون عنها أبداً.

حسناً، إنه غراند كانيون، فكرت وأنا أغير جلستي على المقعد القائم فوق أسطوانة الأكسجين بحيث لا أعود أرى النافذة أو ما يقوم بتصويره من خلف زجاجها.

هبطنا بعد ذلك في حقل ذرة في كنساس لنتزود بالوقود. عقد الطياران صفقة مع المراهقَين اللذَين يشرفان على مهبط الطائرات: بينما تتم إعادة ملء الطائرة بالوقود سيركبان شاحنتهما الصغيرة ويمضيان إلى ماكدونالدز ويعودان ببعض شطائر الهمبرغر. وأثناء انتظارنا اقترح المسعفان أن نتناوب على ممارسة التمارين. عندما حان دوري وقفت متجمدة في مكاني على مدرج الطائرات للحظة وأنا أشعر بالخجل من كوني حرة أستمتع بوقتي في الخارج بينما كوينتانا طريحة الحمالة غير قادرة على الحراك في الداخل. مشيت بعد ذلك إلى حيث ينتهي المدرج ويبدأ حقل الذرة. مطر خفيف كان يهطل والرياح تتخبط غير ثابته، وتخيلت إعصاراً يقترب. كنا أنا وكوينتانا نجسد دوروثي[1].كنا حرتين... معاً. كنا في الواقع خارج المكان والزمان. كان جون قد كتب عن أحد الأعاصير في كتابه «لم نخسر شيئاً» Nothing Lost. تذكرت قراءتي للمقاطع الأخيرة في غرفة كوينتانا في مشفى كولومبيا برسبيتيريان وبكائي عندما وصلت إلى المقطع الذي يتحدث عن الإعصار. بطلا العمل، جي جي ماكلير وتيريسا كين، يريان الإعصار «قادماً من بعيد، أسودَ ثم حليبياً عندما لفحته الشمس، يتقدم كأفعى عمودية مجدولة هائلة الحجم تتحرك بصورة أفقية». يطمئن جي جي تيريسا ويقول لها ألا تقلق، فهذا المكان قد ضربه الإعصار من قبل، والأعاصير لا تضرب المكان نفسه مرتين.

1- بطلة «ساحر أوز» هو فيلم موسيقي وكوميدي درامي وخيالي أمريكي من إنتاج شركة مترو غولدوين ماير عام 1939.

أخيراً يمر الإعصار من دون حوادث عبر خط ويومينغ. في تلك الليلة، وهما في نُزُل ستيب رايت القائم على مفترق الطرق بين هيجينسون وهيجينس، تسأل تيريسا إذا كان ما قاله عن أن الإعصار لا يضرب المكان نفسه مرتين حقيقة. «لا أعرف»، يقول جي جي. «يبدو الأمر منطقياً، كما هو الحال مع البرق. كنتِ قلقة. لم أرغب في أن أراكِ قلقة». كان هذا أشبه ما يكون بتصريح عن الحب استطاع جي جي أن يدلي به.

في الطائرة، وحدي بصحبة كوينتانا، أخذت إحدى شطائر الهمبرغر التي جلبها الفتيَان وقطعتها إلى قطع صغيرة لنتقاسمها معاً. بعد أن تناولَت بضع لقيمات هزت رأسها. كان قد سُمح لها بتناول الأطعمة الجامدة لمدّة أسبوع أو أكثر بقليل، ولم تكن قادرة على تناول المزيد. كان أنبوب التغذية لا يزال في مكانه في حال لم تتمكن من تناول الطعام.

«أتظنين أنني سأفعلها؟» سألتني بعد ذلك.

اخترت أن أعتقد أنها تسألني ما إذا كانت ستصل إلى نيويورك.

«بالتأكيد» قلت لها.

أنا هنا. أنتِ بأمان.

بالتأكيد ستكون بخير في كاليفورنيا، تذكرت قولي لها قبل ذلك بخمسة أسابيع.

ليلة وصولنا إلى معهد راسك كان جيري وتوني ينتظران في الخارج وصول سيارة الإسعاف.

سألني جيري كيف كانت رحلتنا. قلت له أننا تقاسمنا شطيرة بيغ ماك في حقل ذرة في كانساس. «لم تكن شطيرة بيغ ماك»، قالت كوينتانا. «بل كوارتر باوندر».

بدا لي في اليوم الذي قضيته في غرفة كوينتانا في مستشفى برسبيتيريان عندما قرأت النسخة المعدة للنشر من كتاب «لم نخسر شيئاً» أن ثمة خطأ لغوياً في الجملة الأخيرة من المقطع الذي يدور حول الإعصار وجي جي ماكلوير وتيريسا كين. لم أكن في الواقع على دراية كاملة بعلم النحو

والقواعد، وكنت في الواقع أعتمد على الحكم السماعي لأقرر الصح من الخطأ. لكن شيئاً ما في تلك الجملة لم يبدُ صحيحاً لدى سماعي لها. كُتبت العبارة الأخيرة كالتالي: «كان هذا أشبه بتصريح عن الحب استطاع جي جي أن يدلي به». كنت أنا سأكتبها كالتالي: «كان هذا أقرب تصريح عن الحب استطاع جي جي أن يدلي به[1]».

جلست قرب النافذة وراقبت قطع الجليد الطافية على سطح نهر هدسون وفكرت في الجملة. «كان هذا أشبه بتصريح عن الحب استطاع جي جي أن يدلي به». لم تكن واحدة من تلك الجمل التي تريد أن تخطئ بها إذا ما حدث وكتبتها، كما لم تكن أيضاً من الجمل التي تريد أن تعدّلها إذا كنت قد كتبتها بهذه الطريقة. كيف كتبها؟ ما الذي كان يفكر فيه عندما كتبها؟ كيف أراد لها أن تكون؟ كان القرار متروكاً لي. أي قرار أتخذه كان يحمل في طياته نوعاً من التخلي، وربما الخيانة أيضاً.

كان هذا أحد الأسباب التي جعلتني أبكي في غرفة كوينتانا. عندما عدت إلى المنزل في تلك الليلة دققت في المخطوطات والنسخ السابقة. الخطأ، إذا ما كان خطأً فعلاً، كان موجوداً منذ البداية.

تركت الجملة على حالها.

لماذا تريدين دائماً أن تكوني على حق؟

لماذا تريدين دائماً أن تكون الكلمة الأخيرة لكِ؟

حاولي، ولو لمرة واحدة في حياتك، أن تتركي الأمور على حالها.

1- لا يمكن تبيان الخطأ اللغوي الذي تشير إليه الكاتبة في اللغة العربية، فاخترنا أن نصيغ الجملة ببعض الركاكة المقصودة. المترجم.

-12-

يوم سفرنا أنا وكوينتانا في اتجاه الشرق على متن الطائرة التي تزودت بالوقود في أحد حقول الذرة في كنساس وافق الثلاثين من أبريل العام 2004. خلال الفترة التي قضتها في معهد راسك، والتي استمرت طوال مايو ويونيو ونصف يوليو، لم يكن هناك الكثير مما يمكنني أن أقدمه لها. كان بإمكاني أن أقصد شارع إيست ثيرتي فورث لأراها في آخر المساء، وهذا ما كنت أفعله في أغلب الأيام، لكنها كانت تخضع للعلاج من الثامنة صباحاً إلى الرابعة عصراً كل يوم، وعند السادسة والنصف أو السابعة تكون قد أنهكت واستنفدت قواها بالكامل. حالتها الصحية كانت مستقرة. أصبح بإمكانها أن تتناول طعامها بنفسها. أنبوب التغذية كان لا يزال في مكانه، لكن لم يعد له لزوم. كانت قد بدأت تستعيد قدرتها على الحركة في ساقها وذراعها في الجهة اليمنى. كما بدأت تستعيد القدرة على تحريك عينها اليمنى التي كانت بحاجة إليها لتقرأ. في عُطل نهاية الأسبوع حينما لم يكن لديها جلسات علاج كان جيري يصطحبها لتناول الغداء ومشاهدة أحد الأفلام في دار السينما في الحي. كان يتناول العشاء بصحبتها، وبعد ذلك ينضم الأصدقاء إليهما بعد عودتهم من تناول الغداء في المتنزه. طوال فترة بقائها في معهد راسك كان بإمكاني أن أسقي النباتات على عتبة نافذة غرفتها، وأن أضبط الفروق البسيطة بين الأحذية الرياضية التي أوصاها معالجها بانتعالها، وأن أجلس معها في البيت الزجاجي أمام ردهة الانتظار في معهد راسك لنتفرج معاً على أسماك الكوي في البركة الصغيرة. لكن بمجرد مغادرتها معهد راسك ما عاد

بإمكاني أن أقوم حتى بهذه الأشياء. كانت قد وصلت إلى مرحلة عليها فيها، إذا ما كان مكتوباً لها أن تُشفى، أن تعتمد على نفسها مرة أخرى.

عزمت على أن أقضي الصيف للوصول إلى مرحلة أتمكن فيها من أن أعتمد على نفسي أنا أيضاً.

لم تكن قد تأتت لي بعد القدرة على التركيز على العمل، لكن كان بإمكاني أن أرتّب المنزل، وأن أهتم بالأمور العالقة، وأن أقرأ أكوام الرسائل البريدية التي لم تُقرأ بعد.

لم أكن أدرك أبداً أنني قد دخلت للتو مرحلة الحداد!

ما كان بإمكاني حتى ذلك الحين أن أشعر بشيء سوى ألم الفقدان، أما الحداد فقد كان فصلاً آخر لم أدخله بعد. ألم الفقدان كان انفعالاً سلبياً... كان أمراً واقعاً. الحداد، وهو فعل التعامل مع ألم الفقدان، كان يتطلب انتباهاً، انتباهاً بالفعل. حتى ذلك الوقت كان هناك كل الأسباب والمسائل الملحة التي من شأنها أن تحرف أي انتباه كان له أن يظهر لولا وجودها، تلك الأسباب التي من شأنها أن تُبعد الفكرة، وأن تضخ كمية إضافية من الأدرينالين تعينني على تحمّل المحنة كل يوم. كنت قد أمضيت فصلاً كاملاً من العام لم أسمح لنفسي بسماع أي شيء فيه سوى بضع كلمات كونت رسالة صوتية مسجّلة: *أهلاً بكم في UCLA*.

وهكذا بدأت...

من ضمن الرسائل والكتب والمجلات التي أُرسلت إلى منزلي أثناء وجودي في لوس أنجلوس وجدت مجلداً كبيراً يحمل عنوان «*Lives of '54*» «حيوات دفعة العام 54» الذي تم تجميعه بمناسبة لم الشمل الخمسين لدفعة جون في جامعة برنستون والذي كان وشيك الحدوث. بحثت عن مدونة جون. قرأت فيها: «قال وليام فوكنر ذات مرة إن نعي الكاتب يجب أن يُكتب فيه «خطّ كتباً ثم رحل». هذا ليس نعياً (على الأقل حتى التاسع عاشر من سبتمبر العام 2002) وأنا ما زلت أؤلف كتباً. لذا سألتزم بما قاله فوكنر».

قلت لنفسي: لم يكن هذا نعياً...

على الأقل حتى التاسع عشر من سبتمبر 2002.

أغلقت المجلد. بعد ذلك ببضعة أسابيع فتحته مرة أخرى، وتصفحت مدونات بقية الطلاب. كانت إحداها تعود لدونالد هنري («رامي») رمسفيلد، الذي كتب: «بعد برنستون، بدت السنون ضبابية ملطخة، لكن الأيام كانت شبيهة بإطلاق نار سريع». تأملت قليلاً في ما كتبه. مدونة أخرى، عبارة عن ثلاث صفحات من تأملات لانسيلوت إل («لون») فارار جونيور، تبدأ بهذه الكلمات: «على نحو مثير للجدل، أفضل ذكرى يحتفظ بها طلبة برنستون هي خطاب أدلاي ستيفنسون في حفلة الطلاب الأكبر سناً».

تأملت لبعض الوقت في ما كتبه أيضاً.

كنت متزوجة إلى طالب من دفعة العام 54 منذ أربعين سنة ولم يحدث أبداً أن ذكر لي خطاب أدلاي ستيفنسون في حفلة الطلاب الأكبر سناً. حاولت أن أستذكر أي شيء ربما يكون قد أخبرني به عن جامعة برنستون. كان قد ذكر لي غير مرة الانطباع المضلل الذي كان يراه في عبارة «برنستون في خدمة الأمة» وهو الشعار الذي اعتمدته برنستون واقتبسته من خطاب ألقاه وودرو ويلسون[1]. لم أتمكن من تذكر أي شيء غير قوله لي بعد بضعة أيام من زواجنا (لماذا قالها؟ كيف خطرت بباله؟) إنه يرى فرقة الناسونس (المكوّنة من مجموعة طلاب من برنستون) سخيفة. في الواقع، لأنه عرف أن الأمر يسليني، كان في بعض الأحيان يقلّد حركات الفرقة، تلك الحركات المصطنعة المتجسدة في وضع إحدى اليدين في جيب السروال، وتدوير مكعب الثلج في الكأس المتخيلة، والصورة الجانبية التي يُقحم فيها الذقن في الصدر، وتلك الابتسامة الخفيفة المشبعة بالرضا.

1- توماس وودرو ويلسون (28 ديسمبر 1856 - 3 فبراير 1924) هو سياسي وأكاديمي أميركي شغل منصب الرئيس الثامن والعشرين للولايات المتحدة من عام 1913 إلى 1921.

هكذا أتذكركِ...
وقفتِ بقربي على جرف مرتفع عاصف
وجهانا للريح وقلبانا يملأهما الأمل

على مدى أربعين عاماً شكلت هذه الأغنية مزحة خاصة بيننا ولم أكن أتذكر اسمها، ناهيك عن باقي كلماتها. البحث عن كلمات الأغنية كاملة بات أشبه بحاجة ملحة. لم أعثر على أي ذكر لها على شبكة الإنترنت سوى في موقع واحد، وذلك في نعي منشور في مجلة خريجي برنستون الأسبوعية ورد فيه:

*«جون مكفايدن» 4*46: رحل جون مكفايدن عن دنيانا في 18 فبراير 2000، في داماريسكوتا، ماين، قرب قرية هيد تايد، حيث عاش مع زوجته ماري إيستر. توفي إثر إصابته بالتهاب الرئة، لكنه عاش لسنوات طويلة معتل الصحة خاصة بعد وفاة زوجته في العام 1977. جاء جون إلى برنستون قادماً من دولوث في ذلك الصيف «متسارع الأحداث» الذي شهده العام 1942. موهبته الموسيقية والفنية خولته المساهمة في العديد من أغاني Triangle، ومنها الأغنية الأحب على قلب فرقة ناسونس «هكذا أتذكركِ». كان جون يبث الحياة في أي حفل موسيقي بعزفه على البيانو. يذكر الجميع عزفه أغنية «Shine, Little Glow Worm» رأساً على عقب من تحت آلة البيانو. بعد أن أدى خدمته العسكرية في اليابان، عاد إلى برنستون ليكمل دراسته ويحصل على الماجستير في فن العمارة. وقد قام بتصميم أحد المباني الرئيسية التابعة لمنظمة الأمم المتحدة مع شركة هاريسون أند أبراموتز في نيويورك. حاز جون على جائزة روما في فن العمارة وتزوج من ماري إستر إدج وأمضى الفترة الواقعة بين 1952 و1953 في أكاديمية روما الأمريكية. أعماله الشخصية كمهندس معماري، وأهمها تصميمه مركز وولف تراب للفنون خارج واشنطن، قد توقفت لفترة بسبب عمله مع الحكومة خلال ولاية الحاكم نيلسون روكفيلر في الستينيات كمدير تنفيذي لأول مجلس للفنون في الدولة.*

زملاؤه في المدرسة وأبناء دفعته يشاركون أبناءه كاميلا ولوك ووليام وجون وأحفاده الثلاثة حزنهم ومصابهم في فقد واحد من أعز أبناء مدرستنا».

«هكذا أتذكركِ» الأغنية الأحب إلى قلب ناسونس. ولكن ماذا عن موت ماري إستر؟ وكم مر من وقت منذ آخر مرة عُزفت فيها «Shine Little Glow Worm» رأساً على عقب من تحت البيانو؟

بماذا أضحي لأكون قادرة على مناقشة هذه الفكرة مع جون؟

ماذا أعطي لأكون قادرة على مناقشة أي موضوع معه مهما يكن...

لأكون قادرة الآن على قول شيء واحد يسرّه؟

ماذا يمكن أن يكون هذا الشيء؟

لو أنني قلته في وقته أكان ذلك يجدي نفعاً؟

قبل أن يفارق الحياة بليلة أو اثنتين سألني جون إذا كنت أعرف عدد الشخصيات التي تموت في رواية «لم نفقد شيئاً» التي كان قد أرسلها لتوّه إلى الطباعة. قبل ذلك كان جالساً في مكتبه يعد قائمة بأسماء من قتلهم في روايته. أضفت إلى القائمة قتيلاً كان قد أغفله. بعد وفاته بعدة أشهر التقطت دفتر أوراق قانونية من على مكتبه لأدون عليه ملاحظة. على الصفحة الأولى من الدفتر رأيت مكتوباً بخط اليد وبقلم رصاص باهت قائمة الموتى في روايته، وكانت تضم الأسماء التالية:

تريسا كين

بارلينس

إيميت مكلور

جاك بروديريك

ماوريس دود

أربعة أشخاص في سيارة

تشارلي باكلز
بيرسي - إعدام على الكرسي الكهربائي (بيرسي دارو)
والدن مكلور
لماذا كان خط قلم الرصاص باهتاً جداً، تساءلت.

ما الذي دفعه إلى الكتابة بقلم رصاص بالكاد يترك أثراً؟ متى بدأ ينظر إلى نفسه كميت؟ «ليست الحكاية حكاية أبيض وأسود» هذا ما قاله لي طبيب شاب في مركز سيدارز سيناي الطبي في لوس أنجلوس في 1982 حول الحد الفاصل بين الحياة والموت. كان قد مضى علينا بعض الوقت حينها ونحن في وحدة العناية المركزة في مركز سيدارز نراقب دومينيك ابنة نيك وليني، التي كانت قد اختنقت حتى أوشكت على الموت في الليلة السابقة. كانت دومينيك مستلقية في وحدة العناية المركزة وكأنها نائمة ولكنها ما كانت لتنجو. لم يكن بمقدورها التنفس إلا عبر أجهزة دعم الحياة. دومينيك كانت الطفلة بنت الأربع سنوات التي حضرت حفل زفافنا أنا وجون.

دومينيك كانت النسيبة التي أشرفت على حفلات كوينتانا واصطحبتها لشراء فستان حفل التخرج وكانت تبقى معها لترعاها أثناء سفرنا خارج المدينة. *الورد أحمر، البنفسج أزرق*... هذا ما كان مكتوباً على بطاقة أُلصقت بكأس من الورود قامت كوينتانا ودومينيك بوضعها لنا على مائدة المطبخ لنراها عند عودتنا من أحد تلك الأسفار. *تمنيت ألا تكوني في المنزل، ودومينيك تمنت ذلك أيضاً، مع حبنا في عيد الأم لأجمل أم، دومينيك وكوينتانا.*

أتذكر أنني وجدت الطبيب مخطئاً يومها... ما دامت دومينيك مستلقية في وحدة العناية المركزة فهي لا تزال على قيد الحياة. صحيح أنها لم تكن قادرة على البقاء حية من دون مساعدة الأجهزة، لكنها كانت لا تزال على قيد الحياة. هذا هو الأبيض. عندما أطفأوا أجهزة دعم الحياة وفصلوها عنها مرت بضع دقائق قبل أن تتوقف الأجهزة عن العمل وبعدها فارقت الحياة... هذا هو الأسود.

لم يكن هناك أي أثر يُذكر لمن رحل، لا باهت ولا واضح، ولا حتى علامة تركها قلم رصاص.

أي آثار باهتة، أو أي علامة خطها قلم الرصاص، كانت قد تُركت «قبل وفاته بليلة أو ليلتين»، أو قبل ذلك «بأسبوع أو اثنين»، وفي مطلق الأحوال قد حدثت بالتأكيد قبل موته.

ثمة بالتأكيد حد فاصل...

الطبيعة القطعية التي لا رجوع عنها لهذا الحد الفاصل كانت شيئاً قد احتل حيزاً من تفكيري لوقت لا بأس به خلال أواخر الربيع والصيف بعد أن عدت من مركز UCLA الطبي. إحدى الصديقات المقربات، كارولين ليليفيلد، فارقت الحياة في مايو في مركز ميموريال سلون كيتيرينغ لعلاج السرطان. روزميري بريسلين، زوجة توني ديون، ماتت في يونيو، في مشفى كولومبيا برسبيتيريان. في كلتا هاتين الحالتين كانت عبارة «بعد صراع طويل مع المرض» صالحة للاستخدام لتجرّ وراءها تلك الفرضية المضللة بأن من مات قد تحرر من ألمه واستراح وأراح. في كل حالة من حالات الصراع الطويل مع المرض تلك كان الموت جزءاً من المشهد في كل دقيقة، على مدى بضعة أشهر في حالة كارولين، ومنذ العام 1989 في حالة روزميري بعد أن بلغت عامها الثاني والثلاثين. وعلى الرغم من ذلك فرؤية المشهد عندما يكتمل لا تغيّر بأي حال من الأحوال ذلك الشعور بالخواء الذي تخلفه الخسارة ووقوع الواقعة. كان الأمر لا يزال أبيض وأسود. كلتاهما كانت حية حتى آخر لحظة، ومن ثم رحلت.

أدركت أنني ما آمنت يوماً بالكلمات التي تعلمتها كطفلة لكي أصبح عضواً معترفاً به في الكنيسة الأسقفية: «*أؤمن بالروح القدس، بالكنيسة الكاثوليكية المقدسة، بمناولة القديسين، بمغفرة الذنوب، بقيامة الجسد، وبخلود الحياة، آمين*».

لم أكن أؤمن بقيامة الجسد. كذلك تيريسا كين، وبارلينس، وإيميت ماكلور، وجاك بروديريك، وماوريس دود، والأربعة الذين قضوا في

حادث سيارة، وتشارلز باكلز، وبيرسي دارو، ووالدن ماكلور، ولا حتى زوجي الكاثوليكي... ولا واحد منهم كان يؤمن بقيامة الجسد.

كنت أظن أن هذه الطريقة في التفكير ستمنحني بعض الوضوح، لكنها في واقع الحال كانت مشوشة لدرجة أنها كانت تناقض نفسها.

لم أكن أؤمن بقيامة الجسد، لكنني كنت ما زلت أؤمن بأنه إذا ما اجتمعت الظروف المناسبة فإنه سيعود...

هو الذي ترك آثاراً باهتة قبل أن يموت بقلم رصاص من عيار 3.

بدا لي في أحد الأيام أنني يجب أن أقرأ مسرحية ألسيستيس[1]. كنت قد قرأتها عندما كنت في السادسة عشرة أو السابعة عشرة من أجل بحث عن يوروبيديس[2]، لكنني تذكرتها بطريقة أوحت لي أنها على ارتباط بمسألة «الحد الفاصل». تذكرت الإغريق بشكل عام لكنني تذكرت ألسيستيس على وجه الخصوص كمثال جيد عن ذلك الحد الفاصل بين الحياة والموت. صوروا الموت، وجسّدوه مسرحياً، ووضعوا المياه المظلمة والقارب في ديكورات المشهد نفسه. أعدت قراء ألسيستيس. أما أحداث المسرحية فهي كالتالي: حكم إله الموت على أدميتيوس، ملك تيساليا الشاب، بالموت. تدخّل أبولو في الأمر، وحصل على وعد من آلهة الأقدار بأنه إذا ما عثر أدميتيوس على إنسان آخر ليموت بدلاً منه لن يكون عليه أن يموت في الحال. ناشد أدميتيوس أصدقاءه وأقاربه علّ أحدهم يموت عوضاً عنه، لكن بلا طائل: «أقول لنفسي دائماً إن الموت مديد والحياة قصيرة، لكنها حلوة» يقول له والده رافضاً أن يموت عنه.

وحدها زوجة أدميتيوس، الملكة الشابة ألسيستيس، تتطوع لتحل محله. كثر هم من ينوحون عليها ويتألمون لموتها الوشيك، لكن أحداً

1- من الأساطير الإغريقية، وتتحدث عن الأميرة ألسيستيس التي كانت الأجمل بين أخواتها والتي كانت تحب زوجها حباً جماً.

2- روائي مسرحي يوناني ولد في سالاميس سنة 480 ق.م وتوفي في مقدونيا سنة 406 ق.م.

لا يبادر إلى إنقاذها. تموت ألسيستيس في آخر المطاف: أرى القارب بمجذافيه/ أرى القارب على سطح البحيرة/ وشارون/ مراكبي الموتى/ يناديني/ يداه على المجذاف..». يقع أدميتيوس ضحية الندم والعار والشفقة على الذات «وا أسفاه! كم يؤلمني ذلك الرحيل الذي تتحدثين عنه/ آه يا حبيبتي البائسة، كم نتألم!» يتصرف بشكل مشين من جميع النواحي. يوجه اللوم إلى أهله. يُصر على أن معاناته أكبر من معاناة ألسيستيس. بعد بضع صفحات من هذا النواح (وبصورة مبالغ فيها)، وبتدخل أخرق وسافِر من آلهة آلية (حتى بالنسبة إلى العام 430 قبل الميلاد،) يُسمح لألسيستيس بالعودة. لا تنبس ببنت شفة، لكن يتم تفسير هذا، وبشكل أخرق من جديد، على أنه أمر مؤقت، وضرب من تصحيح الذات: «ربما لن تسمع صوتها إلا بعد أن تتطهر من تقديسها لآلهة العالم السفلي، وحتى انبلاج الفجر الثالث». لو أننا ركنا إلى النص وحده، سيكون للمسرحية نهاية سعيدة.

لم يكن هذا ما أتذكره عن مسرحية ألسيستيس، ما يعني أنني كنت في السادسة عشرة أو السابعة عشرة أميل إلى تأويل النص كما أراه أثناء قراءته. التناقض الرئيسي يكمن بين النص وما تحمله ذاكرتي عنه قبيل نهايته، وذلك عندما تعود ألسيستيس من أرض الموتى. السبب وراء لجوء ألسيستيس إلى الصمت عند عودتها هو قرارها الامتناع عن الكلام. أدميتيوس، وفقاً لما أتذكر، يضغط عليها في تلك المرحلة، وذلك لشدة كربه مما بدا أنه يعتمل في رأسها، وهو ما تكشّف لها من عيوبه، ويحاول بشتى الوسائل أن يجعلها تتكلم. أدميتيوس، الخائف من أفكارها، يتخلى عن الأمل بسماع أي شيء منها ويأمر بإقامة احتفال كبير فرحاً بعودتها. تنصاع ألسيستيس وتختلط بالآخرين، لكنها تبقى نائية بنفسها عنهم. تعود ألسيستيس إلى زوجها وأبنائها، ومن جديد تعود لتكون ملكة تيساليا الشابة، لكن النهاية («النهاية» كما أراها أنا) لا يمكن تفسيرها على أنها سعيدة.

من نواحٍ معينة هذه قصة أفضل «أو بالأحرى منطقية أكثر»، قصة تعترف على الأقل بأن الموت «يغيّر» من يموت، لكنه يفتح الباب واسعاً على أسئلة أخرى تتعلق بـ«الحد الفاصل». إذا كان الموتى يريدون العودة، ما هو الخفي الذي سيكونون قد عرفوه خلال رحلتهم في عالم الموت؟ هل ستتمكن من مواجهتهم، نحن الذين سمحنا للموت باختطافهم؟ ضوء النهار يخبرني أنني لم أسمح للموت باختطاف جون، أنه لم يكن لدي القدرة على ذلك، لكن ماذا عني أنا؟ هل فعلاً أصدق ذلك؟ وماذا عن جون؟

ينظر من فقد عزيزاً إلى الوراء فيرى إشارات ورسائل تبدت له لكنه لم يبصرها.

يتذكر الشجرة التي ذبلت، والنورس الذي لطخ غطاء السيارة بسلحه.

يعيش بالرموز. يقرأ المعنى في وابل البريد الإلكتروني غير المرغوب فيه الذي يرد إلى جهاز الكمبيوتر الذي لم يستخدم منذ زمن، في مفتاح الحذف الذي ما عاد يعمل... ينظر إلى قرار استبداله كضرب من الخيانة. رسالة المجيب الآلي على هاتفي لا تزال بصوت جون. أن يكون هو من سجل رسالة الرد الآلي أمر حدث بالصدفة، وكان مرتبطاً بمن تواجد قرب الهاتف يوم احتاج جهاز الرد الآلي إلى إعادة ضبط، لكنني إذا ما اخترت أن أعيد تسجيلها الآن سأفعل ذلك بشعور من يرتكب خيانة. في أحد الأيام أثناء تحدثي على الهاتف في مكتبه قلّبت وأنا ساهية صفحات المعجم الذي كان دائماً يتركه مفتوحاً على الطاولة قربه. صُدمت عندما أدركت ما الذي فعلته: ما هي آخر الكلمات التي بحث عن معناها؟ ما الذي كان يفكر فيه حينها؟ هل أضعت مع قلب الصفحات الرسالة التي كانت ستظهر لي؟ أم أن الرسالة كانت قد ضاعت حتى من قبل أن ألمس المعجم؟ هل رفضت أن أستمع إلى الرسالة؟

أقول لك إنني لن أعيش لأكثر من يومين، يقول جافين.

في وقت لاحق من ذلك الصيف تلقيت كتاباً آخر من جامعة برنستون.

كان الإصدار الأول من كتاب True Confessions «اعترافات حقيقية» وكان «في حالة جيدة، لكن الغلاف الواقي الأصلي مهترئ قليلاً» على حد تعبير بائع الكتب. في الواقع كانت تلك النسخة الخاصة بجون: يبدو أنه كان قد أرسلها إلى أحد زملاء صفه، وكان هذا الأخير ينظم معرضاً للكتب التي ألّفها طلاب دفعته من أجل حفل لم الشمل الخمسين لطلاب دفعة العام 1954. «لقد تبوأ منزلة الشرف» كتب لي زميل دراسته السابق، «خصوصاً أن جون كان بلا شك الكاتب الأهم في دفعتنا».

تفحصت الغلاف الأصلي الواقي، المتهتك إلى حد ما، على تلك النسخة من كتاب «اعترافات حقيقية».

تذكرت أول مرة رأيت فيها ذلك الغلاف، أو نموذجه الأولي المعد للطباعة. بقي يتنقل في أرجاء منزلنا لعدة أيام، كما يحدث مع كل التصاميم المقترحة ونماذج العينات الخاصة بأغلفة الكتب الجديدة، والفكرة من ذلك هي تحديد ما إذا كان متيناً بما يكفي ليبقى في حالة جيّدة، وله أن يحافظ على قدرته في اجتذاب من يراه.

فتحت الكتاب. نظرت إلى الإهداء وكان نصه: «إلى دوروثي بورنز ديون، جوان ديديون، وكوينتانا رو ديون»، «أجيال». كنت قد نسيت نص الإهداء هذا. لم أكن قد منحته حقه من الإعجاب والتقدير، شعور ثابت لم يكن يفارقني في كل ما مررت به خلال تلك المرحلة.

أعدت قراءة «اعترافات حقيقية». وجدته أكثر سوداوية مما كنت أتذكر. وأعدت قراءة Harp. وجدت فيه صورة مختلفة، وأقل إشراقاً، من ذلك الصيف الذي كنا نشاهد فيه مسلسل «تينكو» ونذهب لتناول العشاء في مطعم مورتنز.

شيء آخر كان قد حدث قبيل نهاية ذلك الصيف.

في أغسطس كان هناك قداس تذكاري لأحد المعارف وهو لاعب كرة مضرب فرنسي في الستينيات من عمره قُتل في حادث سيارة (لم يكن القداس التذكاري بحد ذاته هو «الشيء الآخر» الذي حدث.) أقيم

القداس التذكاري في حديقة منزل أحدهم في بيفرلي هيلز. «التقيت بزوجتي في القداس»، كتب جون في رواية Harp، «كنت قادماً للتو من موعد عند الطبيب في سانتا مونيكا، وبينما كنت جالساً هناك تحت شمس أغسطس اللاهبة، كان الموت حاضراً بقوة في ذهني. فكرت في أن أنطون قد مات في أفضل الظروف الممكنة، لحظة وجيزة من الرعب مرت عليه عندما أدرك النتيجة الحتمية للحادث، وبعد ذلك بلحظة دخل في العتمة الأبدية».

انتهى القداس وأحضر موظف صف المركبات سيارتنا. على طريق العودة، سألتني زوجتي «ماذا قال الطبيب؟»

لم تكن قد سنحت أي فرصة لأحدثها عن زيارتي إلى الطبيب في سانتا مونيكا.

«لقد أرعبني حتى الموت يا حبيبتي».

«ماذا قال لك؟»

«قال إنني معرّض للإصابة بأزمة قلبية قد تودي بي؟»

بعد بضع صفحات من ذلك في رواية Harp، جون، الكاتب نفسه، يختبر مصداقية هذه القصة «قصته هو نفسه». يلاحظ أن هناك تغيّرا في الاسم، إعادة بناء دراماتيكية في مواقع معينة، انهيار زمني ثانوي. يسأل نفسه: «هل هناك شيء آخر»، وهذا كان الجواب الذي رد به على سؤاله: «عندما أخبرت زوجتي أنه قد أرعبني حتى الموت، بدأت بالبكاء». قد أكون نسيت هذه الحادثة وقد أكون اخترت عمداً ألا أتذكرها.

لم أمنحها حقها من التقدير.

أكان هذا ما مر به عندما أتاه الموت؟ «لحظة من الذعر أدرك خلالها النتيجة الحتمية للحادث، وبعدها بلحظة دخل في العتمة الأبدية»؟ أن تكون قد حدثت في هذه الليلة وليس سواها، فإن آلية الأزمة القلبية النمطية يمكن تفسيرها على أنها حادث في الأساس: تشنج مفاجئ يؤدي

إلى تمزق لويحة راسبية في الشريان التاجي، يتبع ذلك نقص في التروية، ويدخل القلب، نتيجة حرمانه من الأكسجين، حالة الرجفان البطيني.

لكن كيف اختبر ذلك في الواقع؟

«لحظة الذعر»، و«العتمة الأبدية»؟ هل أدرك هذا بحدسه وبكل تلك الدقة وهو يكتب Harp؟ هل «فهم الأمر بشكل صحيح؟»، كما كنا نقول عادةً بعضنا لبعض عند اطّلاعنا على تقرير أو معلومة. ماذا بخصوص «العتمة الأبدية»؟ ألم يحكِ دائماً أولئك الذين اختبروا موتاً جزئياً عن ذلك «النور الأبيض»؟ خطر لي وأنا أكتب أن هذا «الوهج الأبيض» الذي يُحكى عنه بشكل مبهم (كدليل على الحياة ما بعد الموت، وعلى قدرة متفوقة)، هو في الواقع متسق بدقة مع نقص الأكسجين الذي يحدث عندما يتناقص تدفق الدم إلى الدماغ. «اصطبغ كل شيء بالأبيض»، يقول هؤلاء الذين يصابون بهبوط في الضغط في اللحظة التي تسبق فقدانهم الوعي. «كل الألوان غابت» يقول هؤلاء الذين يتعرضون لنزيف داخلي عن اللحظة التي يصل فيها نقص الدم إلى مرحلة حرجة.

«الشيء الآخر» الذي حدث قبيل نهاية ذلك الصيف، والذي كان على الأغلب في العام 1987، كان مسلسل الأحداث التي وقعت في أعقاب الموعد مع الطبيب في سانتا مونيكا والقداس التذكاري في ملعب التنس في بيفرلي هيلز. بعد ذلك بأسبوع أو نحوه أجرينا تصويراً بالأشعة للشرايين العميقة أو صورة وعائية كما يسميها بعض العاملين في السلك الطبي. أظهرت الصورة الوعائية انسداداً بنسبة 90 % في الشريان الغشائي النازل الأيسر، أو ما يُسمى اختصاراً LAD. كما أظهرت أيضاً تضيقاً بنسبة 90 % على طول الشريان الهامشي المنعطف، ويعود السبب في ذلك بشكل رئيسي إلى أن الشريان الهامشي المنعطف يغذي الجزء نفسه من القلب الذي يغذيه الشريان الغشائي النازل المصاب بانسداد. *هذا ما نسميه «صانع الأرامل» يا صاح*، قال طبيب جون في نيويورك بعد ذلك عن الشريان الغشائي النازل الأيسر. بعد إجراء الصورة الوعائية بأسبوع

أو اثنين (كان ذلك في شهر سبتمبر من ذلك العام، وكان الطقس لا يزال صيفاً في لوس أنجلوس) قمنا بإجراء عملية رأب للوعاء. نتيجة العملية، كما تبين بعد أسبوعين من خلال إجراء تخطيط صدى القلب، اعتبرت «مذهلة». بعد ذلك بستة أشهر قمنا بالإجراء نفسه وتأكدنا من نجاح العملية. وعلى مدى السنوات القليلة التي أعقبت ذلك أجرينا فحوصات للتأكد من عدم وجود تسمم بالثاليوم، وصورة وعائية بعد ذلك في العام 1991 أعطت النتيجة نفسها، كانت العملية ناجحة بكل المقاييس. أتذكر أن كلاً منا قد رأى ما حدث في العام 1987 بصورة مختلفة. رأى جون أن حكم الموت قد صدر بحقه، لكن مع وقف التنفيذ. كثيراً ما كان يقول، بعد إجراء عملية رأب الوعاء تلك في العام 1987، إنه بات يعلم كيف سيموت. في حين ما رأيته أنا هو أن الحظ قد حالفنا وتدخلت العناية الإلهية في الوقت المناسب لمصلحتنا، وأن المشكلة قد حُلّت، وعولج الخلل. *لم تعد الآن تعرف كيف ستموت، مثلك مثل غيرك تماماً*، أذكر قولي له. أدرك الآن أنه رأى الأمر بصورة أكثر واقعية.

-13-

اعتدت أن أحكي أحلامي لجون، لا ليساعدني على فهمها، بل لكي أخرجها من رأسي وأصفّي ذهني لبقية اليوم. «لا تحكي لي حلمك» كان يقول لي عندما أستيقظ صباحاً، لكنه كان يستمع إليه في النهاية. عندما مات توقفت عن رؤية الأحلام، لكنها عادت تراودني في أوائل الصيف لأول مرة منذ وفاته. وبما أنه ما عاد بإمكاني أن أحكيها له فقد وجدت نفسي أفكر فيها وأجترّها. تذكرت مقطعاً من رواية كنت قد كتبتها في منتصف التسعينيات، *The Last Thing He Wanted* «آخر ما تمناه»:

لن نحتاج بالتأكيد إلى الملاحظات الست الأخيرة لنعلم حول ماذا كانت تدور أحلام إيلينا:

أحلام إيلينا كانت تدور حول الموت.

أحلام إيلينا كانت تدور حول التقدم في السن.

ما من أحد هنا إلا ورأى، وسيرى، الأحلام التي تراها إيلينا.

جميعنا يعرف ذلك.

بيت القصيد هنا هو أن إيلينا لم تعرف ذلك.

بيت القصيد هنا هو أن إيلينا نأت بنفسها عن نفسها أكثر من أي شيء آخر، ما جعلها أشبه بعميل سري قسّم عمليته بكل نجاح إلى أجزاء كثيرة لدرجة أفقدتها التواصل مع المنافذ إلى ذاتها الحقيقية.

أدركت أن وضعي مطابق لوضع إيلينا. رأيت في أحد الأحلام أنني أعلق

حزاماً جلدياً مجدولاً في الخزانة وفجأة رأيته ينشطر إلى شطرين. شطر يقارب الثلث منه يسقط من يدي. أري جون شطري الحزام. أقول له، أو هو من يقول لي (من يعلم من القائل أو الفاعل في الأحلام؟!) إن هذا الحزام هو المفضل لديه. أقرر (ومن جديد، أعتقد أنني أنا من يقرر، على الأرجح أنا من قررت، عقلي نصف المستيقظ أرشدني لفعل الأمر الصحيح) أن أعثر له على حزام جلدي مجدول جديد. وبمعنى آخر أن أصلح ما أفسدته... أن أعيده إلى الحياة. التشابه بين الحزام الجلدي المقطوع وذاك الذي وجدته في الكيس البلاستيكي الذي سلموني إياه في مستشفى نيويورك يسترعي انتباهي ولا يمر علي مرور الكرام، كما لا أغفل عن حقيقة أنني ما زلت أعتقد أنني أنا من قطعته، أنا من فعلها، أنا المسؤولة.

وفي حلم آخر رأيت نفسي أنا وجون على وشك السفر بالطائرة إلى هونولولو. كثيرون هم من كانوا مسافرين معنا، وكنا قد اجتمعنا في مطار سانتا مونيكا. شركة باراماونت هي من وفّر لنا الطائرات. أرى مساعدي الإنتاج يوزعون بطاقات الصعود إلى الطائرة. أصعد إلى الطائرة. ثمة لغط واضطراب. الآخرون يصعدون لكن ما من أثر لجون. ينتابني القلق وأخشى أن يكون هناك مشكلة ما في بطاقة صعوده إلى الطائرة. أقرر أنني يجب أن أغادر الطائرة، وأنتظره في السيارة. أثناء انتظاري في السيارة أدرك أن الطائرات تشرع بالإقلاع واحدة تلو الأخرى. في النهاية لم يبقَ أحد سواي في المدرج. الشعور الأول الذي انتابني في المنام بعد ذلك هو الغضب، الغضب من جون... لقد صعد إلى الطائرة من دوني. الفكرة الثانية التي انتابتني جعلتني أصب غضبي على جهة أخرى... لم تهتم باراماونت بنا بما يكفي لتضعنا في الطائرة نفسها. أمّا ما الذي أدخل باراماونت في هذا الحلم فهو موضوع آخر يحتاج إلى نقاش منفصل ولا صلة له بموضوع الحلم.

وأنا أفكر في الحلم تذكرت مسلسل تينكو. يقوم تينكو، مع توالي أحداث المسلسل، باقتياد النساء الإنجليزيات المعتقلات في المعسكر الياباني إلى حريتهن، ويجمعهن بأزواجهن في سنغافورة، وهو الأمر الذي لم يسر كل

ما فيه كما يجب. ربما يكون قد ظن البعض عندما تصل الأحداث إلى نقطة معينة في المسلسل أن للأزواج دوراً ما في محنة الاعتقال. وبدا كأن ثمة إحساساً بالخيانة والهجران، وهو ما كان منافياً للمنطق على أي حال. هل كنت أشعر بالهجران، بأن هناك من تخلى عني وتركني وحدي في المدرج؟ هل كنت أشعر بالغضب من جون؟ هل يمكن أن أشعر بالغضب مما حدث وبأنني المسؤولة عما حدث في آن معاً؟

أعرف تماماً ماذا سيكون الجواب الذي سيدلي به طبيبٌ نفسي عن هذا السؤال.

الجواب سيكون له علاقة بالآلية المعروفة التي يخلق فيها الغضب شعوراً بالذنب وكيف يخلق الشعور بالذنب إحساساً بالغضب.

لست ألغي صحة هذا الجواب، لكنه يبقى بالنسبة إلي أقل أهمية ودلالة من ذلك المشهد الذي لم يأخذ حقه من التفحص والتحليل... ذلك اللغز الكامن في تركي وحيدة في مدرج مطار سانتا مونيكا أراقب الطائرات وهي تقلع الواحدة تلو الأخرى.

جميعنا يعرف ذلك.

بيت القصيد هنا هو أن إيلينا لم تعرف ذلك.

استيقظت حوالي الثالثة والنصف صباحاً ورأيت جهاز التلفاز ما يزال يعمل، وموضوعاً على قناة MSNBC. كان جو سكاربورو أو كيث أولبيرمان، لم أعد أذكر من منهما، يجري مقابلة مع رجل وزوجته كانا من ركاب طائرة «نورثويست 327» التي كانت متجهة من ديترويت إلى لوس أنجلوس («كنت قد دوّنت هذه المعلومات لأنقلها إلى جون») والتي قيل إنها قد شهدت «بروفا لعملية إرهابية». نُفذت العملية لتبدو كأن من قام بها أربعة عشر شخصاً قيل إنهم «عرب» شرعوا عند لحظة معينة، بعد الإقلاع من ديترويت، بالتجمّع أمام دورة المياه، وبدأوا بالدخول واحداً تلو الآخر.

الرجل وزوجته اللذان تُجرى المقابلة معهما يقولان إنهما قد تبادلا بعض الإشارات مع طاقم الطائرة.

حطت الطائرة في لوس أنجلوس. الركاب «العرب»، الذين كانت إقاماتهم جميعاً «منتهية الصلاحية» (بدا هذا صادماً لشبكة MSNBC، لكن الأمر لم يفاجئني إلى ذلك الحد)، تم احتجازهم ومن ثم أطلق سراحهم. الجميع، بمن فيهم الزوجان الظاهران على الشاشة، مضوا بعد ذلك ليكملوا يومهم كالمعتاد. لم يكن «هجوماً إرهابياً» إذاً، بل مجرد محاولة «لمحاكاة عملية إرهابية».

أحتاج إلى أن أناقش هذا في الحلم مع جون.

ولكن، أكان هذا حلماً حتى؟

من هو مخرج الأحلام؟ وهل يكترث فعلاً؟

ألم أكن قادرة على تبيان ما أفكر فيه إلا من خلال الحلم أو الكتابة؟

في شهر يونيو، عندما أصبحت فترات الغسق تمتد لوقت أطول، أجبرت نفسي على تناول العشاء في غرفة الجلوس حيث يتوفر ما يكفي من النور. كنت قد بدأت بتناول الطعام في المطبخ بعد وفاة جون (غرفة الطعام كانت كبيرة جداً والطاولة في غرفة الجلوس كانت موضوعة في البقعة التي سقط فيها سقطته الأخيرة)، لكن عندما أصبحت فترات الغسق تطول انتابني شعور قوي بأنه يريدني أن أرى النور. عندما أصبحت فترات الغسق أقصر انسحبت مرة أخرى إلى المطبخ. بدأت أقضي المزيد من الأمسيات وحيدة في المنزل. كنت أعمل، هذا ما اعتدت أن أقوله. ومع حلول شهر أغسطس كنت أعمل بالفعل، أو كنت أحاول أن أعمل فعلياً، لكنني أيضاً لم أكن أرغب في الخروج... لم أكن أرغب في مواجهة الحياة خارج جدران المنزل. في إحدى الليالي وجدت نفسي أختار طبقاً مختلفاً عن تلك التي اعتدت أن أستخدمها، كان طبقاً خزفياً قديماً بالياً من مجموعة أطباق معظمها فيها كسور أو قطع ناقصة من طراز يُدعى «ويكرديل» لم يعد أحد يصنعه. كانت الأطباق بيضاء

اللون ومؤطرة بورود صغيرة وأزهار زرقاء وأوراق نبات بيج... طقم الأطباق ذاك كان هدية قدمتها والدة جون له يوم استأجر تلك الشقة في شارع إيست سيفينتي ثيرد قبل أن نتزوج. ماتت والدة جون ومات جون، وأنا مازلت أمتلك من طقم أطباق الخزف من طراز «ويكرديل» أربعة صحون للعشاء، وخمسة صحون للسلطة، وثلاثة صحون للزبدة، وفنجان قهوة واحداً، و9 صحون فناجين. بتُّ أفضل هذه الصحون على غيرها. بحلول نهاية الصيف كنت أشغّل غسّالة الصحون بما لا يتجاوز ربع سعتها لأتأكد من وجود صحن نظيف واحد على الأقل من صحون الويكرديل الأربعة لأسكب عشائي فيه.

في مرحلة معينة من الصيف تذكرت أنه ليس لدي أي رسائل من جون، ولا رسالة واحدة حتى. لم نكن نبتعد عن بعضنا إلا في ما ندر. لم تتجاوز الفترة التي قضيناها بعيدين عن بعضنا سوى بضعة أسابيع على الأكثر، وذلك عندما كان أحدنا يعمل على مشروع ما. حدث هذا أيضاً خلال أحد الأشهر في العام 1975 عندما كنت أدرّس في جامعة باركلي خلال أيام الأسبوع وأعود إلى المنزل في لوس أنجلوس على متن طيران PSA في عطلة نهاية الأسبوع. كذلك مرت بضعة أسابيع في العام 1988 كان خلالها جون في أيرلندا يجري بحثاً يتعلق برواية Harp وكنت أنا في كاليفورنيا أغطي الانتخابات الرئاسية. كنا في مناسبات كهذه نتواصل عبر الهاتف عدة مرات في اليوم. كنا قد خصصنا حصة كبيرة من ميزانيتنا لفواتير الهاتف كجزء من اتفاقنا قبل الزواج، تماماً كما خصصنا حصة كبيرة منها لتكاليف الإقامة في الفندق لنتمكن من إخراج كوينتانا من المدرسة واصطحابها في إجازة من حين إلى آخر، وممارسة ما لدينا من أعمال في الوقت نفسه في الجناح الفندقي الذي ننزل فيه معاً. بدلاً من الرسائل كان لدي تذكار من إحدى الفترات تلك التي قضيناها في الفندق: ساعة منبه سوداء رقيقة قدمها إلي في عيد الميلاد عندما كنا في هونولولو في مهمة طارئة لإعادة كتابة سيناريو فيلم لم يرَ النور قط. كان ذاك واحداً من أعياد ميلاد كثيرة لم

نتبادل خلالها «الهدايا» بل أشياء بسيطة ومفيدة لتزيين شجرة عيد الميلاد. ساعة المنبه تلك كانت قد توقفت عن العمل في العام الذي شهد وفاته، ولم يكن من الممكن إصلاحها، وبعد أن فارق الحياة، لم يكن من الممكن رميها. لم يكن من الممكن حتى تغيير مكانها على الطاولة قرب سريري. كان لدي أيضاً مجموعة من أقلام بوفالو الملونة التي حصلت عليها في عيد الميلاد نفسه ودائماً بحسب المفهوم العملي نفسه. رسمت الكثير من أشجار النخيل في عيد الميلاد ذاك، أشجار نخيل تتمايل مع الريح، أشجار نخيل تتدلى منها السعف، أشجار نخيل تنثني تحت وطأة رياح عواصف كونا في شهر ديسمبر. أقلام بوفالو الملونة تلك قد جفت منذ زمن، لكن، كما هو الحال مع ساعة المنبه، لم يكن من الممكن رميها.

أتذكر شعور السعادة الغامر الذي انتابني تحديداً في ليلة رأس السنة تلك في هونولولو، سعادة كانت من العمق بحيث جعلتني غير راغبة في النوم. طلبنا طبق الماهي ماهي وخس ماناو بصلصة الخل لثلاثتنا من خدمة الغرف. حاولنا أن نهيّئ أجواءً احتفالية عبر وضع أكاليل من الزهور فوق الطابعات وأجهزة الكمبيوتر التي كنا نستخدمها لإعادة كتابة الفيلم. عثرنا على بعض الشموع وقمنا بإشعالها وشغّلنا بعض الألبومات الموسيقية التي كانت كوينتانا قد غلفتها لتضعها تحت شجرة الميلاد. كان جون مستلقياً يقرأ في السرير وغلبه النعاس عند الحادية عشرة والنصف. نزلت كوينتانا لترى ماذا يجري في الفندق. كان جون نائماً أمام عيني. كنت أعلم أن كوينتانا سالمة آمنة... اعتادت أن تخرج من الغرفة وتمضي إلى ردهة الفندق لترى ما كان يحدث هناك (أحياناً وحدها، وفي بعض الأحيان بصحبة سوزان ترايلور التي كانت تأتي مع كوينتانا عندما يكون لدينا عمل في هونولولو) منذ أن كانت في السادسة أو السابعة من عمرها. جلست على الشرفة المطلة على ملعب غولف وايآلي كونتري كلاب وأتيت على زجاجة النبيذ التي كنا قد شربنا منها على العشاء وأنا أتفرّج على الألعاب النارية التي تُطلَق في الحي وتضيء سماء هونولولو.

أتذكر الآن الهدية الأخيرة التي قدمها إلي جون. كان ذلك في عيد ميلادي، في الخامس من ديسمبر 2003. كان الثلج قد بدأ يتساقط في نيويورك حوالي الساعة العاشرة صباحاً، وبحلول المساء كانت سماكة الثلج قد وصلت إلى سبع بوصات، وكان من المتوقع أن تُضاف إليها ست بوصات بعد. أذكر كيف كان الثلج ينهمر من على قرميد سطح كاتدرائية القديس جيمس في الجهة المقابلة من الشارع. كنا قد خططنا للقاء كوينتانا وجيري في أحد المطاعم، لكن ألغي اللقاء لسبب ما. قبل العشاء جلس جون قرب الموقد في غرفة الجلوس وبدأ يقرأ لي بصوت مرتفع. الكتاب الذي قرأ منه كان إحدى رواياتي، A Book of Common Prayer «كتاب الصلاة المشتركة»، التي صادف أن كانت موجودة في غرفة الجلوس لأنه كان يعيد قراءتها ليتحقق من بناء سردي معين. المقطع الذي قرأه بصوت مرتفع كان ذلك الذي يقوم فيه ليونارد، زوج شارلوت دوغلاس، بزيارة إلى الراوية، غريس ستراسير ميندانا، ويعلمها بأن ما يحدث في البلدة التي تديرها عائلتها لن ينتهي على خير. كان تسلسل الأحدث في المقطع معقداً (في الواقع كان هذا المقطع الذي أراد جون أن يعيد قراءته ليتحقق من بنائه السردي) إذ يتخلله حدث آخر يجعله متشعباً ويفرض على القارئ أن يستنبط المعنى الكامن ما بين سطور ما يقوله ليونارد دوغلاس وغريس ستاسير ميندانا بعضهما لبعض. «اللعنة» قال جون عندما أغلق الكتاب. «إياكِ أن تخبريني أنكِ عاجزة عن الكتابة مرة أخرى. هذه هديتي لكِ في عيد ميلادكِ».

أذكر كيف طفرت الدموع من عينَي.

أشعر بها الآن.

باستعادة هذه الذكرى أدرك الآن أن تلك الكلمات كانت دليلي وبشيري ورسالتي... كانت بمثابة انهمار الثلج المبكر في قلبي... كانت تلك هدية عيد ميلادي التي ليس بمقدور أي شخص آخر أن يقدمها لي.

في تلك الليلة لم يكن قد تبقى له سوى خمس وعشرين ليلة في ذمة الحياة.

-14-

حدث بعد ذلك أن مررت بفترة في الصيف بدأت أشعر خلالها بأنني ضعيفة أفتقر إلى الاتزان. إذا حدث مثلاً أن علقت فردة من صندلي بطرف الرصيف وجعلني هذا أجري متعثرة بضع خطوات لأتجنب السقوط، كنت أتساءل: ماذا لو أنني لم أنجح في تجنّب السقوط؟ ماذا لو سقطت؟ أي عظمة كانت ستنكسر؟ من سيتمكن من رؤية الدماء تسيل على ساقي؟ من سيوقف لي سيارة أجرة؟ من سيذهب معي إلى قسم الطوارئ؟ من سيعود معي إلى المنزل؟

توقفت عن ارتداء الصنادل. اشتريت زوجين من أحذية بوما الرياضية وبت لا أنتعل سواهما.

بدأت أترك المصباح مضاءً طوال الليل. في تلك الليالي التي كان المنزل فيها مظلماً لم يكن بإمكاني أن أغادر السرير لأدوّن فكرة أو عبارة أو لأبحث عن كتاب أو لأتحقق من أنني قد أطفأت فرن الطبخ. في تلك الليالي التي كان المنزل فيها مظلماً كنت أستلقي في سريري بلا حراك تنتابني رؤى مرعبة عن المخاطر الكامنة في المنزل... الكتب التي قد تنزلق من على الرف لتقع على رأسي وتفقدني الوعي، الحصيرة التي قد تنزلق من تحت قدمي في الممرّ، خرطوم الغسالة الذي قد يفلت من عقاله ليجعل المياه تغمر المطبخ من دون أن أتمكن من رؤية ذلك في الظلام، وهكذا ستصعقني الكهرباء عندما أشعل الضوء لأتأكد من إطفاء الفرن. أدركت أنّ تلك الأفكار كانت أكثر من مجرّد توجس مفرط وحذر

شديد عندما زارني ذات مساء شخص من معارفنا، وهو أحد الكتّاب الشباب، ليسأل إذا كان بإمكانه أن يكتب مقالاً عني. سمعت نفسي أقول بإصرار لا يلين إنني من المستحيل أن أسمح لأحد بأن يكتب عني. لم أكن في وضع يسمح لي بأن أدع احداً يكتب أي شيء عني. سمعت نفسي أشدد على ذلك مرة بعد أخرى وأنا أبذل جهدي لأستعيد توازني وأتجنب السقوط والانهيار. بعد انقضاء هذه الزيارة فكرت في ما حدث.

أدركت أنني في الوقت الحالي غير قادرة على الوثوق بنفسي لأواجه العالم بروح منسجمة وعقل حاضر.

بعد ذلك ببضعة أيام كنت أرتب أعداداً من مجلة «ديدالوس» كانت منثورة في كل مكان في المنزل. بدا ترتيب المجلات في تلك المرحلة أقصى ما يمكنني فعله على صعيد إعادة ترتيب حياتي. متوخية الحذر ألا أحمّل نفسي ما يفوق طاقتي، فتحت أحد أعداد المجلة. عثرت في ذلك العدد على قصة من تأليف روكسانا روبنسون[1] بعنوان Blind Man «الرجل الأعمى». تحكي هذه القصة عن رجل يقود سيارته تحت المطر ليلاً وهو في طريقه لإلقاء محاضرة. يلتقط القارئ إشارات عن خطر محدق: لا يستطيع الرجل أن يتذكر موضوع المحاضرة بالسرعة المنطقية، ينحرف بسيارته الصغيرة المستأجَرة إلى المجاز السريع غافلاً عن اقتراب إحدى السيارات الرياضية؛ ثمة إلماحات إلى فتاة تُدعى «جولييت» كانت قد تعرضت إلى حادث مؤسف. شيئاً فشيئاً نعلم أن جولييت هي ابنة هذا الرجل. في الليلة الأولى التي قضتها جولييت وحيدة، بعد فصلها من الجامعة ودخولها الإصلاحية وقضائها بضعة أسابيع في الريف بصحبة أمها وأبيها وشقيقتها بعد ذلك، تناولت جرعة من الكوكايين كانت كافية لتفجر شرياناً في دماغها أودى بحياتها. مستويات عديدة في القصة سببت لي الاضطراب (وأوضحها وأقساها

1- روكسانا باري روبنسون: روائية، وصحفية، وكاتبة سير، وكاتِبة من الولايات المتحدة.

كان طبعاً انفجار الشريان في دماغ الطفلة) لكن ما أصابني باضطراب كبير كان تصوير الأب كشخص ضعيف وغير متزن... كنت أنا الأب في هذه القصة.

أنا في الواقع على معرفة طفيفة بروكسانا روبنسون، وكنت قد فكرت حينها في الاتصال بها. هي على معرفة تامة بجانب أبدأ بالكاد بتعلّمه. لكن اتصالي بها سيكون أمراً غريباً وضرباً من التطفل. كنت قد التقيت بها ذات مرة في حفل كوكتيل على سطح أحد الأبنية. أفكر بدلاً من ذلك في معارفي ممن فقدوا زوجاً، أو زوجة، أو ابناً. أفكر تحديداً كيف بدا هؤلاء عندما التقيت بهم بالصدفة، في الشارع، أو وهم يدخلون إحدى القاعات مثلاً، بعد عام أو نحوه من الفجيعة. ما صدمني في كل مرة صادفت بها أحدهم هو كم بدا مكشوفاً وعارياً ومتهكاً، كم بدا مسحوقاً، كم بدا ضعيفاً.

كم بدا كل هؤلاء فاقدين للاتزان.

الآن بت أفهم.

فتحت عـدداً آخر من مجلة «ديدالوس» وكان مكرساً لمفهوم «السعادة». مقالة عن السعادة هي عبارة عن عمل مشترك بين روبرت بيسواس-دينر من جامعة أوريغون وإد داينر ومايا تايمر من جامعة أيلينوي، تشامباين-أوربانا، تُشير إلى أنه على الرغم من أن «الأبحاث قد بينت أن بإمكان البشر أن يتأقلموا مع طيف واسع من وقائع وأحداث الحياة، الجيدة منها والسيئة على حد سواء، خلال أقل من شهرين»، لكن ثمة «وقائع بعينها يتأقلم معها البشر ببطء شديد وقد يعجزون عن التأقلم معها بالكامل». البطالة كانت واحدة من تلك الوقائع. «كما أننا نجد أيضاً» يضيف الكاتب «أن *الأرملة العادية* تستغرق سنوات عديدة لتستعيد نمط حياتها الاعتيادي ومستوى رضاها عن حياتها وتتجاوز أزمتها بعد وفاة قرينها». أكنت أنا «*أرملة عادية*؟» ماذا سيكون «مستوى رضاي عن حياتي» وهل سأستعيد المستوى الذي كان عليه قبل رحيل جون؟

أذهب لرؤية الطبيب. مجرد مراجعة دورية روتينية. يسألني كيف حالي. سؤال مألوف في عيادة الطبيب وليس له أن يسبب أي اضطراب. وعلى الرغم من ذلك أجد نفسي أنفجر بالبكاء. الطبيب من أصدقائنا. حضرنا أنا وجون حفل زفافه. تزوج ابنة زوجين من أصدقائنا كانا يعيشان على الجانب الآخر من شارع منزلنا في برينتوود بارك. تمت مراسم الزفاف تحت شجرة الجاكاراندا في حديقة منزلهم. في الأيام الأولى التي أعقبت وفاة جون كان قد زارني بضع مرات. عندما كانت كوينتانا في بيت إسرائيل نورث ذهب معي إلى المستشفى وتحدث إلى الأطباء في وحدة العناية المركزة. وعندما كانت في كولومبيا برسبيتيريان، التي كان يعمل فيها، وعلى الرغم من أنه لم يكن الطبيب المشرف عليها، كان يأتي لرؤيتها والاطمئنان عليها كل مساء. عندما كانت في مركز UCLA الطبي وصادف أن كان هو في كاليفورنيا اغتنم فرصة عدم انشغاله في إحدى الأمسيات وأتى إلى وحدة الأمراض العصبية ليتحدث إلى الأطباء هناك. تحدث إليهم وبعد ذلك تحدث إلى المختصين في مجال الأعصاب في كولومبيا وأتى بعد ذلك ليشرح لي الوضع بالكامل. كان لطيفاً وداعماً ومتفهماً ومؤازراً وصديقاً حقيقياً. وكيف رددت له الجميل؟ جلست أبكي في عيادته عندما سألني كيف حالي!

«لا يمكنني أن أرى الجانب المشرق في ما حدث»، سمعت نفسي أقول له مفسرة تصرفي.

قال لي بعد ذلك إنه لو حدث وكان جون جالساً معنا الآن لوجد ما قلته مضحكاً، كما كان هو نفسه قد وجده كذلك. «أدرك طبعاً ما تقصدين بكلامكِ، كان جون سيدرك ذلك أيضاً، ما قصدتِ قوله هو أنكِ عاجزة عن رؤية الضوء في آخر النفق».

وافقته، لكن ما قاله لم يكن صحيحاً.

ما قصدته هو ما قلته تماماً: لا يمكنني أن أرى الجانب المشرق في ما حدث.

عندما فكرت في الفرق بين العبارتين أدركت أنني أعتبر نفسي شخصاً يمكنه أن يبحث عن الجانب المشرق في كل ما يحدث، وأن يجده. كنت أؤمن بذلك المنطق الذي تقوم عليه الأغاني الشعبية. بحثت عن بارقة الأمل[1]. أكملت طريقي رغم العاصفة[2]. يخطر لي الآن أن تلك لم تكن حتى من أغاني جيلي. كانت تلك أغاني، ومنطق، الجيل أو الجيلين السابقين للجيل الذي أنتمي إليه. ما ألهم أبناء جيلي كانت أغنية how high the moon التي أداها لي بول وماري فورد، القائمة على منطق مختلف تماماً. خطر لي أيضاً، ولم تكن تلك فكرة أصيلة لدي إنما جديدة علي، أن منطق تلك الأغاني الغابرة كان قائماً على الإشفاق على الذات. من قاموا بغناء تلك الأغنية التي تتحدث عن «بارقة الأمل» كانوا يؤمنون بأن الغيوم تعترض طريقهم. من غنّى عن السير وسط العاصفة كان يؤمن بأن العاصفة ستطرحه أرضاً إن لم يكمل طريقه.

ما لبثت أقول لنفسي إنني كنت محظوظة طوال عمري. الموضوع، كما رأيته، كان أن ذلك لا يعطيني الحق بأن أفكر في نفسي كشخص تعيس الحظ.

هذا ما وصلت إليه لاقتناعي بالقدرة على تجاوز مسألة الإشفاق على الذات.

حتى أنني صدقت الأمر.

لكنني بعد ذلك بدأت أتساءل: ما علاقة الحظ بذلك؟ عندما تأملت في الأمر لم أستطع أن أعثر على أي مناسبات لعب فيها «حسن الحظ» دوراً في حياتي («كان هذا من حسن حظي» قلت ذات مرة لطبيبة بعد أن كشف الفحص الطبي عن وجود حالة صحية قابلة للعلاج كانت

1- تلميح إلى أغنية the silver lining وهي أغنية شعبية أدتها فرقة سويدية، وقد استلهمت عنوانها من مقولة باللغة الإنجليزية، وهي every cloud has a silver lining أي أن هناك بارقة أمل في كل غيمة.

2- تلميح إلى أغنية You'll Never Walk Alone

ستصبح مستعصية لو لم يتم الكشف عنها في الوقت المناسب. «ما كنت لأسمي هذا حسن حظ» قالت الطبيبة، «إنما أسميه خطة لعب»). حتى أنا لم أصدق أن «الحظ التعس» هو ما قتل جون وطرح كوينتانا مريضة في الفراش. حدث ذات مرة عندما كانت لا تزال في مدرسة ويستليك للبنات، أن تحدثت عما وصفته بالتوزيع غير العادل للأخبار السيئة. عندما كانت في الصف التاسع عادت إلى المنزل من منتجع في يوسمايت لتتلقى خبر انتحار عمها ستيفن. عندما كانت في الصف الحادي عشر استيقظت عند السادسة والنصف صباحاً في منزل سوزان على خبر مقتل دومينيك. «معظم من أعرفهم في ويستليك لم يتلقوا أخباراً عن موت أحد من معارفهم أو كارثة في حياة أقربائهم»، قالت، «وخلال فترة تواجدي هناك وقعت حادثة انتحار وجريمة قتل في عائلتي».

«في النهاية لا بد أن يتساوى الجميع في ذلك»، قال جون، جوابه أربكني (ما الذي عناه بذلك؟ ألم يكن بإمكانه التعبير عن ذلك بصورة أفضل؟) لكنه كان جواباً مرضياً لها.

بعد ذلك بعدة سنوات، بعد أن فارق والد ووالدة سوزان الحياة لا يفصل بينهما سوى عام أو اثنين، سألتني سوزان ما إذا كنت أذكر حين قال جون لكوينتانا إنه لا بد للجميع أن يتساوى في ذلك يوماً ما، نعم *أتذكر*، قلت لها.

«كان محقاً». قالت سوزان. « في النهاية لا بد أن يتساوى الجميع في ذلك».

أتذكر أنني صُدمت حينها. لم يخطر ببالي أبداً أن ما كان جون يعنيه هو أن الأخبار السيئة ستصل إلى كل واحد منا في النهاية. ربما تكون كوينتانا أو سوزان قد أخطأتا فهم عبارته. شرحت لسوزان أن ما قصده جون كان شيئاً مختلفاً تماماً: ما عناه جون بكلامه هو أن الأشخاص الذي يتلقون أخباراً سيئة سيحصلون هم أيضاً على نصيبهم من الأخبار الجيدة.

«ليس هذا ما قصدته إطلاقاً» قال جون.

«أعرف ما الذي قصده»، قالت سوزان.

«هل كنت أنا من أخطأ الفهم؟»

لنعد إلى موضوع «الحظ».

لم أكن على يقين من أن «الحظ التعس» لم يكن له أي دور في موت جون وطرح كوينتانا مريضة في الفراش وحسب، بل كنت في الواقع أؤمن بعكس ذلك تماماً... كان يجب أن أكون قادرة على منع كل ما حدث... هذا ما كنت أؤمن به! لم يكن قد خطر لي أنّ ثمة جانباً معيناً لم أكن أحمّل نفسي المسؤولية فيه إلا بعد رؤية ذلك الحلم الذي تُركت فيه وحيدة في مدرج مطار سانتا مونيكا. كنت أحمّل المسؤولية لجون وكوينتانا، فرق كبير لكنه لم ينجح في إيصالي إلى أي مكان.

دعي الأمور على حالها ولو لمرة واحدة في حياتكِ.

-15-

بعد وفاة جون ببضعة أشهر، في وقت متأخر من شتاء العام 2004، وبعد حقبة مستشفى بيت إسرائيل وبرسبيتيريان، ولكن قبل حقبة مركز UCLA الطبي، سألني روبرت سيلفرز من مجلة نيويورك ريفيو أوف بوكس إذا كنت أريد منه أن يدرج اسمي في القائمة التي ستغطي المؤتمرين الصيفيين للحزبين الجمهوري والديمقراطي. نظرت إلى التواريخ: مؤتمر الحزب الديمقراطي في أواخر يوليو في بوسطن، ومؤتمر الحزب الجمهوري قبل أسبوع من تاريخ عيد العمال في نيويورك. أجبته بنعم. بدا لي ذلك في تلك الفترة وسيلة للالتزام بعيش حياة طبيعية من دون الحاجة إلى عيشها فعلياً حتى يكون الربيع قد أتى ومضى والصيف قد حل وانقضى والخريف قد اقترب. أتى الربيع ومضى، وقضيت جلّه في مركز UCLA الطبي.

في منتصف يوليو خرجت كوينتانا من معهد راسك الطبي.

بعد ذلك بعشرة أيام ذهبت إلى بوسطن لأغطي مؤتمر الحزب الديمقراطي. لم أكن أتوقع أن حالة الضعف التي باتت سمة جديدة عندي ستسافر معي إلى بوسطن، المدينة الخالية، كما كنت أظن، من أي ارتباطات أو صِلات لها أن تورطني في لعبة الذكريات. كنت قد ذهبت إلى بوسطن بصحبة كوينتانا مرة واحدة فقط عندما كنت أقوم بجولة عمل. نزلنا في فندق الريتز حينها. محطتها المفضلة في تلك الجولة كانت دالاس. كانت قد وجدت بوسطن «بيضاء بالكامل». *تقصدين*

أنكِ لم تشاهدي فيها الكثير من الأشخاص السود؟ سألتها والدة سوزان ترايلور لدى عودتها إلى ماليبو بعد أن حكت لهم عن رحلتها. «لا»، قالت كوينتانا. «أقصد أنها كانت مدينة بلا لون».

آخر عدة مرات كان علي فيها أن أتواجد في بوسطن كنت قد سافرت إليها بمفردي، وفي كل مرة كنت أرتّب يومي فيها بحيث أفرغ من عملي في الوقت المناسب لأتمكن من اللحاق بالرحلة الأخيرة المغادرة منها. المرة الوحيدة التي كنت فيها بصحبة جون كانت من أجل حضور العرض الأول لفيلم True Confessions «اعترافات صادقة»، وكل ما أذكره عن تلك الرحلة كان تناول الغداء في فندق الريتز والسير بصحبة جون إلى بروكس براذرز لشراء قميص بعد أن كان الفيلم قد عُرض وتم تقييم ردود الفعل، والاستماع إلى التقييم المحبط لآفاق الفيلم التجارية، بيّن البحث التسويقي أنه: «*ممكن لفيلم اعترافات صادقة أن يحقق نجاحاً لافتاً بين أوساط المشاهدين البالغين ابتداءً من عمر ست عشرة سنة مضافة إليها أعوام من الدراسة*». ما كنت لأنزل في فندق الريتز.

لم أكن بحاجة إلى الذهاب إلى بروكس بروذرز. سيتم إجراء أبحاث تسويقية، لكن مهما كانت الأخبار السيئة التي ستسفر عنها فلن يكون لي أي علاقة بها.

لم أدرك أن ثمة مجالاً للخطأ إلا وأنا أسير في اتجاه فليت سنتر لحضور افتتاح المؤتمر وأشعر بالدموع تطفر من عينَي. اليوم الأول من مؤتمر الحزب الديمقراطي كان في 26 يوليو 2004. حفل زفاف كوينتانا كان في 26 يوليو 2003. حتى وأنا أنتظر في طابور التفتيش الأمني، حتى وأنا أجمع المقالات في المركز الصحفي، حتى وأنا أبتاع شطيرة همبرغر من فرع ماكدونالدز في فليت سنتر وأجلس لأتناولها على الدرجة الأخيرة من ذلك السلم المزود بدرابزين... كانت الذكريات بكل تفاصيلها تعود إلي. «في عالم آخر» كانت العبارة التي لا تني تتردد في ذهني. كوينتانا تجلس في ضوء الشمس المتسلل إلى غرفة الجلوس تجدّل شعرها.

جون يسألني أي ربطة عنق تليق به أكثر ويفتح صناديق الزهور على العشب خارج الكاتدرائية ويهزّ الأكاليل لينفض عنها قطرات المياه التي علقت بها. البهجة التي شعر بها في يوم الاحتفال والسعادة المرتسمة على ملامحها. «لأكثر من يوم واحد بعد»، كان قد همس في أذنها قبل أن يسير معها إلى الهيكل.

«لأكثر من يوم واحد بعد»، كان قد همس في أذنها عندما كان يزورها في الأيام والليالي الخمس التي مكثتها في وحدة العناية المركزة في مستشفى بيت إسرائيل نورث وهو ما يزال على قيد الحياة.

«لأكثر من يوم واحد بعد»، كنت قد همست لها في غيابه، في تلك الأيام والليالي التي أعقبت رحيله.

كما اعتدت أن تقول لي، كانت قد قالت عندما وقفت بثوبها الأسود في كاتدرائية القديس جون في اليوم الذي أودعنا فيه رماده.

أتذكر ذلك اليقين الجارف الذي استحوذ علي وأنبأني بأنني يجب أن أغادر فليت سنتر بأسرع ما يمكن. في ذلك الوقت لم أكن قد اختبرت نوبات الهلع إلا لماماً، لكن ما حدث بعد ذلك كان مثيراً للهلع بصورة لا تُنسى. أتذكر محاولتي تهدئة نفسي بالنظر إلى ذلك على أنه فيلم هيتشكوكي تم إخراج كل لقطة فيه بكل براعة لتبث الرعب في من يشاهدها، وتجعله يشعر في الوقت نفسه بأنه في قلب لعبة. كنت في جوار الجزء المخصص لي عند طرف الشبكة التي ستتلقى البالونات عندما تسقط. كانت ثمة ظلال تتحرك على المنصات المرتفعة. كان ثمة بخار أو دخان يتصاعد من المقصورات العالية. وبمجرد أن فررت من مقعدي، ظهرت أمامي ممرات بدت كأنها تفضي إلى حيز فارغ لا مكان فيه... حيز أُخلي من موجوداته ومعالمه بصورة غامضة، الجدران فيه كانت مائلة وملتوية (لا بد أن فيلم هيتشكوك الذي كنت أشاهده هو *Spellbound*) رأيت السلالم الكهربائية الجامدة بلا حراك. دخلت مصاعد لا تستجيب ولا تتحرك عندما أضغط أزرارها. وما إن تمكنت

من هبوط السلالم حتى رأيت قطارات النقل السريع فارغة وجامدة في مكانها وراء الجدار الزجاجي (الذي بدا أيضاً مائلاً وملتوياً عندما اقتربت منه) وتفتح أبوابها على سكك محطة الشمال.

هكذا فررت من فليت سنتر.

شاهدت نهاية تجمّع تلك الليلة على التلفاز في غرفتي في فندق باركر هاوس. عندما دخلت غرفتي في باركر هاوس لأول مرة شعرت فيها بانطباع الرؤية المسبق لمشهد كنت قد مسحته من ذاكرتي. الآن فقط، وأنا أشاهد قناة C-SPAN وأستمع إلى صوت مكيف الهواء وهو يتوقف عن العمل ويقلع من جديد حسب الجدول الزمني الذي لا يحيد عنه، تذكرت: كنت قد نزلت في غرفة شبيهة تماماً لهذه في باركر هاوس لبضع ليالٍ في مرحلة ما من سنوات دراستي بين الإعدادية والثانوية في مدرسة بيركلي. كنت في نيويورك من أجل حملة ترويجية نظمتها مجلة مادموزيل لمدرسة البنات (كنت «الضيف المحرّر» ضمن البرنامج الذي ذكرته سيلفيا بلاث[1] في روايتها *The Bell Jar* «الناقوس الزجاجي») وفي طريق عودتي إلى كاليفورنيا عبر بوسطن وكيبيك، كان هناك رحلة «تعليمية»، أتذكرها الآن بصورة ضبابية، وكانت من تنظيم والدتي. كان مكيف الهواء يعيش دورة حياة خاصة به بين توقف عن العمل وإقلاع من جديد منذ العام 1955. أتذكر الآن أنني كنت أنام حتى فترة بعد الظهر لأستيقظ بعد ذلك وأنا أشعر بالبؤس، وأخرج بعد ذلك لأستقل قطار الأنفاق متجهة إلى كامبريدج حيث لا بد أنني كنت أهيم على وجهي سائرة بلا هدى لأعود أدراجي بالقطار أيضاً.

كانت شذرات الذكريات القادمة من العام 1955 تعود إلي بتلك الطريقة

1- شاعرة وروائية وكاتبة قصة قصيرة أمريكية. ولدت في بوسطن، ماساتشوستس، درست في كلية سميث وكلية نيونهام في جامعة كامبريدج، قبل أن تحصل على إشادة كشاعرة وكاتبة. تزوجت زميلها الشاعر تيد هيوز في عام 1956. كانا يعيشان معا في الولايات المتحدة، ثم إنجلترا، وأنجبا طفلين، فريدا ونيكولاس. أصيبت بالاكتئاب، وماتت منتحرة في العام 1963.

المتشظية (أو «المتقطعة»، أو «*الموشوشة*» حتى) من قبيل (ماذا فعلت في كامبريدج، ما الذي يمكن أن أكون قد فعلته في كامبريدج؟) حتى أنني كنت أواجه صعوبة في تذكرها، لكنني لم أكف عن محاولة استحضارها، ذلك أنني أثناء تفكيري في صيف العام 1955 لم أكن أفكر في جون أو كوينتانا. في صيف العام 1955 استقللت القطار من نيويورك إلى بوسطن.

في صيف العام 1955 استقللت القطار من بوسطن إلى كيبيك. نزلت في غرفة في فندق شاتو فرونتناك لم يكن فيها حوض استحمام خاص بها.

هل تحاول الأمهات دائماً أن يفرضن على بناتهن رحلات ومشاريع كن هن أنفسهن يحلمن بها؟ أكنت أنا واحدة منهن؟

لم يكن هذا يجدي نفعاً.

حاولت أن أعود بذاكرتي إلى ما قبل العام 1955، إلى ساكرامنتو، إلى رقصات المدرسة الثانوية في موسم الأعياد.

أشعرني هذا بالأمان وبعض السكينة. فكرت في أسلوب الرقص الذي كنا نعتمده، حيث كنا نرقص لا تفصل بيننا سوى مسافة بسيطة. فكرت في الأماكن التي كنا نذهب إليها على ضفة النهر بعد جولات الرقص. فكرت في الضباب المخيم على السد وأنا في طريق عودتي إلى المنزل. غلبني النعاس من محاولة التركيز على الضباب الذي يكتنف السد. استيقظت عند الرابعة صباحاً. الجزئية التي جعلتني أركز على موضوع الضباب المخيم على السد أكثر من باقي الذكريات هي أنه كان كثيفاً بحيث لم يكن من الممكن رؤية الخط الأبيض، وكان على أحدهم أن يسير أمام السيارة ليرشد السائق. لسوء الحظ كان في حياتي مكان آخر يتكاثف الضباب فيه لدرجة تضطرني إلى أن أسير أمام السيارة... منزلنا في شبه جزيرة بالوس فيرديس.

المنزل الذي جلبنا كوينتانا إليه عندما كان عمرها ثلاثة أيام.

ما إن تخرج من طريق هاربور السريع عبر سان بيدرو إلى الشارع المطل على البحر حتى يهجم عليك الضباب من كل اتجاه.

أنا من كان يخرج من السيارة ليدل السائق على الخط الأبيض.

جون كان السائق.

لم أخاطر في انتظار نوبة الهلع التي كانت ستأتي بعد ذلك. استقللت سيارة أجرة إلى لوغان. وأنا أبتاع القهوة من مقهى ستارباكس الواقع أمام شركة دلتا للطيران تجنبت النظر إلى أطر أبوابه ونوافذه المزينة بأشرطة ورق القصدير الأحمر والأبيض والأزرق، والمقصود منها أن تكون لمسة احتفالية «للمؤتمر»، لكنها كانت تبدو بدلاً من ذلك بهرجة بائسة لعيد الميلاد في المناطق الاستوائية. Mele Kalikimika [1]. عيد ميلاد مجيد بلغة أهل هاواي. *ساعة المنبه السوداء الصغيرة التي لم أتمكن من رميها. أقلام تلوين بوفالو التي جفت ولم أتمكن من رميها*. على متن الطائرة المتجهة إلى لاغوارديا تذكرت أن أجمل الأشياء التي رأيتها في حياتي كانت من نوافذ الطائرات التي سافرت على متنها. الطريقة التي يتكشف بها جمال الغرب الأمريكي... كيف يفضي البحر إلى البحيرات على اليابسة بانسيابية مدهشة عندما تراه من نافذة طائرة تحلق عبر القطب الشمالي... البحر الممتد بين اليونان وقبرص في الصباح... جبال الألب في الطريق إلى ميلانو.

رأيت كل هذه المشاهد بصحبة جون.

كيف لي أن أعود إلى باريس من دونه، كيف لي أن أعود إلى ميلانو، إلى هونولولو، إلى بوغوتا. لم يكن بإمكاني أن أذهب إلى بوسطن حتى.

قبل مؤتمر الحزب الديمقراطي بنحو أسبوع، أورد دينيس أوفرباي من صحيفة نيويورك تايمز قصة كان بطلها ستيفن هوكينغ. في أحد المؤتمرات المنعقدة في دبلن، بحسب صحيفة التايمز، اعترف الدكتور هوكينغ بأنه كان على خطأ منذ ثلاثين عاماً عندما أكّد أن المعلومات والبيانات التي يبتلعها الثقب الأسود لا يمكن استعادتها أبداً. هذا التغيّر

1- أغنية عيد الميلاد في هاواي.

الجذري كان «له تداعيات عظيمة الشأن على الصعيد العلمي» ودائماً بحسب التايمز «لأنه إذا كان الدكتور هوكينغ على حق، فإن كلامه هذا سينقض مبدأً أساسياً في علم الفيزياء الحديث: من الممكن دائماً إذاً العودة بالزمن إلى الوراء... إرجاع شريط الفيلم إلى بدايته لنعيد بناء ما حدث مثلاً في حادث اصطدام مروري أو سقوط نجم ميت في الثقب الأسود».

انتزعت تلك الصفحة التي تحمل المقال من الجريدة وأخذتها معي إلى بوسطن.

شيء ما في تلك القصة بدا بالغ الأهمية بالنسبة إلي، لكنني لم أعلم ما هذا الشيء إلا بعد شهر من ذلك، في اليوم الأول من مؤتمر الحزب الجمهوري في ماديسون سكوير جاردن. كنت على السلم الكهربائي في البرج C. آخر مرة استقللت فيها سلماً كهربائياً كهذا في ماديسون سكوير كانت بصحبة جون في الليلة التي سبقت سفرنا إلى باريس في شهر نوفمبر. كنا قد ذهبنا بصحبة ديفيد وجين هاليبرستام لنشاهد المباراة بين فريقي الليكرز ونيكس. حصل ديفيد على المقاعد من عضو لجنة اتحاد كرة السلة، ديفيد ستيرن. فاز فريق الليكرز. كان المطر يتساقط بغزارة ويسيل على الزجاج القائم وراء السلم الكهربائي. أتذكر جون عندما قال: «هذا نذير خير وحظ طيب، يا لها من بداية رائعة لرحلتنا!». لم يكن يتحدث عن المقاعد في الصفوف الأمامية، ولا عن فوز الليكرز، كما لم يكن يقصد المطر بكلامه... المعنى من كلامه كان أننا نقوم بفعل شيء لم نكن نفعله في العادة، الأمر الذي كان قد أصبح يجسّد هماً واهتماماً خاصاً بالنسبة إليه. لم نكن نحظى بأي وقت ممتع... لم نكن نستمتع بحياتنا. كان قد بدأ يثير هذ الموضوع كثيراً في أحاديثنا مؤخراً. كنت أعارضه وأشير إلى بعض الاستثناءات (ألم نفعل هذا، ألم نقم بذاك، ألم نذهب إلى هنا وهناك؟) لكنني كنت أدرك أيضاً ما الذي كان يعنيه. كان يريد لنا أن نفعل أشياءَ ليس لأنه من المتوقع منا أن نفعلها، ولا لأننا قد

اعتدنا أن نفعلها، ولا لأنه لزام علينا أن نفعلها، بل أشياء نرغب فعلاً في فعلها. كان يقصد الإرادة والرغبة. كان يقصد الحياة، الحياة ببساطة.

هذه الرحلة إلى باريس كانت تلك التي تجادلنا بخصوصها.

هذه الرحلة إلى باريس كانت تلك التي قال عنها إنه بحاجة للقيام بها الآن، لأنه إن لم يفعل ذلك الآن فلن يرى باريس مرة أخرى.

كنت لا أزال على السلم الكهربائي في البرج C.

دوامة أخرى كشفت عن وجهها.

المرة الأخيرة التي غطيت فيها مؤتمراً في ماديسون سكوير جاردن كانت في العام 1992، وقد كان مؤتمراً للحزب الديمقراطي.

كان جون ينتظر كل يوم أن آتي إلى المجمع السكني عند الساعة الحادية عشرة لنتناول العشاء معاً. كنا نذهب سيراً على الأقدام إلى مطعم كوكو بازو في ليالي يوليو الحارة تلك، ونتقاسم طبق الباستا والسلطة ونجلس إلى إحدى الطاولات الصغيرة المتاحة قرب البار. لا أذكر أننا كنا قد ناقشنا ولو مرة واحدة مجريات المؤتمر خلال جلسات العشاء المتأخرة تلك. وفي مساء يوم الأحد قبل أن تبدأ فعاليات المؤتمر أقنعته بأن يذهب معي إلى الحي السكني لحضور إحدى الفعاليات التي ينظمها لويس فرخان[1] والتي لم يُكتب لها أن تحدث، وبين الطبيعة الارتجالية لجدولة الدعوة والعودة إلى وسط المدينة سيراً على الأقدام من الشارع رقم 125 كان صبره من مؤتمر الحزب الديمقراطي وكل ما يمت له بصِلة قد نفد تماماً.

لكنه على الرغم من ذلك كان ينتظرني كل مساء لنتناول العشاء معاً. فكرت في كل هذا وأنا على السلم الكهربائي في البرج C وفجأة خطر لي التالي: لبثت دقيقة أو اثنتين على هذا السلّم الكهربائي أفكر في ليلة

1- زعيم التنظيم السياسي والديني أمة الإسلام منذ عام 1981. اشتهر بتنظيم مسيرة المليون شخص في واشنطن العاصمة عام 1995.

من ليالي نوفمبر العام 2003 قبل أن نسافر جواً إلى باريس، وفي ليالي يوليو تلك من العام 1992 حين كنا نتناول العشاء في وقت متأخر في مطعم كوكو بازو، وفي ذلك المساء حيث وقفنا قرب شارع 125 في انتظار تلك الفعالية التي نظمها لويس فرخان والتي لم تبصر النور. كنت قد وقفت على السلم الكهربائي أفكر في تلك الأيام والليالي من دون أن يخطر ببالي أبداً أن بإمكاني تغيير ما انتهت إليه. أدركت أنني، ومنذ الصباح الأخير في العام 2003، أول صباح أعيشه بعد وفاته، كنت أحاول أن أعكس خط سير الزمن، أن أعيده إلى الوراء، أن أعيد شريط الفيلم إلى الخلف.

كان هذا في 30 أغسطس 2004، أي بعد الوفاة بثمانية أشهر، وها أنا ما زلت أحاول.

كنت في ما مضى أحاول أن أبدل بكرة الفيلم بأخرى. أما الآن فأنا أحاول فقط أن أعيد كتابة مشهد الاصطدام، أن أرجع واقعة سقوط النجم الميت إلى الوراء.

-16-

قلت إنني كنت أعرف ما قصده جون حين قال إننا لم نكن نستمتع بحياتنا.

ما قصده كان شيئاً له علاقة بجوي وغيرترود بلاك، وهما زوجان التقينا بهما في إندونيسيا في ديسمبر العام 1980 أثناء قيامنا برحلة أرسلتنا إليها وكالة الإعلام الأمريكية USIA لإلقاء محاضرات ولقاء مجموعة من الكتّاب والأكاديميين من إندونيسيا. ذات صباح دخل آل بلاك قاعة الدرس في جامعة غادجاه مادا في يوغياكارتا... زوجان أمريكيان بدَوا كأنهما في بيئتهما الطبيعية في تلك البقعة المدارية النائية، والغريبة على أكثر من صعيد، في جاوة الوسطى. كان لهما وجهان بملامح واضحة ومشرقة بصورة صادمة. «ما رأيكِ بالنظريات المحورية للسيد أيفور آرمسترونغ ريتشاردز[1]؟» أتذكر أحد الطلبة وهو يوجه إلي هذا السؤال. جوي بلاك كان حينها في الخمسينيات من عمره، وكانت غيرترود أصغر منه بعام أو اثنين، ولكنها قد تجاوزت الخمسين كما بدا لي. استقال من عمله في مؤسسة روكفلر وقدِم إلى جاكرتا ليدرّس العلوم السياسية في جامعة غادجاه مادا. وكان قد نشأ في ولاية أوتاه. في شبابه كان قد ظهر

1- ناقد أدبي وعالم بلاغة. تلقى تعليمه في الكلية المجدلية في كامبريدج. أثّرت كتبه في توجهات النقد الجديد ككتاب «معنى المعنى» و«مبادئ النقد الأدبي» و«النقد العملي» و«فلسفة البلاغة». قاد مبدأ «النقد العملي إلى تطبيقات «القراءة الوثيقة» التي يعتقد أنها أسست لبدايات النقد الأدبي الحديث. يعتبر ريتشاردز أحد مؤسسي دراسات الأدب الإنجليزي المعاصرة.

في فيلم fort Apache للمخرج جون فورد في دور ثانوي. له ولغيرترود أربعة أبناء، كان أحدهم، على حد تعبيره، قد تأثر بشدة بأجواء ستينيات القرن الماضي. تبادلنا الحديث مع آل بلاك مرتين فقط، مرة في جامعة غادجاه مادا، وبعد ذلك بيوم واحد عندما أتيا لوداعنا في المطار، لكن كان حديثنا في المرتين صريحاً بصورة غريبة، وكأننا قد وجدنا أنفسنا عالقين معاً على سطح جزيرة معزولة ولم نكن مضطرين إلى إخفاء شيء عن بعضنا. كان جون يذكر جوي وغيرترود كثيراً خلال السنوات التي عاشها بعد لقائهما، وفي كل مرة كان يضربهما كمثال عما كان بالنسبة إليه النموذج الأفضل للشعب الأمريكي. كانا يجسدان شيئاً شخصياً وخاصاً بالنسبة إليه. كانا نموذجين للحياة التي أراد لنا أن نعيشها في نهاية المطاف. ولأنه كان قد ذكرهما مرة أخرى قبل بضعة أيام من وفاته، بحثت في حاسوبه الشخصي عن اسميهما. وجدت اسميهما في ملف أسماه «أفكار عشوائية»، واحد من تلك الملفات التي كان يسجل فيها ملاحظات عن الكتاب الذي كان يحاول أن يؤلفه. الملاحظة المذكورة خلف اسميهما كانت مشفّرة «جوي وغيرترود بلاك: مفهوم الخدمة»

عرفت ما الذي كان يقصده هنا أيضاً.

أراد أن يكون هو جوي وغيرترود بلاك. أنا أيضاً أردت ذلك. لم ننجح. «بدد الوقت» كان هذا التعريف اللغوي قد ورد في صفحة الكلمات المتقاطعة ذلك الصباح. الكلمة التي يشرح معناها كانت من أربعة أحرف «أهدَر» أو ربما «أضاع». أكان هذا ما فعلناه بأنفسنا؟ أكان هذا ما ظن أننا فعلناه؟

لماذا لم أستمع إليه عندما قال إننا لم نكن نستمتع بحياتنا؟

لماذا لم أبادر إلى تغيير طريقة عيشنا؟

تبعاً لما ظهر على حاسوبه الشخصي فإن آخر تاريخ لتحديث الملف الذي يحمل اسم «أفكار عشوائية» كان في 30 ديسمبر 2003، أي في يوم وفاته، بعد ست دقائق من الوقت الذي قمت فيه أنا بحفظ ملف

ينتهي النص فيه بشرح الكيفية التي تتحول فيها «الإنفلونزا» إلى التهاب يصيب كامل الجسم. لا بد أنه كان حينها في مكتبه وأنا كنت في مكتبي. لا أستطيع أن أتجنب بلوغ تلك النقطة التي يقودني إليها كل هذا. كان يجب أن نكون معاً. ليس بالضرورة في قاعة درس في جاوة الوسطى (لست واهمة إلى الحد الذي أرى عنده ذلك السيناريو وارداً، كما لم تكن قاعة الدرس في جاوة الوسطى هي ما قصده) لكن أن نكون معاً. الملف المعنون «أفكار عشوائية» كان يحتوي على ثمانين صفحة. ما الذي كان قد أضافه أو عدّله وبعد ذلك حفظه في الساعة 1:08 من تلك الظهيرة؟ سؤال لن أجد جواباً له أبداً.

-17-

اتضح أن ألم الفقدان هو مكان لا يمكن لأحد أن يدرك كنهه إلا بعد أن يصل إليه. نتوقع، أو نعلم، أن شخصاً من أعزائنا أو أقاربنا قد يموت، لكننا لا نفكر في الأيام والأسابيع القليلة التي تعقب هذا الموت المتوقع. حتى إننا نسيء تفسير معنى تلك الأيام والأسابيع القليلة المتبقية. ربما نتوقع أن نتعرض إلى صدمة تُخل بتوازننا إذا ما حدث هذا الموت فجأة. لكننا لا نتوقع أن تكون هذه الصدمة مدمرة ومخلخلة للعقل والجسد في آن معاً. قد نتوقع أن نصبح مرضى ومحزونين ومختلين من هول هذه الصدمة. لكننا لا نتوقع أبداً أن نصبح مجانين بمعنى الكلمة، وعملاء «كول» في المستشفيات يعتقدون أن أزواجهم سيعودون إليهم قريباً وسيكونون بحاجة إلى أحذيتهم. في السيناريو الذي نتخيله عن ألم الفقدان، يكون النموذج هو «التعافي من الصدمة». حكم مسبق يفرض نفسه: الأيام الأولى التي تعقب الفاجعة ستكون الأسوأ. نتخيل أن اللحظة التي ستمتحننا بقسوة ستكون الجنازة، وبعدها ستبدأ مرحلة التعافي المفترضة. في انتظار يوم الجنازة نتساءل ما إذا كنا «سنتجاوز المحنة»، وسنتعامل معها بثبات، وسنظهر «قوة» ستكون، بالنسبة إلى كل من يرانا، رد الفعل الأمثل في مواجهة حدث جلل كالموت. نتوقع أن نكون بحاجة إلى تحصين أنفسنا وتهيئتها من أجل تلك اللحظة: هل سأكون قادراً على مصافحة المعزين، هل سأكون قادراً على مغادرة المكان بعد ذلك، هل سأكون قادراً حتى على ارتداء ملابسي في ذلك اليوم؟ ما من وسيلة تمكننا من معرفة أن المحنة لن تكون في كل ما

أسلف ذكره. ما من وسيلة تمكننا من إدراك أن الجنازة بحد ذاتها ستكون عقّارنا المهدئ، ونوعاً من النكوص المخدّر الذي نغلف به أنفسنا بمعونة الاهتمام الذي يشملنا به المعزون وجسامة الحدث ومعناه. كما لا يمكننا أن ندرك مسبقاً، وهنا يكمن جوهر الفرق بين ألم الفقدان كما نتخيله وألم الفقدان كما هو في الواقع، ذلك الشعور اللامتناهي بالغياب الذي يأتي بعد ذلك، ذلك الشعور بالخواء، بأننا أمام نقيض المعنى بكل تمامه، بتلك الاستمرارية عديمة الرحمة للّحظات التي نعيش خلالها اللامعنى بكل قسوته.

وأنا طفلة فكرت كثيراً في اللامعنى، الذي بدا لي في ذلك الوقت الصفة السلبية الأبرز في الأفق. بعد عدة سنوات من الفشل في العثور على المعنى في أكثر المواقع التي يُنصح بالذهاب إليها للعثور عليه، علمت أنه بإمكاني العثور عليه في علم طبقات الأرض. مكنني هذا بدوره من العثور على المعنى في الدعاء الكنسي، وبشكل خاص في هذه الكلمات: كما كان في البداية، وكما هو الآن، وكما سيكون دائماً، العالم بلا نهاية، والذي فسرته كوصف حرفي للتغير المتواصل للأرض، التآكل اللانهائي للشواطئ والجبال، التحوّل عديم الرحمة للطبقات الجيولوجية الذي من شأنه أن يتقيأ الجبال والجزر وأن يرمي بها بعيداً عن منشأها. وجدت أن الزلازل، حتى عندما أكون في قلبها، مطمئنة على نحو غريب وعميق، وتكشف فجأة عن الدليل على المخطط أثناء حدوثه. وجدت أن ذلك المخطط الذي له أن يدمر أعمال الإنسان قد يكون عبارة عن ندم شخصي، لكنه يبقى، في الإطار الأوسع الذي تمكنت من إدراكه لاحقاً، مسألة لا مبالاة ملزمة. ما من عين كانت تراقب العصفور. ما من عين كانت تراقبني. كما كان في البداية، وكما هو الآن، وكما سيكون دائماً، العالم بلا نهاية. في اليوم الذي أُعلن فيه عن إسقاط القنبلة الذرية على هيروشيما كانت تلك هي الكلمات الأولى التي خطرت بذهن الطفلة بنت العشر سنوات التي كنتها. عندما

سمعت بعد ذلك بعدة سنوات عن التجارب النووية فوق صحراء نيفادا كانت تلك هي الكلمات التي ترددت في ذهني أيضاً. بدأت أستيقظ قبل الفجر متخيلةً الحمم النارية المنبعثة من إطلاقات تجربة نيفادا تضيء سماء ساكرامينتو. لاحقاً، بعد أن تزوجت وأصبح عندي طفلة، تعلمت أن أجد معنى مكافئاً في الطقوس المتكررة للحياة العائلية. تحضير المائدة. إشعال الشموع. وضع قطع الحطب في الموقد. الطبخ، أطباق السوفليه التي لا حصر لها، أطباق وأطباق من الكريم كراميل والدوبيز[1] والبونديجاس[2] والغامبوس[3]، الملاءات النظيفة، أكوام وأكوام من المناشف النظيفة، المصابيح الإعصارية تحسباً للعواصف، تأمين ما يكفي من الأكل والشرب استعداداً لأي طارئ قد تقذفه الطبيعة في طريقنا. «هذا الفتات الذي دعمت به أطلالي»[4] كانت الكلمات التي ترددت في رأسي عندها. هذا الفتات يعنيني.

هذا الفتات هو ما آمنت به. لم تبدُ قدرتي على إيجاد المعنى في الطبيعة الشخصية المكثفة لحياتي كزوجة وأم متعارضة مع إيجاد المعنى في اللامبالاة الهائلة لعلم طبقات الأرض والتجارب النووية... المنظومتان اللتان تواجدتا بالنسبة إلي على مسارين متوازيين يلتقيان من حين إلى آخر، وخاصة في الزلازل. في ذهني غير الخبير كانت ثمة نقطة واحدة يلتقي عندها مساران مرة أولى وأخيرة، موتي أنا وموت جون. عثرت مؤخراً على شبكة الإنترنت على صور مأخوذة من الجو للمنزل في شبه جزيرة بالوس فرديس الذي أقمنا فيه بداية زواجنا، المنزل الذي جلبنا إليه كوينتانا من مستشفى القديس جون في سانتا مونيكا ووضعناها في مهدها قرب نبتة الحلوة في غرفة الحديقة. الصور، التي كانت جزءاً من

1- يخنة من المطبخ الأوروبي.
2- كرات اللحم من المطبخ المكسيكي.
3- الباميا على الطريقة البرتغالية.
4- من قصيدة الأرض اليباب لإليوت.

مشروع لأرشفة صور شواطئ كاليفورنيا، وكان الغرض منه توثيق معالم الشريط الساحلي لكاليفورنيا كاملاً، كان من الصعب تبيّن تفاصيلها بصورة واضحة، لكن المنزل، كما كان حاله عندما كان منزلنا، بدا كأنه قد تلاشى. البرج الذي حل محل البوابة بدا سليماً، لكن باقي البناء كان غريباً تماماً. بدا كأن ثمة بركة سباحة في مكان نبتة الحلوة وغرفة الحديقة. المنطقة نفسها أشير إليها باسم «الانجراف الصخري للحيد البرتغالي». كان من الممكن رؤية الانهيارات الصخرية للتلة حيث حدث الانجراف. كان من الممكن أيضاً رؤية الكهف، قريباً جداً من قاعدة الجرف على الطرف، حيث اعتدنا أن نسبح عندما كان المد يجعل المياه تتدفق كما يجب، وترتفع المياه الصافية إلى المستوى المطلوب.

كانت تلك إحدى الطرق التي يمكن أن تلتقي بها المنظومتان اللتان تقوم عليهما حياتي. ونحن نسبح داخل الكهف مع ارتفاع مستوى المياه الصافية كان من الممكن أن ينهار الجانب الصخري كله وينزلق في مياه البحر من حولنا. انزلاق ذلك الجرف الصخري في البحر كان شكلاً من أشكال الختام الذي تنبأت به. لكنني ما تنبأت يوماً بقلب يتوقف على مائدة العشاء ليُعلن الختام.

ترى نفسك جالساً تتناول العشاء، وإذ بالحياة التي تعرفها تنتهي. أي شفقة على الذات تلك.

أولئك الذين يرزحون تحت وطأة ألم الفقدان يتفكرون كثيراً في موضوع الشفقة على الذات. تشغل بالنا، تُقلقنا، تُخيفنا، تُجبر أذهاننا على التقاط دلالاتها وإشاراتها. نخشى أن تفضح أفعالنا الحالة التي توصّفها بدقة عبارة «مسكون بها». نتفهم أن معظمنا مرغم على أن يكون «مسكوناً بها». الحزن الظاهر يذكرنا بالموت، وهو أمر يمكن تأويله كسلوك غير طبيعي، وفشل في إدارة الموقف. «تخسر شخصاً واحداً، فيصبح العالم كله فارغاً بالنسبة إليك»، كتب فيليب أرياس حول حالة الإرغام هذه في كتاب *Western Attitudes toward Death*

«مواقف الغرب من الموت». «لكن لا يعود من حق المرء أن يقول ذلك على الملأ وبصوت مسموع». نذكّر أنفسنا مراراً وتكراراً بأن خسارتنا لا شيء مقارنة بالخسارة التي اختبرها (أو لم يختبرها، وهي الفكرة الأشد مضاضةً) من ذاق الموت... هذه المحاولة على صعيد تصحيح مسار التفكير لا تفعل شيئاً سوى الغوص بنا أكثر في أغوار الأنانية والذاتية. (لماذا لم أفهم ذلك، لماذا أتصرف بهذه الأنانية) اللغة التي نستخدمها عندما نفكر في الشفقة على الذات تخون شعور المقت الدفين الذي نحمله تجاهها: الشفقة على الذات هي شعور المرء بالأسى على نفسه، الشفقة على الذات هي مص الإبهام، الشفقة على الذات هي صرخة «ويلي على حالي»، الشفقة على الذات هي الحالة التي ينغمس فيها، وربما يتمرغ فيها، هؤلاء الذين يشعرون بالأسى على أنفسهم. تبقى الشفقة على الذات النقيصة الإنسانية الأكثر شيوعاً والأكثر مقتاً في كل بقاع الأرض، والتي يؤخذ أثرها التدميري الوبائي كأمر مُسلّم به ويتم تقبلها كحكم لا مناص منه. «عدونا اللدود» هكذا أسمته هيلين كيلر[1]. «لم أرَ يوماً مخلوقاً برياً/ يشعر بالأسى على نفسه». بضعة أسطر كتبها دي إتش لورانس فتحولت إلى عبرة كثيراً ما تُقتبس، لكن تبين بعد المراجعة والتمحيص أنها لا تحتوي إلا على المعاني الجائرة والمتحاملة. «سيسقط ميتاً من البرد عصفور صغير من على غصن/ من دون حتى أن يشعر بالأسى على نفسه».

(ربما يكون هذا ما يفضّل لورنس (أو نحن) أن يعتقده بخصوص المخلوقات البرية، ولكن قبل أن نسلّم بصحة هذا الحكم علينا أن نتذكّر تلك الدلافين التي ترفض أن تأكل بعد وفاة شريك حياتها. أن نتذكر الإوز الذي لا يكف عن البحث عن شريكه المفقود إلى أن يفقد هو نفسه

1- أديبة ومحاضرة وناشطة أمريكية. عانت من المرض في عمر السنة وافترض أطباء الأطفال أنها مصابة بالحمى القرمزية التي تصنف بمرض التهاب الرأس مما أدى إلى فقدانها السمع والبصر تماماً.

اتجاهه وحياته في نهاية المطاف. في واقع الأمر يخلق ألم الفقدان أسباباً موجبة، بل حاجة ملحة إلى أن نشعر بالأسى على أنفسنا. يرحل الأزواج، ترحل الزوجات، يحدث الطلاق، لكن يترك هؤلاء الأزواج والزوجات وراءهم شبكة من الروابط السليمة، روابط قد تكون مؤلمة، لكنها تبقى حاضرة تؤنسنا حتى بقسوتها. وحده من يُفجع بموت عزيز يُترك وحيداً بكل ما للكلمة من معنى وقسوة. الروابط التي تتكون منها حياتهم - القوية منها والتي تبدو في الظاهر تافهة - إلى أن يأتي الوقت الذي تنهار فيه، تتلاشى كلها.) ظللنا أنا وجون متزوجين أربعين عاماً. طوال فترة زواجنا، ما عدا الأشهر الخمسة الأولى عندما كان جون لا يزال يعمل في صحيفة التايمز، كنا نعمل معاً من المنزل. كنا نبقى معاً أربعاً وعشرين ساعة في اليوم، حقيقة بقيت مصدر تندّر ومثار تساؤل ووساوس بالنسبة إلى أمي وخالاتي «في الغنى والفقر، في السرّاء والضرّاء، لكن ليس على مائدة الغداء». كانت واحدة منهن، لم أعد أعرف من بالضبط، لا تني ترددها في السنوات الأولى من زواجنا. ما كان بإمكاني أن أحصي الأفكار التي تخطر ببالي خلال اليوم والتي كنت أشعر بحاجة دائمة إلى أن أشاركه إياها. هذه الحاجة لم تمت بموته. ما مات بالفعل هو إمكانية سماع رد منه. أقرأ شيئاً ما في الأوراق التي كنت سأقرأها له لو كان لا يزال معي. ألاحظ تغيراً في الحي أعرف أنه كان سيثير اهتمامه: محلات رالف لورين قد وسّعت مساحة متاجرها بين الشارع الواحد والسبعين والثاني والسبعين مثلاً، أو العقار الخالي الذي كان في ما مضى متجر كتب ماديسون أفينيو قد تم تأجيره أخيراً. أتذكر في أحد الصباحات كيف عدت من سنترال بارك في منتصف شهر أغسطس وأنا أحمل إليه أخباراً عاجلة: خضرة الصيف الداكنة البديعة قد تلاشت عن الأشجار بين ليلة وضحاها، بدأ الجو يتغير ودخلنا في فصل الخريف. علينا أن نعد خطة لفصل الخريف، هكذا فكرت كما أذكر. يجب أن نقرر أين سنقضي عيد الشكر، وعيد الميلاد، وعيد رأس السنة.

أضع المفاتيح على الطاولة لدى وصولي إلى الغرفة قبل أن أتذكر بشكل كامل. ما من أحد هنا ليسمع هذه الأخبار، ما من مكان أذهب إليه بخطتي التي لم توضع بعد، والفكرة التي لم تكتمل بعد. ما من أحد هنا ليتفق، أو يختلف معي، أو حتى ليرد علي. «أظن أنني قد بدأت أفهم لماذا يتشابه ألم الفقدان مع الترقّب»، كتب كلايف ستيل لويس بعد موت زوجته. «مرد هذا إلى الإحباط المتأتي من الدوافع والحاجات الكثيرة التي قد أصبحت أمراً اعتيادياً. فكرة تلو أخرى، وشعور بعد آخر، وفعل يتلوه آخر، يصبح هذا جزءاً من حياتهم. هدفهم قد اختفى الآن. أظل بحكم العادة أضع السهم على الوتر وأموضعه جيداً وأسدد، وقبل أن أقذفه، أتذكر، وأضع القوس جانباً. كل الطرق كانت تقود تفكيري إليها. أما الآن فثمة حد أخير لا يمكن تجاوزه. الكثير من الطرق المفتوحة في ما مضى أصبحت الآن طرقاً مسدودة».

بتعبير آخر، كثيراً ما نجد أنفسنا عاجزين عن التركيز إلا على أنفسنا، وهذا مصدر يتدفق منه شعور الشفقة على الذات بصورة طبيعية. كلما حدث هذا (وهو أمر لا يزال يحدث) تصدمني مرة أخرى حالة غياب الشعور الثابت بالفرق. بعض الأشخاص ممن فقدوا زوجاً أو زوجة يحكون عن شعورهم بحضور فقيدهم، بوجوده حولهم، يقولون إنهم يتلقون نصائح منه. البعض يحكي عن رؤيته بالفعل، وهو ما وصفه فرويد في Mourning and Melancholia «ألم الفقدان والسوداوية» على أنه «تعلق بموضوع الألم عبر وسيط من الذهان الهلوسي التواق». بينما يصفه آخرون ليس كظهور شبحي مرئي وإنما «حضور طاغ يخلق شعوراً أقرب إلى الرؤية». لم أختبر أياً من الحالتين. مرت علي أوقات وأحداث طلبت فيها النصح من جون ليرشدني إلى ما يجب علي فعله (يوم أرادوا أن يجروا عملية فغر الرغامى لكوينتانا في مركز UCLA الطبي مثلاً.) قلت له إنني بحاجة إليه. قلت له إنني لا أستطيع مواجهة ذلك وحدي. قلت هذه الأشياء بصوت مسموع، كنت قد تلفظت بهذه الكلمات بالفعل.

أنا كاتبة. تصوُّر ما يمكن أن يقوله أو يفعله أحدهم هو أمر أقوم به بتلقائية كما التنفس.

لكن في كل مناسبة كان استجداء حضوره يعزز إدراكي لذلك الصمت الأبدي الذي بات يفصل بيني وبينه. أي جواب أدلى به كان يمكن أن يوجد في مخيلتي فقط، في النسخة التي أخرجتها أنا. أن أتخيل ما قد يقوله في نسختي أنا فقط كان سيبدو لي نوعاً من التفاهة، بل ضرباً من الانتهاك. ما كان بإمكاني أن أعرف ما قد يقوله بخصوص مركز UCLA الطبي وعملية فغر الرغامى، تماماً كما لم يكن بإمكاني أن أعرف لماذا ارتكب تلك الغلطة اللغوية في الجملة التي كتبها عن جي جي مكلور وتيريسا كين في مواجهة الإعصار. نتخيّل أننا نعرف كل ما يفكر فيه الآخر، حتى عندما لا نرغب في معرفة ذلك، فإننا في الواقع، وكنت قد اكتشفت ذلك لاحقاً، لا نعلم حتى جزءاً يسيراً مما يجب معرفته.

عندما يحدث شيء لي، كان غالباً ما يقول...

لن يحدث شيء، كنت أرد عليه.

وماذا إن حدث؟ يتابع كلامه.

إن حدث، فرضاً، ما كنت لأنتقل إلى شقة صغيرة، إن حدث شيء سأكون محاطة بالعديد من الأشخاص. إن صار وحدث هذا سيكون علي أن أعد خططاً لإطعام هؤلاء الأشخاص. إن صار وحدث هذا، سأتزوج مرة أخرى خلال فترة لا تزيد على العام.

أنت لا تفهمني، كنت أقول له.

وهو في الواقع لم يفعل. ولا أنا أيضاً: كنا متكافئين في عدم قدرتنا على تخيل الحياة من دون الآخر. هذه لن تكون قصة يصبح فيها موت الزوج أو الزوجة حدثاً يُضاف إلى تسلسل الأحداث التي تقود إلى حياة جديدة، ومحفزاً على اكتشاف أنه «يمكنك أن تقع في حب أكثر من شخص واحد»، (مسألة تُطرح بصورة نموذجية في قصص كهذه من قبل الابن الغالي على

قلب أهله المحزونين.) بالطبع يمكنك ذلك، لكن الزواج أمر آخر. الزواج ذاكرة، الزواج زمن. «لم تكن تعرف الأغاني التي أحبها». كان أحدهم قد قال بعد محاولته تكرار التجربة كما روت لي إحدى صديقاتي. الزواج ليس زمناً فحسب، هو أيضاً، للمفارقة، نكران للزمن. على مدى أربعين عاماً، كنت أرى نفسي من خلال عينَي جون. لم أكن أتقدم في العمر. هذا العام ولأول مرة منذ أن كنت في التاسعة والعشرين رأيت نفسي من خلال عيون الآخرين. هذا العام ولأول مرة منذ أن كنت في التاسعة والعشرين أدركت أن الصورة التي أحملها عن نفسي كانت لشخص أصغر عمراً بكثير مما هو في الواقع. هذا العام أدركت أن أحد الأسباب التي جعلت ذكرياتي عن كوينتانا عندما كانت في الثالثة تكتسحني كان هذا: عندما كانت كوينتانا في الثالثة كنت أنا في الرابعة والثلاثين.

تذكرت أبيات جيرارد مانلي هوبكنز: أتحزنين يا مارغريت/ على تساقط أوراق البستان الذهبية؟/ إنه الخراب الذي ولد من أجله الإنسان/ هو ما تحزنين عليه يا مارغريت.

إنه الخراب الذي ولد من أجله الإنسان.

نحن لسنا مخلوقات برية مثالية.

نحن مخلوقات فانية مشوبة بالنقص والعيوب، مخلوقات تدرك حتمية فنائها حتى عندما تهرب منه وتدفعه بعيداً، مخلوقات يهزمها ما يعتريها من عقد، مخلوقات غريبة مشوشة لدرجة أنها حتى عندما تحزن لفراق أعزائها، تكون حزانى في الوقت نفسه، سواء في السرّاء أم الضرّاء، على أنفسها. كما كنا. كما لا نكون كما كنا. كما، في يوم ما، لن نكون أبداً.

كان حلم إيلينا يدور حول الموت. كان حلم إيلينا يدور حول التقدم في السن. ما من أحد هنا لم يكن قد رأى (أو سيرى) أحلام إيلينا.

الزمن مدرسة نتعلم فيها/ الزمن نار نحترق فيها: أقتبس من ديلمور شوارتز مرة أخرى. أتذكر ازدرائي للكتاب الذي ألفته كايتلين أرملة ديلن توماس بعد موته *Leftover Life to Kill* «بقايا حياة تستحق الموت».

أتذكر كيف كنت رافضة، بل منددة وعيّابة لـ«شفقتها على نفسها» و«نواحها» و«سكونها إلى حزنها». «بقايا حياة تستحق الموت» كان قد نُشر في العام 1957. كنت في الثانية والعشرين يومها. الزمن مدرسة نتعلم فيها.

-18-

عندما بدأت كتابة هذه الصفحات، في أكتوبر العام 2004، لم أكن قد أدركت بعد كيف ولماذا ومتى مات جون. كنت موجودة حينها. كنت أراقب المسعفينَ وهم يحاولون إعادته إلى الحياة. ما زلت لا أعرف كيف أو لماذا أو متى. في الأيام الأولى من شهر ديسمبر العام 2004، بعد عام من موته تقريباً، تلقيت التقرير الخاص بتشريح الجثة وسجلّات قسم الطوارئ التي كنت قد طالبت مستشفى نيويورك بها منذ الرابع عشر من يناير، أي بعد أسبوعين من الواقعة وقبل أن أنقل الخبر إلى كوينتانا بيوم واحد. أحد الأسباب التي جعلت استلام هذه التقارير يستغرق أحد عشر شهراً، وهذا ما أدركته عند قراءتها، أنني كنت قد كتبت العنوان الغلط على استمارة الطلب الخاصة بالمستشفى. كان قد مر على إقامتي في العنوان نفسه والشارع نفسه، في الحي الشرقي في مانهاتن، ستة عشر عاماً. وعلى الرغم من ذلك كتبت اسم شارع آخر تماماً، وهو اسم الشارع الذي أقمنا فيه أنا وجون فترة لم تزد على خمسة أشهر، وذلك بعد زواجنا مباشرةً في العام 1964.

الطبيب الذي رويت له هذه الحادثة هز كتفيه لدى سماعها، وكأنني قد رويت له قصة مألوفة.

ربما يكون قد قال إن هذا «العجز الإدراكي» سببه الإرهاق والضغوط، وربما قال إن هذا العجز الإدراكي مرده ألم الفقدان.

وبعد بضع ثوانٍ من قوله هذا نسيت تماماً ما قاله كدليل على هذا العجز الإدراكي.

بحسب السجل الخاص بطاقم التمريض في قسم الطوارئ، تلقى قسم الخدمات الإسعافية مكالمة عند التاسعة والربع من مساء الثلاثين من ديسمبر 2003.

بحسب السجل الخاص ببوابي المبنى وصلت سيارة الإسعاف بعد ذلك بخمس دقائق، أي عند التاسعة وعشرين دقيقة ليلاً. خلال الخمس والأربعين دقيقة التالية، وبحسب سجل طاقم التمريض، أُعطي الأدوية التالية، إما عبر الحقن المباشر أو عبر الحقن الوريدي، أتروبين (ثلاث مرات)، إيبينفرين (ثلاث مرات)، فاسوبريسين (40 وحدة)، أميودارون (300 ملغ)، جرعة عالية من الإيبينفرين (3 ملغ)، وجرعة عالية أخرى من الإيبينفرين (5 ملغ). بحسب السجل نفسه تم إجراء تنبيب رغامي[1]. للمريض في الموقع الذي أجريت له فيه الإسعافات الأولية، وهو أمر لا أتذكره أبداً. ربما تكون المعلومة الأخيرة خطأً ارتكب من طرف من أدخل المعلومات في السجل، أو قد تكون دليلاً آخر على العجز الإدراكي الذي حلّ بي.

بحسب سجل بوابي المبنى غادرت سيارة الإسعاف إلى المستشفى عند العاشرة وخمس دقائق ليلاً.

بحسب سجل طاقم التمريض في قسم الطوارئ تم استقبال المريض لوضعه في الحجر الصحي عند العاشرة وعشر دقائق ليلاً. تم تشخيص حالته على أنها توقف انقباض في القلب وانقطاع في التنفس. لم يكن لديه نبض ملموس. جهاز التخطيط التصواتي لم يُظهر أي نبض. الحالة الذهنية كانت خاملة. لون البشرة كان شاحباً. كانت درجة الغيبوبة التي دخل فيها 3 على مقياس غلاسكو، وهو أقل تصنيف ممكن، ويشير إلى غياب تام للاستجابة على المستوى البصري واللفظي والحركي. سُجل

1- التنبيب الرغامي هو وضع أنبوب بلاستيكي مرن، وهو ما يسمى الأنبوب الرغامي، في القصبة الهوائية ليؤمن وصول الأكسجين للمريض وحماية الممر التنفسي الأعلى للمريض.

وجود تهتكات على جبهته من الجانب الأيمن وعلى جسر أنفه. حدقتا عينيه كانتا جامدتين ومتوسعتين. لوحظ «شحوب شديد في لون البشرة» وهو ما يُشار إليه أيضاً بـ «زرقة الموت». بحسب السجل الخاص بطبيب قسم الطوارئ تم فحص المريض عند العاشرة وخمس عشرة دقيقة. انتهى تنويط الطبيب كالتالي: «توقف القلب. ميت عند الوصول - على الأرجح بسبب احتشاء شديد في عضلة القلب. تم إعلان الوفاة عند العاشرة وثماني عشرة دقيقة ليلاً».

بحسب مخطط المجريات الخاص بطاقم التمريض تمت إزالة أنبوب الحقن الوريدي وأنبوب التنفس عند العاشرة وعشرين دقيقة ليلاً. عند العاشرة والنصف ليلاً ذُكِر في التنويط «الزوجة إلى جانب السرير - جورج، المساعد الاجتماعي، إلى جانب السرير مع الزوجة».

بحسب التقرير الخاص بتشريح الجثة، أظهر الفحص تضيقاً في الشريان الأيسر الرئيسي والشريان الأيسر الأعور النازل بمعدل يزيد على 95%. ذكر الفحص أيضاً عبارة «امتقاع طفيف في عضلة القلب مع تلون الخلايا الانتقالية، وهو مؤشر على انسداد شديد في الشريان الأعور النازل».

قرأت هذه التقارير والوثائق عدة مرات. الوقت الذي قضيته في مستشفى نيويورك كان، تماماً كما ظننت، قد أُنفِق في الإجراءات الروتينية الخاصة بالمستشفى وتجهيز الأوراق الخاصة بالوفاة. وعلى الرغم من ذلك كنت في كل مرة أقرأ فيها هذه الوثائق الرسمية أكتشف تفصيلاً جديداً. لدى قراءتي الأولى للسجل الخاص بطبيب قسم الطوارئ لم أكن قد انتبهت مثلاً إلى أحرف الاختصار DOA التي تشير إلى مصطلح «ميت عند الوصول». لدى قراءتي الأولى للسجل الخاص بطبيب قسم الطوارئ كنت لا أزال أحاول استيعاب السجل الخاص بطاقم التمريض في قسم الطوارئ.

حدقتان «جامدتان ومتوسعتان» واختصاراً FDPs.

يقول شيروين نولاند: «يرى الشبّان الأغرار المثابرون حدقتي مريضهم خاملتين لا تستجيبان للضوء ومن ثم تتسعان حتى تصبحا شبيهتين بدائرتين كبيرتين جامدتين من السواد المنيع... وتتردد أصداء الهزيمة والفشل في كل ركن من غرفة العمليات».

دائرتان جامدتان من السواد المنيع.

أجل، هذا ما رآه طاقم الإسعاف في عينَي جون وهو مستلقٍ على أرضية غرفة الجلوس.

«زرقة الموت». زرقة ما بعد الموت.

كنت أعرف ما تعنيه هذ الكلمة لعلاقتها بالمشرحة. المحققون الجنائيون يذكرونها دائماً في كلامهم، إذ يمكن أن تُستخدم كقرينة لتحديد وقت الوفاة. بعد أن تتوقف الدورة الدموية، تتبع الدماء مسار الجاذبية، ويحتشد ما يختزنه الجسد من دماء ويتجمع في الجانب الذي يستلقي عليه من أصبح في عداد الموتى. تمر مدة زمنية محددة قبل أن يصبح هذا الدم المحتشد مرئياً للعين المجرّدة. ما لا أستطيع تذكره هو مقدار هذه المدة الزمنية. بحثت عن معنى كلمة lividity (زرقة الموت) في الكتيب الخاص بالطب الشرعي الذي كان جون يحتفظ به على رف فوق مكتبه. «على الرغم من أن زرقة الموت تختلف من حالة إلى أخرى، فإنها تبدأ بالتشكل عادة بعد الموت مباشرة وتكون بادية للعيان بصورة واضحة بعد ساعة أو اثنتين». بما أن زرقة الموت كانت مرئية بوضوح لطاقم التمريض في غرفة الحجر عند العاشرة وعشر دقائق ليلاً، فلا بد أنها كانت قد بدأت بالتشكل قبل ذلك بساعة.

قبل ذلك بساعة عندما كنت أتصل بسيارة الإسعاف. أي أنه كان ميتاً حينها. بعد تلك اللحظة على مائدة العشاء كان قد أصبح في عداد الأموات.

بت أعرف الآن كيف سأموت، قالها في العام 1987 بعد أن تم شق شريانه الأعور النازل الأيسر بعملية رأب الوعاء.

لم تعد تعرف متى ستموت كما لا أعرف أنا، ولا أحد على وجه الأرض كيف سيموت، رددت عليه في العام 1987.

نسميه هنا «صانع الأرامل» يا صاح، كان طبيب قلبه في نيويورك قد قالها له واصفاً الشريان الأعور النازل الأيسر.

كنت مشغولة بصورة متزايدة خلال فصلي الصيف والخريف بتحديد الشذوذ الذي قد يكون السبب في حدوث ما حدث.

كنت أعرف كيف حدث هذا بتفكيري العقلاني. بتفكيري العقلاني كنت قد تحدثت إلى العديد من الأطباء الذين فسّروا لي كيف حدث الموت. بتفكيري العقلاني كنت قد قرأت ما كتب ديفيد جي كالانس في مجلة نيو إنغلند الطبية: «على الرغم من أن معظم حالات الموت الفجائي نتيجة أزمات قلبية تصيب مرضى عانوا في السابق من أمراض الشريان التاجي، فإن توقف القلب هو التمظهر الأول لهذه البلية الكامنة عند 50% من المرضى... توقف القلب الفجائي هو في الأساس أزمة تصيب المرضى خارج المستشفى. في الواقع 80% تقريباً من حالات الموت الفجائي جراء أسباب متصلة بالقلب تحدث في المنزل. احتمال نجاح إنعاش المرضى الذين يصابون بتوقف القلب وهم خارج المستشفى ضئيل، وتتراوح نسبته بين 2 و5% في المدن الكبرى... محاولات إنعاش القلب التي تبدأ بعد 8 دقائق محكومة على الأغلب، إن لم يكن دائماً، بالفشل». بتفكيري العقلاني قرأت ما أشار إليه شيروين نولاند في كتاب «كيف نموت»: «عندما يتوقف القلب في أي مكان خارج المستشفى، تتراوح نسبة النجاة بين 20 و30%، ويكون الناجون دائماً من هؤلاء الذين يستجيبون بسرعة للإنعاش القلبي الرئوي. إذا لم يكن ثمة استجابة عند الوصول إلى قسم الإسعاف، يكون احتمال النجاة معدوماً تقريباً».

بتفكيري العقلاني كنت أعرف ذلك.

لكنني لم أكن أسير وأتصرف على أساس تفكيري العقلاني. لو أنني كنت كذلك لما كانت قد انتابتني تلك التخيلات والهلاوس التي

تليق بطقوس الاحتفال بعد جنازة أيرلندية[1]. لما كنت قد شعرت مثلًا، حين سمعت أن جوليا تشايلد[2] قد فارقت الحياة براحة غريبة مشوبة بإحساس غامض بأن الفكرة قد تحققت في النهاية: جون وجوليا تشايلد سيتناولان العشاء معاً (تلك كانت الفكرة الأولى التي خطرت ببالي لدى سماع ذلك)، وهكذا ستقوم هي بالطبخ ربما، وسيسألها هو عن عملها التطوعي في مكتب الخدمات الاستراتيجية OSS، ستسليه ويسليها، سيعجب بها وتعجب به. كانا قد تناولا الفطور معاً ذات مرة، خلال تلك الفترة التي كان كل منهما يروج لكتابه فيها. كانت قد قدمت له نسخة من كتابها The Way to Cook أرفقتها بإهداء له على صفحته الأولى.

عثرت على نسخة من الكتاب في المطبخ وقرأت الإهداء.

«بالصحة والعافية على قلب جون ديون». هكذا كتبت له في الإهداء.

بالصحة والعافية على قلب جون غريغوري ديون وجوليا تشايلد ومكتب الخدمات الاستراتيجية.

ولو كنت أسير وأتصرف على أساس تفكيري العقلاني، لما كنت قد أوليت اهتماماً كبيراً للأخبار والحكايات المتعلقة بـ «الصحة والمرض» على الإنترنت وإعلانات الأدوية على التلفاز. فقد استشطت غضباً على سبيل المثال لدى رؤيتي إعلاناً لمنتج من شركة باير للأدوية، وهو عقّار يحتوي على جرعة بسيطة من الأسبرين يقال إنه «يقلل بنسبة كبيرة» من احتمال التعرض إلى نوبة قلبية. أعرف تماماً كيف يساهم الأسبرين في التخفيف من خطر الإصابة بأزمة قلبية، إذا يحول دون تخثر الدم. لكنني أدرك أيضاً أن جون كان يتعاطى الكومادين، وهو مضاد تخثر أقوى من الأسبرين بمراحل. لكن على الرغم من ذلك استولت علي فكرة جعلتني

1- irish wake في النص الأصلي، وهو عبارة عن احتفال يُقام بعد موت فرد من العائلة أو صديق حميم لها. حيث يشرب أفراد العائلة حتى الثمالة ويبدأون برواية حكايات، على الأغلب غير لائقة، عن المتوفى.

2- طاهية ومؤلفة، وشخصية تلفزيونية أمريكية.

أتساءل ما إذا كنت قد ارتكبت خطأ إغفال عقّار الأسبرين المنخفض الجرعة. انتابني الشعور نفسه لدى اطلاعي على دراسة أعدتها جامعة كاليفورنيا سان دييغو وجامعة تافتس تُظهر أن معدل الوفيات من جراء أمراض القلب يزداد بنسبة 4.65% خلال موسم أعياد الميلاد ورأس السنة الذي يستمر 14 يوماً. ثارت ثائرتي أيضاً عند الاطلاع على دراسة من جامعة فانديرفيلت تُبيّن أن الأريثروميسين يزيد مخاطر توقف القلب حتى خمسة أضعاف إذا ما تم تعاطيه مع أدوية القلب الشائعة الأخرى. وهجت ومجت لدى قراءة دراسة عن خافضات الكولسترول، ومعدلات الإصابة بنوبة قلبية التي ترتفع بين 30 و40 بالمئة عند المرضى الذين يتوقفون عن تعاطيها.

وأنا أتذكر هذا أدرك كم نحن منفتحون على ذلك الخاطر الملحّ الذي ينبئنا أنه بإمكاننا تفادي الموت، وكم نحن مؤمنون بفحواه الثأري المتلازم... إذا ما استطاع الموت أن يقبض علينا فالملامة لا تقع إلا علينا! لم أدرك ما كان يُقال لي مرة بعد أخرى إلا بعد أن قرأت التقرير الخاص بتشريح الجثة: لا شيء مما فعلنا، ولا شيء مما لم نقم بفعله أنا وهو كان سبباً في الموت أو كان له أن يمنع وقوع الموت. كان قد ورث قلباً ضعيفاً عن أسلافه. كان قلبه سيقتله عاجلاً أم آجلاً. كان الموت قد ضرب موعداً معه وانتهى الأمر، لكنه تأخر قليلاً بفعل العديد من التدخلات الطبية. وعندما حل الموعد، ما من شيء كنت أستطيع فعله في غرفة الجلوس - لا جهاز صدمات منزلي، لا تدليك قلب ولا إنعاش رئوي، لا عربة إنعاش مجهزة بكل ما يلزم ولا مرافق طبية عالية التقنية وجهاز لتقويم نبض القلب في غضون ثوان وأدوية ولا محاليل وريدية - كان له أن يمنحه يوماً واحداً إضافياً في الحياة. يوماً واحداً...

اليوم الذي سأحبك فيه وبعده...

كما اعتدت أن تقول لي.

فقط بعد أن قرأت التقرير الخاص بتشريح الجثة توقفت عن محاولة إعادة بناء حادث الاصطدام، وواقعة سقوط النجم الميت. كان السقوط حاضراً طوال الوقت، غير مرئي وبعيداً عن الشبهات. تضيّق بنسبة تزيد على 95 في المئة في الشريان الأيسر الرئيسي والشريان الأعور الأيسر النازل.

انسداد شديد أعاق الدورة الدموية في الشريان الأعور الأيسر النازل، الذي يُعرف اختصاراً بـLAD.

هكذا كان السيناريو. أُصلح حال هذا الـLAD في العام 1987 وبقي صالحاً صامتاً ومتربصاً حتى نسي الجميع أمره وبعدها ضرب ضربته. نسميه هنا «صانع الأرامل» يا صاح، كان طبيب قلبه قد قالها في العام 1987.

أقول لك إنني لن أعيش لأكثر من يومين، قال جافين.

عندما يصيبني مصاب ما، قال جون.

-19-

لم يكن من السهل علي أن أنظر إلى نفسي كأرملة. أذكر كيف ترددت قبل أن أملأ خانة «الحالة الاجتماعية» في إحدى الاستمارات لأول مرة بعد أن ترمّلت. كنت قد واجهت صعوبة أيضاً في اعتبار نفسي زوجة. ومع الأخذ بعين الاعتبار الأهمية التي أوليها لطقوس الحياة العائلية، فإن تقبّل فكرة «الزوجة» ما كان يجب أن يبدو أمراً صعباً، لكنه كان كذلك. واجهت صعوبة في تقبل وجود خاتم الزواج في إصبعي لوقت طويل بعد أن تزوجنا. كان واسعاً بما يكفي لينزلق من إصبع يدي اليسرى، لذلك اضطررت إلى وضعه في إصبع يدي اليمني لعام أو اثنين. بعد أن أحرقت إصبع يدي اليمنى وأنا أخرج المقلاة من الفرن، وضعت الخاتم في سلسلة ذهبية حول عنقي. عندما ولدت كوينتانا وأهدانا أحد معارفنا خاتماً لها وضعته مع خاتم الزواج في السلسلة نفسها.

بدا هذا حلاً جيداً.

ما زلت إلى الآن أحمل الخاتمين بتلك الطريقة.

أنت بحاجة إلى زوجة من نوع آخر، كنت غالباً ما أكرر هذه العبارة على مسامع جون خلال العام الأول من زواجنا. كنت أقولها عادة في طريق عودتنا إلى الحيد البرتغالي بعد تناول العشاء في أحد مطاعم البلدة. وغالباً ما كانت تلك العبارة الشرارة الأولى لتلك الشجارات التي تبدأ عند مرورنا قرب مصافي النفط القائمة إلى جانب طريق سان دييغو السّريع. «كان عليك أن تتزوج امرأة مثل ليني» ليني كانت زوجة

أخي نيك. كانت ليني مصدر تسلية لأصدقائها... تدعوهم إلى الغداء وتدير منزلها بدأب لا يلين وترتدي فساتين وملابس فرنسية، وكانت دائماً حاضرة وجاهزة للاعتناء بالمنزل وإقامة احتفال بمولود جديد واصطحاب الزوار القادمين من خارج المدينة لزيارة ديزني لاند. «لو كنت أريد أن أتزوج امرأة مثل ليني لتزوجت امرأة مثل ليني». كان جون يرد علي، بحلم في بداية الأمر، ثم يبدأ بفقدان أعصابه رويداً رويداً.

في الواقع لم يكن لدي أدنى فكرة كيف يمكنني أن أكون زوجة.

في سنوات زواجي الأولى كنت أغرز أقحوانات في شعري محاولةً أن أتقمص إحساس «العروس».

ولاحقاً كنت أنا وكوينتانا نرتدي تنورتين قطنيتين متطابقتين مفصلتين خصيصاً لنا في محاولة مني لأتقمص دور «الأم الشابّة».

ما أذكره من تلك السنوات هو أن كلّا منا، جون وأنا، كان يرتجل ويسير على عماه. منذ وقت ليس ببعيد بينما كنت أفرغ أحد الأدراج من محتوياته عثرت على ملف ثخين يحمل عنوان «التخطيط». حقيقة أننا كنا ننشئ ملفات نسميها «التخطيط» هي دلالة دامغة على أننا لم نكن ننفّذ من الخطط التي نضعها سوى النزر اليسير. كان لدينا أيضاً ملف اسمه «اجتماعات خاصة بالتخطيط» التي كان جدول أعمالها هو أن نجلس وبحوزة كل منا قصاصات من الورق وأن نحدد المشكلة التي واجهناها في ذلك اليوم بلا مواربة أو تجميل، وبعدها، ومن دون أي محاولة لحلها، نخرج لتناول الغداء. وجبات الغداء تلك كانت احتفالية، وكأننا كنا نحتفي فيها بعمل أنجزناه بإتقان. مطعم مايكلز في سانتا مونيكا كان المكان الأمثل لنا. في ملفات «اجتماعات خاصة بالتخطيط» هذه وجدت العديد من قوائم أعياد ميلاد سبعينيات القرن الماضي، وبضعة ملاحظات عن مكالمات تلفونية، وملاحظات كثيرة، كانت تلك تشغل السواد الأعظم من الملف، تعود أيضاً إلى سبعينيات القرن الماضي وتخص المداخيل والمصاريف المتوقعة. كانت مسحة

من اليأس تسود تلك الملاحظات. كان هناك ملاحظة بخصوص اجتماع مع جيل فرانك في 19 أبريل 1978، حين كنا نحاول بيع المنزل في ماليبو لندفع ثمن المنزل في برينتوود بارك الذي كنا قد سددنا 50 ألف دولار من ثمنه كدفعة أولى. لم نتمكن من بيع المنزل في ماليبو لأن السماء أمطرت طوال الربيع هناك. كانت الجروف تنهار وأغلق طريق باسيفيك كوست السريع. ما كان بإمكان أحد أن يعاين المنزل إلا إذا كان يقطن في ذلك الجانب من ماليبو الذي لا تحدث فيه انجرافات للتربة. خلال فترة امتدت لعدة أسابيع لم يعاين المنزل سوى مشترٍ محتمل واحد، وهو طبيب نفسي كان يقيم في مقاطعة ماليبو. ترك حذاءه تحت المطر المنهمر في الخارج «ليتمكن من الإحساس بالمنزل» على حد تعبيره، ومشى بقدميه الحافيتين على بلاط الأرضية متجولاً في جميع أرجاء المنزل، ونقل شعوره إلى ولده، الذي بدوره نقل شعور أبيه إلى كوينتانا، وهو أنه أحس بشيء من «البرود» في المنزل. كانت الملاحظة المسجلة في 19 أبريل من ذلك العام تقول: يجب أن نتوقع ألا نبيع منزل ماليبو قبل نهاية العام. يجب أن نفترض حدوث الأسوأ لكي يُشعرنا أي تحسن بأن الأمور بخير.

تم تدوين ملاحظة بعد ذلك بأسبوع جعلتني أفكر فقط في «اجتماع خاص بالتخطيط»: للمناقشة: هل يجب التخلي عن منزل برينتوود بارك؟ هل نستعيد الـ50000 دولار ونرفّه عن أنفسنا بها؟

بعد ذلك بأسبوعين سافرنا جواً إلى هونولولو هاربين من المطر ومحاولين أن نتدارس خياراتنا التي تضيق مع مرور الوقت. في صباح اليوم التالي عندما عدنا من السباحة وجدنا رسالة في انتظارنا: انقشعت الغيوم وأشرقت الشمس وتلقينا عرضاً ضمن الحدود التي وضعناها.

ما الذي حدا بنا للاعتقاد بأن منتجعاً صحياً في هونولولو هو المكان المناسب لإيجاد حل للضائقة المادية التي كنا نمر بها؟ ما الدرس الذي تعلمناه عندما أجدى ذلك نفعاً؟ بعد ذلك بخمسة وعشرين عاماً، وفي

مواجهة ضائقة مادية مشابهة وقرار مشابه سافرنا بموجبه للبحث عن حل لها في باريس، ما الذي جعلنا نظن أننا سنوفر في المصاريف بحصولنا على تذكرة طيران مجانية على متن طائرة كونكورد؟

في درج الملفات نفسه عثرت على بعض الفقرات التي كان جون قد كتبها في العام 1990، في عيد زواجنا السادس والعشرين.

«في يوم زفافنا ارتدت نظارات شمسية طوال الفترة التي استغرقتها مراسم الزفاف في كنيسة تبشيرية صغيرة في سان خوان باوتيستا في كاليفورنيا، ولم تتوقف عن البكاء طوال الوقت. ونحن نسير عبر الممر، تعاهدنا أن نهرب من كل هذا الأسبوع المقبل وألا ننتظر حتى يفرقنا الموت».

هذا أيضاً قد أجدى نفعاً. بشكل أو بآخر سار كل شيء على ما يرام.

ما الذي جعلني أعتقد أن هذا الارتجال سيستمر إلى ما لا نهاية؟

لو أنني شعرت أن ذلك ممكن، ما الذي كنت سأفعله بشكل مختلف؟

ما الذي كان سيفعله هو؟

-20-

أكتب الآن والسنة الأولى تشارف على الانتهاء. أستيقظ عند السابعة صباحاً لأجد سماء نيويورك مظلمة وستزداد ظلمة عند الرابعة مساءً. ثمة مصابيح عيد ميلاد ملونة على أغصان نبتة السفرجل في غرفة الجلوس. كان هناك مصابيح عيد ميلاد ملونة على نبتة السفرجل في غرفة الجلوس منذ عام أيضاً، في ليلة الفاجعة، لكن حدث في الربيع، قبل وقت قصير من نقل كوينتانا من مركز UCLA الطبي إلى المنزل، أن احترقت الأسلاك وتقطّعت. كانت تلك إشارة. اشتريت أسلاكاً جديدة للمصابيح الملونة. اعتبرت هذا نُذرَ إيمان بالمستقبل. انتهزت كل فرصة سنحت لي لأختلق نُذُراً كهذه وقتما وأينما استطعت، خاصة أنني لم أكن أشعر بعد بهذا الإيمان بالمستقبل.

ألاحظ أنني أفقد مهارات التعامل مع اللقاءات الاجتماعية العادية التي كنت أمتلكها منذ عام مضى، بغض النظر كم كانت محدودة تلك المهارات في الأساس. خلال مؤتمر الحزب الجمهوري كنت مدعوة إلى حفل صغير في منزل إحدى الصديقات. كنت سعيدة لرؤية صديقتي هذه، كما كنت سعيدة أيضاً لرؤية والدها الذي كان الحفل يُقام على شرفه، لكنني وجدت صعوبة في إجراء أحاديث مع الآخرين. لاحظت وأنا أغادر أن عناصر من وكالة الاستخبارات كانوا هناك، لكن لم يكن لدي الصبر لأنتظر معرفة الشخصية الهامة التي كانت قادمة. في أمسية أخرى خلال فترة انعقاد مؤتمر الحزب الجمهوري ذهبت إلى حفل

من تنظيم صحيفة نيويورك تايمز في مبنى تايم وارنر. كان هناك شموع وأزهار غاردينيا تطفو على سطح الماء في مكعبات زجاجية. لم يكن بمقدوري أن أركز على أي حديث أجريته هناك بغض النظر عمن كنت أحدثه. لم أستطع أن أزيح من ذهني صورة زهور الغاردينيا التي كان الفلتر يبتلعها في منزلنا في برينتوود بارك.

في مناسبات كهذه أسمع نفسي وأنا أبذل جهداً وأفشل.

ألاحظ أنني أنهض عن المائدة بفظاظة مفرطة.

ألاحظ أيضاً أنني لا أمتلك المرونة التي كانت لي منذ عام مضى. يحل بك عدد معين من الأزمات والفجائع فتتوقف تلك الآلية التي تغمر جسدك بالأدرينالين عن العمل. يصبح حشد طاقتك حلاً لا يعوّل عليه، وعملية تحدث ببطء شديد أو لا تحدث بالمرة. خلال شهري أغسطس وسبتمبر، بعد نهاية مؤتمري الحزب الجمهوري والحزب الديمقراطي، لكن قبل الانتخابات، كتبت، ولأول مرة بعد رحيل جون، مقالة. كانت تدور حول الحملة الانتخابية، وكانت الأولى التي أكتبها منذ العام 1963 من دون أن يقرأ جون مسودتها ويخبرني عن مثالبها وعيوبها، وما الذي ينقصها، وما الذي يجب ان أضيفه إليها، وما يجب أن أحذف منها أو أشدد عليه أو أخفف منه فيها. كتابة المقالات بتدفق وسلاسة لم تكن من الأشياء التي أبرع فيها، لكن هذه المقالة بالتحديد بدت كأنها تستغرق وقتاً أكثر من المعتاد: أدركت عند مرحلة معينة أنني غير راغبة في إنجازها، لأنه لم يكن هناك من يقرأها. ما فتئت أقول لنفسي إنني ملتزمة بموعد لتسليم النص، إنه لم يحدث أن تخلفنا أنا أو جون عن مواعيد التسليم من قبل.

أياً كان ما فعلته في النهاية لأنجز المقالة فقد أتى بشكل أو بآخر نتيجة تخيلي أنني قد تلقيت رسالة منه. رسالته كانت بسيطة: أنتِ كاتبة محترفة. أنجزي المقالة.

يخطر لي أننا لا نسمح لأنفسنا بتخيل رسائل كهذه إلا عندما نكون بحاجة إلى طوق نجاة.

إجراء فغر الرغامى في مركز UCLA الطبي، أدرك الآن، كان سيحدث بي أم بدوني. استئناف كوينتانا حياتها، أدرك الآن، كان سيحدث بي أم بدوني.

الانتهاء من كتابة المقالة، الذي كان بمثابة استعارة عن استئناف حياتي، لم يكن كذلك.

وأنا أدقق المقالة قبل نشرها راعني كم الأخطاء التي ارتكبتها فيها: أخطاء بسيطة في النسخ والأسماء والتواريخ. قلت في نفسي إن هذا وضع مؤقت... جزء من مشكلة حشد الطاقة، ودليل آخر على حالات العجز الإدراكي تلك التي تأتي إما نتيجة الضغوط أو ألم الفقدان. لكن ذلك لم يكن كافياً لتعزيتي وتخفيف قلقي. هل سيكون بإمكاني أن أثق بقدرتي على عدم ارتكاب الأخطاء من جديد؟

هل لزام عليكِ أن تكوني دائماً على صواب؟ قالها ذات مرة. هل من المستحيل أن تتقبلي إمكانية أن تكوني مخطئة أحياناً؟

أجد نفسي أركز كثيراً وبصورة متزايدة على مواطن التشابه بين أيام ديسمبر هذا العام وأيام ديسمبر نفسها من العام الفائت. بطريقة أو بأخرى كانت هذه الأيام من العام الفائت أكثر وضوحاً بالنسبة إلي، كما كان تركيزي فيها أكثر حدة. ما فعلته في العام الماضي في مثل هذه الأيام فعلت مثله هذا العام. أعددت القائمة نفسها من الأشياء غير المنجزة. غلّفت هدايا عيد الميلاد بالورق الملون نفسه، كتبت الرسائل نفسها على بطاقات المعايدة من متجر هدايا ويتني، ألصقت بطاقات المعايدة على أغلفة الهدايا الملونة باستخدام الأختام الذهبية نفسها. حررت الشيكات المصرفية نفسها للعاملين في المبنى، مع فرق وحيد هو أنها كانت ممهورة باسمي فقط الآن. ما كنت لأبدّل أي شيء في الشيكات المصرفية (كما لم أكن لأبدّل الرسالة الصوتية على جهاز الرد الآلي) لكن كان أحدهم قد قال لي إنه من الضروري ألا يظهر اسم جون إلا في الحسابات الائتمانية. طلبت لحم الخنزير نفسه من مطعم سيتاريلا. ثارت ثائرتي بالطريقة

نفسها من عدد الأطباق الذي سأحتاج إليه في ليلة عيد الميلاد وأنا أعدها وأعيد عدها. أحتفظ بحجز سنوي عند طبيب الأسنان في شهر ديسمبر وأدرك وأنا أضع عينات فُرَش الأسنان في حقيبتي أنه لن يكون هناك أحد في انتظاري في غرفة الاستقبال. لن يكون هناك من يزجي الوقت بقراءة المجلات ريثما أنتهي لنذهب معاً لتناول الإفطار في مطعم «ثري غايز» في ماديسون أفينيو. يمر الصباح خاوياً. عندما أمر بقرب مطعم «ثري غايز» أدير وجهي إلى الجهة الأخرى. تطلب مني إحدى الصديقات أن أذهب معها إلى كنيسة القديس أغناطيوس لويولا للاستماع إلى موسيقى عيد الميلاد، ونعود إلى المنزل في الظلام تحت المطر. يحدث أول هطول للثلج في تلك الليلة، على الرغم من أنه لا يسقط سوى ندف من الثلج، ولا تحدث أي انهيارات ثلجية من على سطح كنيسة القديس جون، كما كان قد حدث في عيد ميلادي منذ عام مضى.

عيد ميلادي منذ عام مضى عندما قدم لي آخر هدية في حياته.

عيد ميلادي منذ عام مضى عندما لم يكن قد بقي له سوى خمس وعشرين ليلة في ذمة الحياة.

على الطاولة أمام الموقد ألاحظ شيئاً في غير مكانه ضمن كومة الكتب القريبة إلى الكرسي حيث اعتاد جون أن يجلس ليقرأ عندما كان يستيقظ في منتصف الليل. تركت كومة الكتب هذه على حالها عن عمد. لم يكن دافعي إلى ذلك بناء ضريح مقدس لا يُمس، بل لأنني لم أحتمل أن أفكر في ما كان يقرأه في منتصف الليل. أما الآن فقد وضع أحدهم على قمة الكومة، بشكل متوازن بدقة، كتاب مائدة مصوراً ضخماً يحمل عنوان «حدائق أنيلي في فيلار بيروسا» *Agnelli Gardens at Villar Perosa*. أزيح الكتاب لأجد تحته نسخة مليئة بالملاحظات من كتاب جون لوكاكس «خمسة أيام في لندن» *Five Days in London*: مايو 1940، وفيها مؤشر ورقي كُتب عليه، بخط يد طفل: إلى جون – مع تمنياتي بقراءة سعيدة – من جون، 7 سنوات. في البداية يصيبني مؤشر الكتاب،

الذي نُثر تحته نثار احتفالي وردي، بالحيرة، لأتذكر بعد ذلك أن منظمة الفنانين المبدعين CAA «تتبنى» كل عام مجموعة من طلاب مدارس لوس أنجلوس، وذلك كمشروع خاص بعيد الميلاد، ليقوم كل منهم بدوره بصنع هدية تذكارية لعضو معين من منظمة الفنانين المبدعين.

لا بد أنه قد فتح تلك الهدية في ليلة عيد الميلاد.

لا بد أنه قد حشر المؤشر الورقي في الكتاب الذي كان على قمة كومة الكتب.

لم يكن قد تبقى له سوى مئة وعشرين ساعة في ذمة الحياة وقتها.

كيف كان سيعيش هذه الساعات المئة والعشرين لو عرف أنها الأخيرة له؟

كان تحت نسخة كتاب «خمسة أيام في لندن» عدد من صحيفة النيويوركر بتاريخ 5 يناير 2004. لا بد أن الصحيفة بتاريخ إصدارها ذاك كانت قد سُلّمت إلى منزلنا يوم الأحد 28 ديسمبر 2003. في ذلك التاريخ، وفقاً لروزنامة جون، تناولنا العشاء في المنزل بصحبة شارون ديلانو، التي كانت في ما مضى المحرر الخاص به في دار راندوم هاوس للنشر وأصبحت الآن محرره في النيويوركر. كنا قد تناولنا العشاء على مائدة الطعام في غرفة الجلوس. وفقاً لمفكرة المطبخ الخاصة بي فقد تناولنا لنغويني بولونييزي وسلطة وجبناً وخبزاً فرنسياً. في ذلك الوقت كان قد بقي له 48 ساعة في ذمة الحياة.

بعض المشاعر التي أثارها هذا الجدول الزمني كانت السبب الذي من أجله لم أكن قد لمست كومة الكتب في المقام الأول.

لا أظن أنني قادر على تحمل هذا، قالها في سيارة الأجرة أثناء عودتنا من مستشفى بيت إسرائيل نورث في تلك الليلة أو الليلة التي تلتها. كان يتحدث عن الحالة التي تركنا كوينتانا فيها مرة أخرى.

ليس الأمر بيدك، قلت له في سيارة الأجرة.

منذ ذلك اليوم وأنا أتساءل إن كان الأمر بيده حينها.

-21-

«ما زالت جميلة»، قال جيري بينما كنا أنا وهو وجون نغادر وحدة العناية المركزة حيث تمكث كوينتانا في مستشفى بيت إسرائيل نورث. «قال إنها ما زالت جميلة»، قال جون في سيارة الأجرة. «هل سمعته وهو يقول ذلك؟ ما زالت جميلة؟! طريحة الفراش هناك ومتورمة يخرج منها العديد من الأنابيب ويقول إنها..».

لم يستطع أن يُكمل.

حدث هذا في واحدة من ليالي ديسمبر الأخيرة... تلك التي سبقت موته. ليس لدي أي فكرة ما إذا كان هذا قد حدث في السابع والعشرين أم الثامن والعشرين أم التاسع والعشرين من ديسمبر. لكنني متأكدة من أنه لم يحدث في الثلاثين منه، ذلك أن جيري كان قد غادر المستشفى عندما وصلنا إليها في ذلك اليوم. أدرك أن جزءاً كبيراً من طاقتي خلال الأشهر الماضية قد استُهلك في حساب الأيام والساعات. عندما قال في سيارة الأجرة على طريق عودتنا من مستشفى بيت إسرائيل نورث إن كل ما فعله في الحياة كان بلا قيمة، أكان قد بقي له ثلاث ساعات أم سبع وعشرون ساعة في ذمة الحياة؟ هل كان يعلم كم هي قليلة تلك الساعات المتبقية له؟ هل شعر بأنه كان يودّع الدنيا؟ هل قال إنه لا يريد أن يرحل؟ لا تدع الرجل المحطم يمسك بي، كانت كوينتانا تقول عندما تصحو من حلم مفزع، إحدى «المقولات» التي احتفظ بها جون في صندوق صغير واستعارها

ليذكرها على لسان كات في «داتش شيا جونيور». لقد وعدتها بألا أسمح للرجل المحطم بأن يُمسك بها.

أنتِ بأمان.

أنا هنا.

كنت أؤمن بأننا نمتلك تلك القدرة.

الآن كان «الرجل المحطم» يتربّص بها في وحدة العناية المركزة في مستشفى بيت إسرائيل نورث، الآن كان «الرجل المحطم» رابضاً في التاكسي يتحين الفرصة للانقضاض على أبيها. حتى عندما كانت في الثالثة أو الرابعة من عمرها أدركت أنه عندما يتعلق الأمر بـ «الرجل المحطم» فلن يكون بإمكانها أن تعوّل إلا على نفسها: إذا أتى «الرجل المحطم» سأتشبث بالسياج ولن أسمح له بأخذي.

أما هي فقد تشبثت بالسياج. لكن أباها لم يفعل.

أقول لك إنني لن أعيش لأكثر من يومين.

ما انتهت إليه تلك الأيام من ديسمبر العام الماضي هو ما منحها تلك القدرة الخارقة على استقطاب كامل التفكير.

-22-

كان جدي عالم جيولوجيا وهذا ما أتاح لي أن أتوقع في وقت مبكر من حياتي إمكانية تغيّر أي شيء على وجه الأرض، الهضاب ومساقط المياه، وحتى الجزر. عندما تنجرف إحدى التلال وتغوص في المحيط أرى في ذلك نوعاً من النظام. عندما يحرك زلزال شدته 5.2 على مقياس ريختر طاولة الكتابة في غرفة نومي القائمة في منزلي في شارع ويلبيك لا أتوقف عن الضرب على مفاتيح الطباعة. التلة هي عبارة عن مسكن مؤقت لقوى الضغط الباطنية، وربما يكون حجم الأنا محل إقامة مشابه لها. مسقط المياه هو عبارة عن تكيّف رديء لمجرى المياه مع البنية الجيولوجية، لكنه أيضاً، حسب معرفتي، أسلوب من أساليب الطبيعة. الجزيرة نفسها التي عادت إليها إينيز فيكتور[1] في ربيع العام 1975، جزيرة أواهو - الكتلة الأرضية التي نشأت من عوامل الحت على طول حيد هاواي البحري - هي عبارة عن صورة مؤقتة، وكلما هطل المطر أو حدثت هزة أرضية في طبقات المحيط الهادئ يتغيّر شكلها ويُختصر عمرها كمفترق طرق في المحيط الهادئ. وفي ضوء ذلك يصبح من الصعب على المرء أن يحافظ على قناعات ثابتة حول ما حدث هناك في ربيع العام 1975، أو ما قبله.

هذا مقطع من بداية رواية Democracy «ديمقراطية» التي كتبتها في

1- من رواية Democracy، قصة إينيز فيكتور، زوجة عضو مجلس الشيوخ الأمريكي، التي كانت من بين المرشحين الرئاسيين، هاري فيكتور، وقصة حبها الكبير مع جاك لوفيت، عميل الاستخبارات الأمريكية الذي كانت قد التقت به عندما كانت تعيش في هاواي في فترة مراهقتها.

أوائل ثمانينيات القرن الماضي. كان جون من وضع عنوانها. بدأت كتابتها كراوية كوميدية عن سلوك العائلة وأسميتها Angel Visits «زيارات الملاك»، وهو مصطلح يعرّفه معجم بروير، باب الحكايات الرمزية والعبارات، على أنه «لقاءات مبهجة قصيرة الأمد ونادرة الحدوث». لكن عندما بات واضحاً أنها تتخذ منحى آخر واصلت الكتابة بلا عنوان. عندما انتهيت منها قرأها جون وقال إنني يجب أن أسميها Democracy. قرأت من جديد المقطع الوارد بعد الزلزال الذي بلغت شدته 9 درجات على مقياس ريختر والذي ضرب منطقة تمتد على طول ستمئة ميل من الجزء السفلي من سومطرة وأطلق موجة تسونامي أزالت أجزاءً كاملة من الشريط الساحلي المحاذي للمحيط الهندي.

أعجز عن الكف عن محاولة تخيّل هذا الحدث.

لا يوجد شريط فيديو يوثق ما أحاول أن أتخيله. لا شطآن، لا برك سباحة تفيض بما فيها، لا قاعات فنادق يتبدد ما في أحشائها كأكوام العفن في عاصفة عاتية. ما أردت أن أراه كان يحدث تحت السطح. الصفيحة الهندية تلتوي وهي تندس تحت صفيحة بورما. التيار يكتسح ما في طريقه متخفياً تحت ستار المياه العميقة. لا يوجد لدي مخطط تفصيلي لأعماق المحيط الهندي لكن بإمكاني أن أستخدم مجسم راند ماكنالي الكرتوني للكرة الأرضية. سبعمئة وثمانون متراً عن باندا آتشيه[1]. ألفان وثلاثمئة متر بين سومطرة وسريلانكا. ألفان ومئتا متر بين جزر أندامان وتايلند، ومن ثم منطقة ضحلة طويلة تمتد حتى بوكيت. في اللحظة التي تتباطأ فيها الحافة المتقدمة للتيار غير المرئي بتأثير الجرف القاري، تبدأ غزارة المياه بالاضمحلال ابتداءً من أسفل الجرف. كما كان منذ البداية، وكما هو الآن، وكما سيبقى إلى ما لا نهاية، العالم بلا نهاية.

التاريخ اليوم هو 31 ديسمبر من العام 2004، مرّ عام ويوم. في 24

1- مدينة في إندونيسيا ضربها تسونامي المحيط الهندي في 26 ديسمبر 2004، ودمر جزءاً كبيراً منها.

ديسمبر، ليلة عيد الميلاد، دعوت بعض الأشخاص إلى العشاء، تماماً كما فعلنا أنا وجون في ليلة عيد الميلاد منذ عام مضى. قلت لنفسي إنني أفعل ذلك من أجل خاطر كوينتانا، لكنني في الوقت نفسه كنت أفعل ذلك من أجلي أنا... كان هذا بمثابة عهد قطعته على نفسي ألا أتابع ما تبقى لي من حياة كحالة خاصة، أو ضيف، أو شخص لا يملك أن يعمل ويتصرف بمفرده. أوقدت نيران المدفأة، أشعلت الشموع، وضعت الأطباق والفضيات على طاولة المائدة المفتوحة في غرفة تناول الطعام. حضّرت بعض الأسطوانات، مايبل ميرسير تغنيCole Porter، إسرائيل كاماكاويوجولي[1] يغني «Over the Rainbow»، وعازفة جاز إسرائيلية[2] اسمها ليز ماغنيز تعزف «Someone to Watch Over Me». جلس جون ذات مرة إلى جانب ليز ماغنيز في حفل عشاء في مقر البعثة الإسرائيلية وأرسلت إليه أحد ألبوماتها، وكان يحتوي على حفلة حية لها في مراكش عزفت فيها ألحان جيرشوين.

لما فيه من شجن وتأثير قادر على دفع من يسمعه إلى اقتراح الأنخاب ورفع الكؤوس في فندق الملك ديفيد في القدس خلال فترة الاحتلال البريطاني، بدا هذا الألبوم آسراً بكل ما فيه بالنسبة إلى جون، وكأنه دليل أُخرج من تحت الأنقاض ليحكي عن عالم تلاشى، وصدى آخر من أصداء الحرب العالمية الأولى. أسماها «موسيقى الانتداب». كان يستمع إليه وهو يقرأ قبل أن نجلس لتناول العشاء يوم وافته المنية.

عند الخامسة من مساء الرابع والعشرين من ديسمبر اعتقدت أنني لن أكون قادرة على التعامل مع الأمسية، لكن عندما حان الوقت تعاملت الأمسية مع نفسها بنفسها.

1- مؤلف موسيقي أمريكي، صاحب القطعة الموسيقية الشهيرة رابسوديا بالأزرق (Rhapsody in Blue) التي ألفها عام1924. قام جورج في أعماله بمزج موسيقى الجاز مع الموسيقى الرومانسية الكلاسيكية.

2- هكذا وردت في النص الأصلي، ونقلناها كما هي توخياً للأمانة، من دون الدخول في متاهة الاعتراف بهذا الكيان من عدمه. المترجم

من هونولولو أرسلت سوزانا مور أكاليل من الزهور لي ولكوينتانا ولابنتها لولو. ارتدينا الأكاليل. صديق آخر جلب كعكة زنجبيل على شكل منزل. كان هناك العديد من الأطفال. شغّلت موسيقى الانتداب، على الرغم من أن الضجيج كان مرتفعاً لدرجة أن أحداً لم يسمع منها شيئاً.

في صباح عيد الميلاد أعدت الأطباق والفضيات إلى مكانها، وذهبت بعد الظهر إلى كنيسة القديس جون، وكان أغلب من فيها من السياح اليابانيين. دائماً ما ترى سياحاً يابانيين في كنيسة القديس جون. مراسم زواج كوينتانا أقيمت في كنيسة القديس جون وكان الوقت بعد ظهر أيضاً، وكان هناك سياح يابانيون يلتقطون الصور بينما كانت هي وجيري يغادران المذبح.

عندما أودعنا رماد جثة جون في المعبد الواقع خارج الهيكل الرئيسي في كنيسة القديس جون، وكان الوقت ظهراً، احترقت إحدى الحافلات الفارغة التابعة للسياح اليابانيين في الخارج وارتفع عمود من اللهب في أمستردام أفينيو. في يوم عيد الميلاد كان الطريق إلى المعبد الواقع أمام الهيكل الرئيسي مسدوداً بسبب أعمال الترميم في الكاتدرائية. أدخلني أحد حراس الأمن. أُفرغ المعبد من محتوياته ولم يكن فيه سوى السقالات. خفضت رأسي لأمر من تحت إحدى سقالات البناء وعثرت على اللوحة الرخامية التي تحمل اسم جون واسم أمي. علّقت إكليل الزهور على أحد القضبان النحاسية التي تثبت اللوحة الرخامية إلى القنطرة ومن ثم عدت من المعبد إلى صحن الكنيسة، ومنه إلى الممر الرئيسي، مباشرة باتجاه النافذة المزخرفة الكبيرة.

نصف عمياء من الوهج الصادر منها، لكن مصممة على إبقاء نظري منصباً عليها، سرت وعيناي مثبتتان على النافذة لأتمكن من التقاط تلك اللحظة التي تنفجر فيها النافذة بالضوء وتملأ مجال الرؤية بالأزرق عند دنوّي منها. أعياد ميلاد أقلام بوفالو الملونة وساعة المنبه السوداء الرقيقة وألعاب الحي النارية في هونولولو، عيد ميلاد العام 1990، حين كنا أنا

وجون نعيد كتابة ذلك الفيلم الذي لم يجد طريقه إلى الشاشة قط... كل تلك الأعياد انصهرت في هذه النافذة. كنا قد هيأنا المكان لمشهد الفيلم الختامي في كاتدرائية القديس جون، وضعنا أداة بلاتينيوم في برج الجرس (وحده بطل الفيلم يدرك أن الجهاز موجود في كاتدرائية القديس جون وليس في برجي التجارة العالميين)، وفجرنا حامل الجهاز بلا قصد ليُقذف من خلال النافذة الزجاجية المزخرفة إلى الخارج مباشرةً. كنا قد ملأنا الشاشة بالأزرق في عيد الميلاد ذاك.

أدرك وأنا أكتب هذه الكلمات أنني لا أريد لهذه الرواية أن تنتهي، ولا أريد لهذا العام أن ينقضي. الجنون ينحسر لكن لا صفاء يحل محله.

أبحث عن قرار ولا أجده. لم أرد لهذا العام أن ينتهي لأنني أدركت أنه ما إن تمرّ الأيام، وما إن يبدأ يناير وينتهي، ويبدأ فبراير وينقضي وتتعاقب الأشهر وينتهي الشتاء ويعقبه صيف يحرق برده، الكثير من الأحداث ستقع وتأخذني معها. الصورة المطبوعة في ذهني عن جون لحظة موته ستصبح أقل حضوراً، أقل طزاجةً. ستصبح شيئاً حدث في عام آخر. إحساسي بجون نفسه، جون عندما كان حياً، سينأى ويصبح أبعد، سيصبح «موشوشاً» ربما، وملطّفاً، ومخفّفاً، ويوظَّف في أي ما يمكنه أن يساعدني على المضي قدماً بحياتي عندما لا يكون جون موجوداً فيها. في الواقع كان هذا قد بدأ يحدث بالفعل. كنت طوال العام أعيش الأيام وفقاً لروزنامة العام الماضي: ماذا كنا نفعل في مثل هذا اليوم من العام الماضي؟ أين تناولنا العشاء؟ أفي مثل هذا اليوم سافرنا بالطائرة إلى هونولولو بعد حفل زفاف كوينتانا؟ أفي مثل هذا اليوم عدنا بالطائرة من باريس، أفي مثل هذا اليوم حدث هذا وحدث ذاك... أدركت اليوم للمرة الأولى أن ما أتذكره عن هذا اليوم منذ عام مضى ليس له أي صلة بجون. مثل هذا اليوم من العام الماضي أتى في 31 ديسمبر 2003. جون لم يعش ليرى ضوء نهار هذا اليوم في العام الماضي. كان جون ميتاً في مثل هذا اليوم.

وأنا أعبر جادة ليكسينغتون، خطر لي هذا...

أعرف لماذا نحاول أن نُبقي أمواتنا أحياءً: نحاول أن نُبقيهم على قيد الحياة ليستمر وجودهم في حياتنا... لنبقىٰ نحن أحياء. أعرف أيضاً أننا إذا ما أردنا نحن أنفسنا أن نحيا يأتي وقت يتوجب فيه علينا أن نتخلى عن موتانا، أن نعتقهم من تعلقنا بهم، أن ندعهم وشأنهم، أن نسمح لهم بالموت.

أن نسمح لهم بأن يصبحوا صورة نحتفظ بها على الطاولة.

أن نسمح لهم بأن يتحولوا إلى اسم يظهر في حساباتنا الائتمانية.

أن نترك للمياه أن تأخذهم.

معرفة هذا لا يهوّن علينا التخلي عنهم وعن تعلقنا بهم.

في الواقع، وأنا في جادة ليكسينغتون بدا لي إدراك أن حياتنا معاً لن تبقى محور حياتي كما كانت، وأن حضوره سيبدأ بالتلاشي يوماً بعد يوم، خيانة مكتملة الأركان... إدراك كان من الشدة لدرجة جعلتني أفقد أحساسي بالمكان والزمان وما حولي ومن حولي.

أفكر في إكليل الزهور الذي تركته في كاتدرائية القديس جون. تذكار من عيد الميلاد الذي قضيناه في هونولولو عندما ملأنا الشاشة باللون الأزرق.

خلال السنوات التي كان الناس لا يزالون فيها يغادرون هونولولو على متن سفن شركة ماتسون للنقل البحري كان من عادتهم في لحظة الرحيل إلقاء إكليل من الزهور في الماء، وكان هذا بمثابة وعد يقطعه المسافر بأنه سيعود في قادم الأيام. كانت الأكاليل تعلق في أثر المخر[1] وتُسحق وتذوي ألوانها، تماماً كما انسحقت أزهار الغاردينيا وذوت ألوانها في فلتر بركة السباحة في منزل برينتوود بارك.

في صباح اليوم التالي عندما استيقظت حاولت أن أتذكر كيف كان ترتيب الغرف في منزل برينتوود بارك. تخيلت نفسي أتجول بين الغرف، في غرف الدور الأرضي في البداية، وفي غرف الدور الثاني بعد ذلك. في وقت لاحق من ذلك اليوم أدركت أنني نسيت إحدى الغرف.

1- الأثر الذي تتركه السفينة وراءها.

لا بد أن إكليل الزهور الذي تركته في كاتدرائية القديس جون قد ذوى الآن.

أكاليل الزهور يذوي لونها، الصفائح التكتونية[1] تغير مكانها، التيارات العميقة تتحرك، الجزر تتلاشى، وغرف لطالما دخلناها تدخل في طي النسيان.

سافرت بصحبة جون إلى إندونيسيا وماليزيا وسنغافورة في العام 1979 والعام 1980.

بعض الجزر التي كانت موجودة هناك حينها قد اختفت الآن، وأصبحت مجرد مسطحات صخرية تغمرها مياه ضحلة.

أفكر في تلك الأوقات حين كنت أسبح بصحبته داخل الكهف في الحيد البرتغالي، أفكر في أمواج المياه النقية، أفكر في كيفية تغيرها، بالسرعة والقوة التي تكتسبها عندما تُحصر بين الصخور عند قاعدة الجرف. كان على المدّ أن يكون مناسباً تماماً. كان علينا أن نكون في المياه تماماً في اللحظة التي يكون فيها المدّ مناسباً. ربما قمنا بذلك نصف دستة من المرات على أكثر تقدير خلال العامين اللذين عشناهما هناك، لكن هذا ما أتذكره فقط. كلما فعلنا ذلك كنت أخشى من تفويت الموجة، من أن أهرب من وجهها، من أن أخطئ في تقدير موعد وصولها. ما كان جون يخشى أياً من ذلك. يجب أن تشعري بتغيّر الموجة. عليكِ أن تجاري التغيير، أن تتقبليه، أن تتأقلمي معه. هذا ما قاله لي. ما من عين تراقب العصفور، لكن... هذا ما قاله.

النهاية

1- الصفائح التكتونية هي قطع من قشرة الأرض والغطاء العلَوي، ويشار إليها معاً باسم الغلاف الصخري. تبلغ سماكة هذه الألواح حوالى 100 كم وتتألف من نوعين رئيسين من المواد: القشرة المحيطية (وتسمى أيضًا الهسما، تتكون من السيليكون والمغنيسيوم) والقشرة القارية (التي تتكون من السيليكا والألمنيوم.)

بسرعة تتغير الحياة.

في لحظة تتبدل الحياة.

تراك جالساً تتناول العشاء وإذ بالحياة التي تعرفها تنتهي.

أي شفقة على الذات تلك!

تلك كانت أولى الكلمات التي دوّنتها بعد أن حدث ما حدث. تاريخ التحديث الأخير كما يبيّن الملف الذي يحمل عنوان «أفكار عن التغيير» هو ٢٠«مايو، ٢٠٠٤، الساعة ١١:١١ ليلاً» لكن لا بد وأن هذا التاريخ يعود إلى آخر مرة فتحت فيها الملف وضغطت أمر الحفظ بلا تفكير قبل إغلاقه. لم أكن قد أجريت أي تغيير على النص في شهر مايو. في الحقيقة، لم أجرِ أي تغيير على الملف منذ أن كتبت هذه الكلمات في يناير ٢٠٠٤، أي بعد يوم أو يومين، أو ربما ثلاثة، من الواقعة.

مر وقت طويل بعد ذلك لم أكتب خلاله أي كلمة.

تتبدل الحياة في لحظة.

تلك اللحظة الاعتيادية.

في مرحلة معينة، وأثناء تذكر الجانب الذي بدا أنه الأكثر إثارة للدهشة ومدعاة للصدمة في ما حدث، خطر لي أن أضيف عبارة «اللحظة الاعتيادية». عرفت في الحال أنه لا حاجة إلى إضافة كلمة «اعتيادية» لأنني ما كنت لأنساها البتة... لم تكن الكلمة لتغادر ذهني أبداً. في الواقع كانت الاعتيادية المطلقة لكل ما سبق الواقعة هي ما حال بيني وبين تصديق أنها قد وقعت، وهي ما أعجزني عن استيعابها، واحتوائها، وتجاوزها. أدرك الآن أنه لم يكن ثمة شيء استثنائي في ما حدث: عندما تأخذنا مصيبة على حين غرة نركز جميعاً على الظروف الاعتيادية التي وقع ضمنها ما لم يكن في الحسبان...

ISBN 978-9933-6043-6-3

9 789933 604363